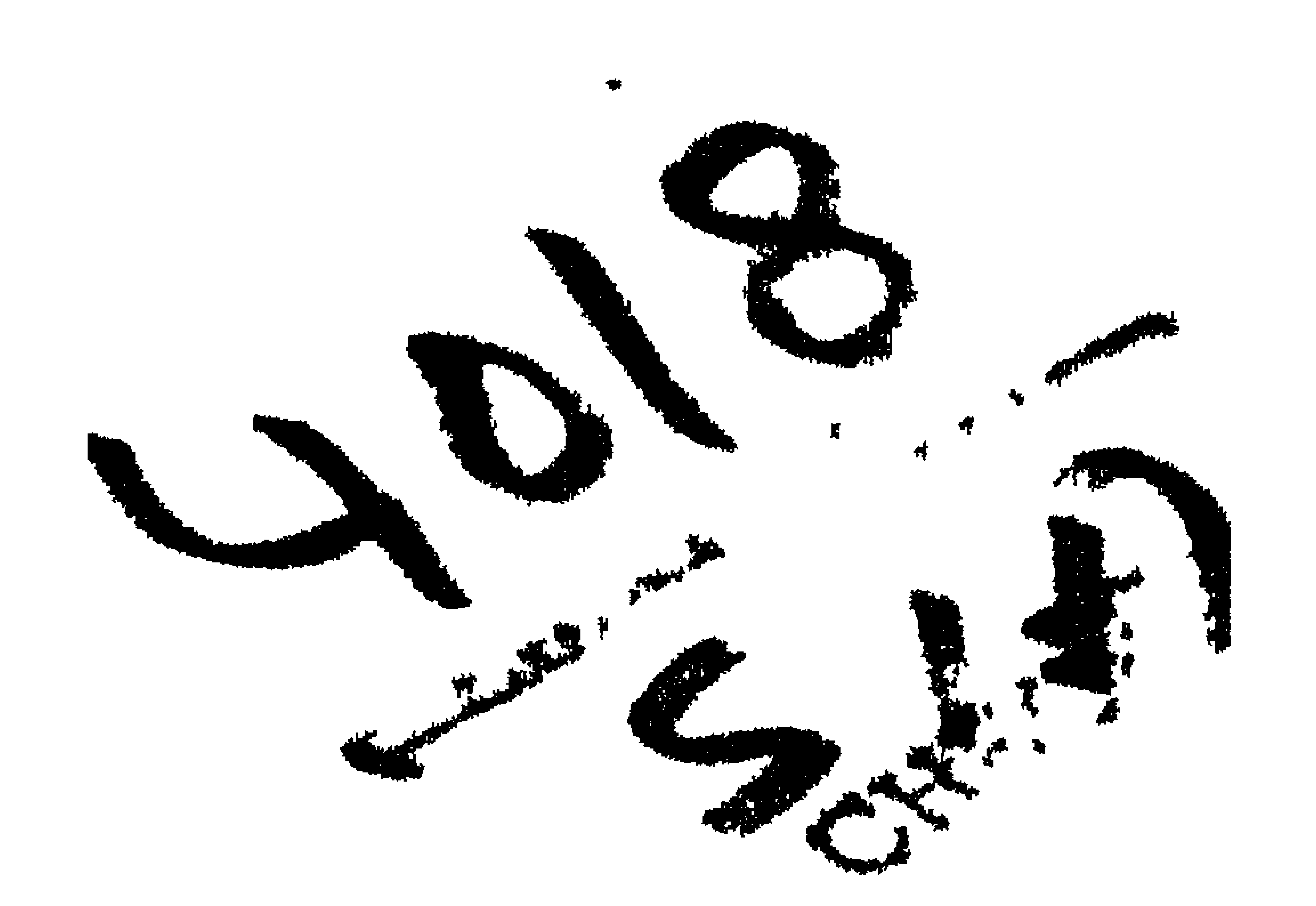
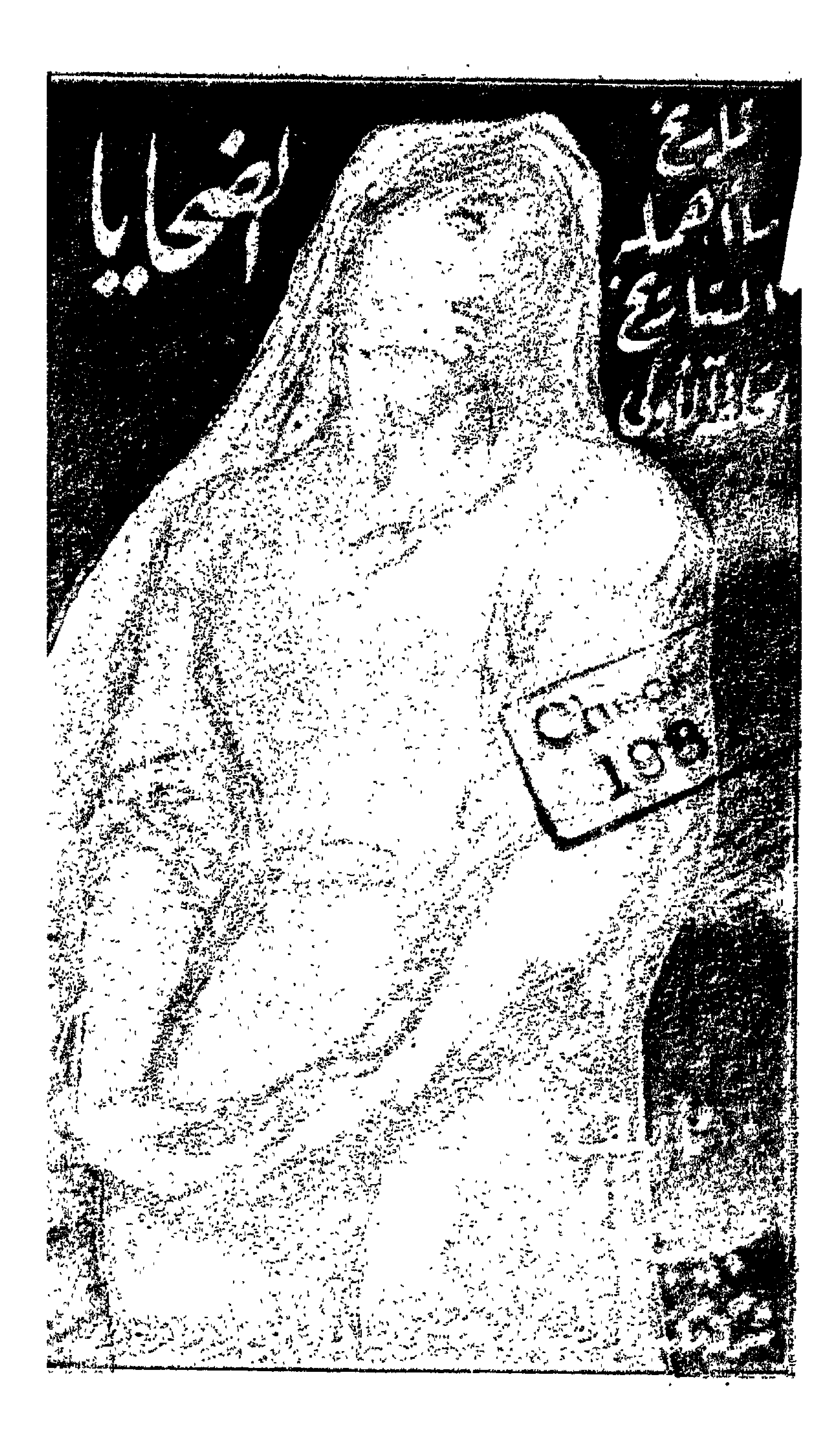
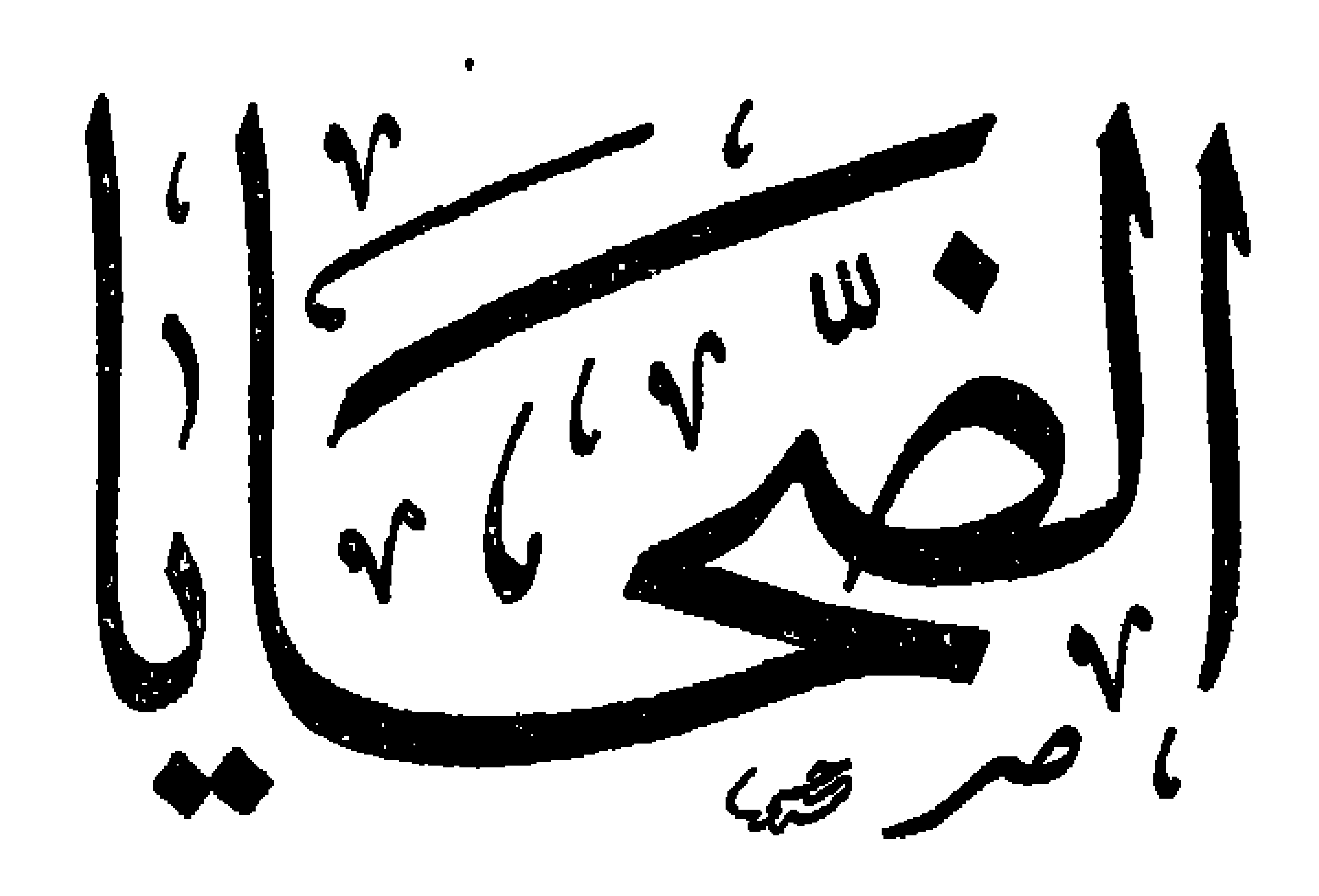



الضحایا

حبيب جاماتي



الحلقة الأولى



الطبعة الأولى

بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

باشر طبعه : محمد أمين عمران

سنة ١٣٥١ هـ — ١٩٣٣ م

رقم ٤٨٦

إهداء الكتاب

وقعت حوادث الاقصوصة الأولى من هذه الحلقة فى أثناء الثورة المصرية سنة ١٩١٩

فالى أرواح الشهداء، الذين حصدهم الرصاص ومزقتهم الرماح، فضحوا بحياتهم فى سبيل مصر، وماتوا لكى تحيا

اقدم كتاب «الضحايا»

ع . ج


مقدمة
الضحايا

تصدير

لشاعر القطرين ، وإمام الصناعتين
الأستاذ خليل مطران

« الضحايا » : أقاصيص نقلت عن متفرقات من الأنباء التاريخية ، فصلت تفصيلا موجزاً وافيا بأداء الغرض المرمى إليه بكلّ منها ، ومهد لها بما تشاؤه سعة الاطلاع من الملابسات الزمانية والمكانية ، واستخلص فى سياقها ماشاءت المغازى المقصودة بها من محاسن الفضائل أو مساوئ الرذائل .

جرى فيها مؤلفها الأديب الألمعى « الأستاذ حبيب جاماتى » مجرى خاصا ، توسّط فيه بين منحى العرب ومنحى الفرنجة . فأما العرب فقد آثروا بحكم طباعهم سوق كلّ نبإ على التجريد ، لا يعدون لباب الخبر ، ولايتناولون من صفة الأشخاص سوى مايعلق لزاماً بذلك اللباب . فعلوا ذلك باجادة إنشائية لا تضارع ، و إيجاز فى السرد يكاد يكون غاية فى الإيجاز ، ولم يقدروا للمطالع حاجة إلى الوقوف على غير الجوهر أوصبراً على تبسّط ، و إن كثرت فوائده ، يعوقه عن بلوغ القصد من أقرب سبيل .

٨

وأما الفرنجة فقد صنعوا من الأقصوصة مصغرا للقصة ، فهم يصفون فيها بالكلمة العاجلة ما يهيئ للقارئ الزمان والمكان ، و يبينون بالعبارة السريعة مقوّمات كلّ شخص ومميزاته ، و يكدّون الذهن فى تصوير النوازع النفسية ، والخلجات الوجدانية ، و يدخلون الحوار ، و إن لم ينفسح المدى إلاَّ لأقله ، ليقذف فى روعك أنك بمشهد ومسمع ممن تقرأ سيرتهم .

غير أن صاحب هذا الكتاب قد اختار ـ وله فى اختياره حكمة ـ أن يجعل أقاصيصه ، فى الصفحات القلائل التى خصها بكلّ منها، ملائمة للحالة النفسية الشائعة بين أبناء مصر ، بل بين أبناء الشرق العربى قاطبة ، فانتقى من الأنباء المشهودة أو المنقولة عن التاريخ ما فيه مظنة عبرة لهم ، وساق حديثه مساقا سهلا ، سلساً ، شائقا ، يهزّ المشاعر هزّا عنيفاً قد يصل إلى اغوارها ، و يغذى العقول بألوان من الطرائف لم تكن لولاها بقريبة المنال منها . لا يريد بالخبر الذى يحكيه لك الخبر بذاته ، بل بكلّ ما يحيط به من صور وذكريات وأمور لها خطرها وموقعها المتمم للغرض المقصود منه . ولا يتوخى من اللغة التى يكتبها إلا أن تكون صافية قريبة إلى المتداول ، حتى لا يبعد على أحد تناول أدقّ المعانى الواردة فيها . وقد تفادى الاملال بجعله الأساليب متنوّعة رشيقة ، واحتال كلّ حيلة دقيقة فى البيان لتشتغل أذهان متصفحيها بالموضوع

عن الوسيلة التى اتخذها لأدائه، فيبلغ منها مبلغه غير منقوص من جانب القوّة والروعة .

هـذا وكأننى بالكاتب ، الفاضل حين جعل لفظة « الضحايا » عنوانا لهذه المجموعة الأولى من الأقاصيص ، قد أشار بلطف إلى إزماعه التوفر على وضع الكثير منها ، وإلى التأليف بين المتجانسات فى خواتيمها الفاجعة أو المتشاكلات فى الأغراض العامة الأخرى التى تنتظم كلّ طائفة منها لتكون كلّ مجموعة منها حلقة من سلسلة واسعة . وقد أحسن بما نوى . وإنا لنتمنى له التوفيق إلى إهداء طرف زاكية العداد من هذا النوع الأدبى الجديد إلى الناطقين بالضاد .

أما الأقاصيص التى تسنى لى تصفحها من هـذه الحلقة ، فكلّ منها مجال جرى فيه ابتكار واضعها الأديب إلى أبعد الغايات المطلوبة فى أمثالها .

خذ مثلا الأولى منها ، وهى التى وسمت باسم : « البطل المجهول » تجد أحدوثة صغيرة شائقة فى إطار لخصت به القضية المصرية أروع تلخيص اشتمل على لباب القضية ، وعلى الأصول التى لا تمترى للحقّ فيها ، وعلى وثبة الأمة وبذلها النفوس والنفائس فى سبيلها لايختلف فى ذلك الأصاغر عن الأكابر ، وعلى موجز ما نطقت به ألسنة الفصحاء وجرت به أقلام البلغاء ، من تظلم واستصراخ وبثٍّ وحَثٍّ ، بما تأخذك تلقاءه هزّة الذكرى لما تضمّنته تلك الكلمات القلائل والعبارات

المقتضبة البعيدة الدلائل من صور الوقائع الكبيرة والحوادث الجلائل . فاظنن بما يكون فى النفس موقع الحكاية التى لا تعمُّل فيها ولا تركيب ولا تزويق بيانى ، وهى تحصَّل فى صبىّ كاسب لوالديه المقعدين عن طلب الرزق ، يشهد فى سنة ١٩١٩ بميدان الأوبرا حشدا وطنيًّا ضخما مهتما بشأن الزعماء الأربعة المبعدين عن بلادهم ظلماً بسبب دفاعهم عن استقلالها ، فينهره أحد الجنود ليبتعد عن مكان الاجتماع ، فيصيح فى وجهه : « يحيا سعد ! » ويسقط صريعاً برصاصة الجندى .

إنى لأعيد عليك هذه الحادثة فى بضعة السطور الآنفة وبى خجل من ضعف أدائها بالقياس إلى مابها من قوّة فى الأصل تستدر العبرات بل تكاد تنتزع القلوب من الصدور .

هذا ، ولا أرانى فى حاجة إلى ذكر أن الأقاصيص الأخرى كلٌّ فى موضوعها ، لا تقلّ أثرا عن هذه فى النفس ، مضافاً إلى براعة سياقها ، وحسن اختيار مرماها ، وصف خلاب ، تتخلله معلومات ومزكونات ومستخلصات من بطون السير ، تتركز فيها محتويات مجلدات جمة كما تتركز أزاهر حدائق كثيرة العدد فى قطرات من العطر . ويجدر بى قبل أن أختم هذه الكلمة أن أذكر للمؤلف بالحمد الذى يوافقنى عليه كلّ محبّ لهذه البلاد، انه أدار حوادث معظم أقاصيصه على محور لم يختلف عنصره وإن اختلفت صوره ، وذلك المحور هو تمجيد مصر فى أشخاص من شعبها. « فالبطل المجهول » و « الأنشودة المصرية » و « الأسكندر

والمصرية الحسناء » و « ابنة النيل » و « بأمر الحاكم بأمره » و « انطونيو والعرّافة » الخ . كل أولئك يصدر عن مصر أو يمرّ بك فى بلد آخر شرقي أو غربى ، معيداً عليك ما ظهر ، أو كاشفاً لك ما استتر من شئون عامة أو خاصة فى تلك الأقطار ، والمرجع الذى يستقرّ عليه فكرك من جولات القلم فى تلك الشئون هو الحمية المصرية ، أو العفاف المصرى ، أو الإباء المصرى ، أو الوفاء المصرى ، أو الذكاء المصرى ، فى واحد واحد من الأشخاص البارزين فى تلك الأقاصيص .

فالتصرف الجميل فى التنقل بذهن المطالع بين كلّ عجيب وطريف ورائع من الصفات والأنباء فى مختلف من المواطن ، ليستخرج به أروع ما يقتبسه العقل أو أبدع ما يصبو إليه القلب من فضائل ممثلة، تعلى شأن مصر فى نفوس أهليها ، أو فى نفوس الأجانب عنها ، أليس مما يدعو بحقّ إلى جعل الثناء على ذلك المؤلف المتفنن البارع والصديق الأريحى الكريم مسكا لختام هذه المقدّمة ؟

خليل مطران

مصر فى ٥ يناير سنة ١٩٣٣

صور أروع آلام الحياة ...

للأستاذ محمود رمزى نظيم

صِغْتَ أَلْوانَ «الضَّحَايَا» عَجَبا ... يَا صَدِيقَ القَارِئِينْ
كُلُّ مَنْ يقْرَأُ هذَا الأَدَبا ... يقْرَأُ السِّحْرَ المُبِينْ

صفَحَاتٌ هِىَ بُسْتَانُ البَيَان ... وَأَزاهِيرُ الأَدَبْ
أَلَّفَ الكَاتِبُ مِنْ خُضْرِ الجِنَان ... طَاقَةَ الزَّهْرِ الحَزِينْ

شَاعِرٌ وُجْدَانُهُ أَرْسَلَهَا ... لِلْقُلُوبِ الشَّاعِرَهْ
وَرِسَالاَتُ الأَسَى يَحْمِلُهَا ... قَلْبُهُ الحَىُّ الأَمِينْ

أَيُّهَا البَاكِى لَقَدْ أَبْكَيْتَنَا ... حِينَ رَجَّعْتَ الصَّدَى
أَيُّهَا القَصَّاصُ قَدْ أَشْجَيْتَنَا ... فبَكَيْنَا مُرْغَمِينْ

قَلَمٌ يَا صَاحِ أَمْ قِيثَارَةٌ ... أَسْمَعَتْنَا لَحْنَهَا
كُلُّ حَرْفٍ مَا زَجَتْهُ دَمْعَةٌ ... أَوْ حَنِينٌ أَوْ أَنِينْ

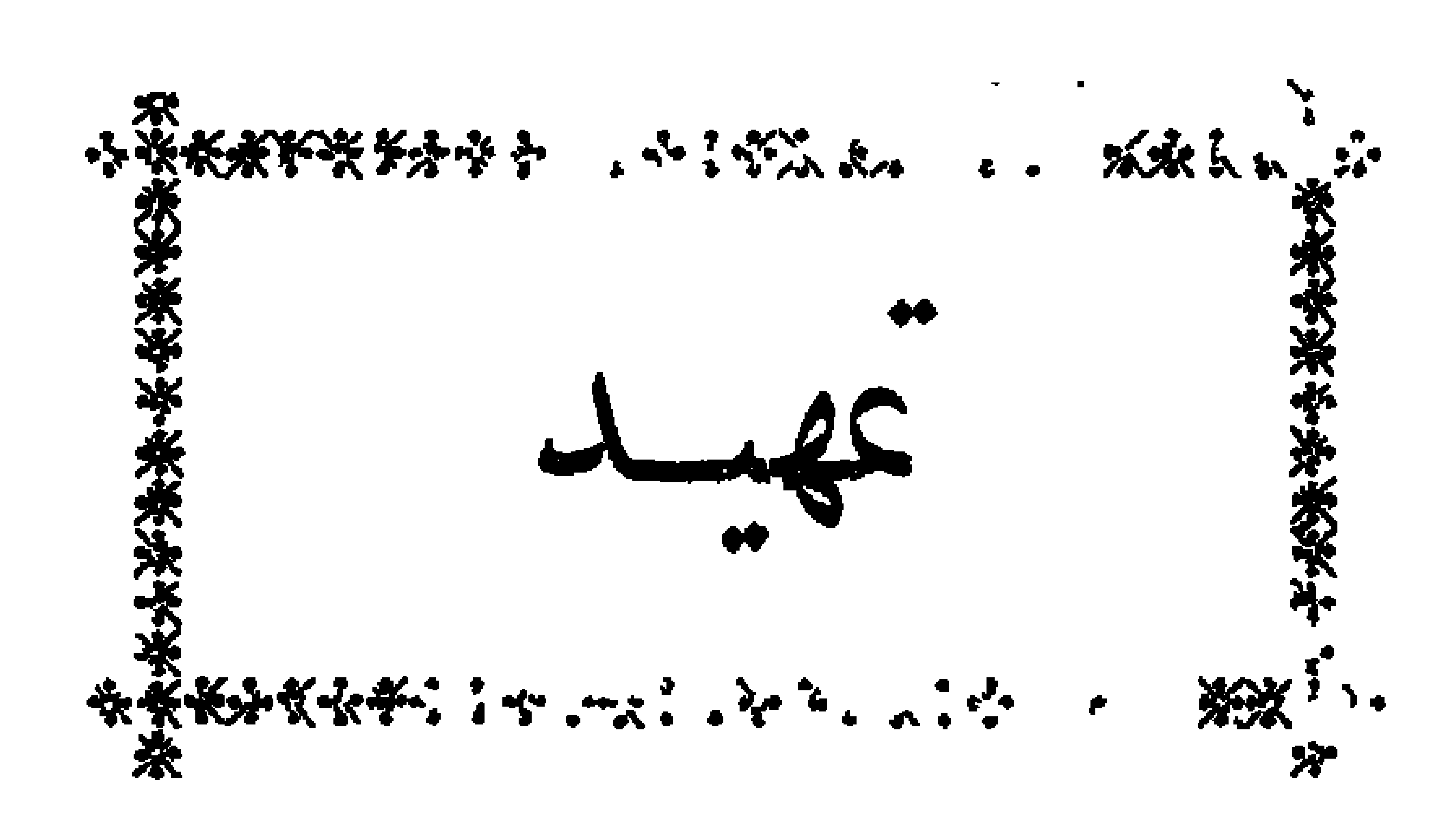
١٤

صُوَرٌ أَرْوَعُ آلامِ الْحَيَاةْ مِنْ أَفَانِينِ «حَبِيبْ»
أَغْفَلَتْهَا كُلُّ أَفْوَاهِ الرُّوَاهْ مِنْ صَرِيعٍ أَوْطَعِينْ
كَمْ فَتًى رَاحَ فِدَاءَ الْوَطَنِ وَانْتَسَى تَارِيخُـــهُ
قَامَ حَيًّا مِنْ ثَنَايَا الْـكَفَنِ فِى ثِيَابِ الخَالِدِينْ
وَفَتًى مِنْ نَظْرَةٍ قَاتِلَةٍ جَاءَهُ بِالرُّوحِ وَرَاحْ
رَدَّهُ فِى قِصَّـــةٍ بَارِعَةٍ عِـــبْرَةً لِلْعَاشِقِينْ
وَشَهِيدُ الْفَنِّ مَنْ يَرْثِى لَهُ غَيْرُ أَرْبَابِ الْفُنُونْ
رُبَّ شَخْصٍ عَصْرُهُ أَهْمَلَهُ وَهُوَ النَّبْعُ المَعِينْ
دِقَّةُ الْإِحْسَاسِ أَوْحَتْ لِحَبِيب كُلَّ تِلْكَ الذِّكْرَيَاتْ
فَهْىَ مِنْ تَصْوِيرِ فَنَّانٍ أَرِيبْ فَاقْرَءُوهَا مُعْجَبِينْ

مصر

أبو الوفاء

محمود رمزى نظيم



تمهيد

فن القصص

والقصـــة التاريخيـــة

كان الإنسان منذ بدء الـكون ، ولا يزال ، وسوف يظلّ إلى ماشاء الله ، يحب الأقاصيص ، و يميل إلى سماعها ، لافرق فى ذلك بين الطفل فى كنف والديه ، والطالب فى مدرسته ، والرجل وسط أعماله وأشغاله .

فلا غرابة فى أن يكون فنّ القصص أوّل فنّ نبغ فيـه الانسان قبل أن يخترع الـكتابة ، وأوّل نوع من أنواع الأدب مارسه .

ولست أقصد بهذا التمهيد لمجموعة « الضحايا » أن أكتب تاريخ القصة عند الشرقيين والغربيين ، ولـكننى أذكر مجمل ذلك التاريخ ، لـكى أتحدث بعـد ذلك إلى القارئ عن الأقاصيص التى نشرتها بهذا العنوان العام : « تاريخ ما أهمله التاريخ » والتى أقدم له اليوم أوّل

حلقة من حلقاتها ، وعن الحقيقة التاريخية ومبلغها فى هذه الأقاصيص .

* * *

إن المصريين القدماء لم يهملوا الفنّ القصصى ، وقد تركوا لنا فى أوراق البردى كثيراً من الأقاصيص التى تتغلب فيها الناحية الغرامية الممزوجة بالتدين الشديد الذى كان يمتاز به المصريون قديماً ، وقد تناول كثيرون من علماء انجلترا وفرنسا وألمانيا تلك الآثار التى تركها المصريون فى هياكل الآلهة ومقابر الملوك ، فنقلوها إلى مختلف لغاتهم ، واستعانوا بها فى دروسهم ومباحثهم ، لمعرفة ما كانوا يجهلونه من دقائق الحياة المصرية فى تلك العصور الغارقة فى القدم .

ومارس الأقدمون فنّ القصص، فترك لنا اليونانيون والرّومانيون فى الغرب ، والصينيون واليابانيون والهندوكيون فى الشرق ، نماذج بديعة من الفنّ القصصى . ولم يهمل العرب هذا الفنّ ، بل انهم قطعوا به شوطاً بعيداً ، وأقاصيص « الأغانى » مشهورة رائعة . أما « ألف ليلة وليلة » فتعدّ آية من آيات هـذا الفنّ ، وقد أعجب بها الغربيون فنقلوها إلى معظم لغاتهم .

كانت موضوعات الأقاصيص من قبل خيالية ، ثم وجد واضعوها فى حوادث الحروب والغزوات ينبوعاً فياضاً ، فجعلوا يصوغون

تلك الحوادث فى قالب جذاب ، ثم راحوا يستمدون من حياة مواطنيهم اليومية موضوعات تجمع بين الحقيقة والخيال ، إلى أن بلغ ذلك الفنّ ، فنّ القصص ، أوج الكمال فى هـذا العصر ، حيث أصبح بين أنواع الأدب أكثرها ذيوعاً ، وأغزرها مادة ، وأحبها إلى الكتاب والقراء على السواء .

***

ولا شكّ فى أن فرنسا كانت فى القرون الأخيرة ولا تزال إلى الآن أسبق الأمم فى هذا المضمار . وإذا تجاوزنا « رابليه » ومعاصريه ، فاننا نجد فى فرنسا رهطاً من الأدباء الأعلام نبغوا فى وضع الأقاصيص وطرقوا جميع أنواعها . فهناك فولتير ، وشارل نوديه ، وبالزاك ، واسكندر دوماس ، وفلوبير ، والفونس دوديه ، وأميل زولا ، وهويسمان ، وفرانسوا كوبيه ، واناتول فرانس ، وموسيه ، وموباسان وغيرهم ممن يضيق المقام عن ذكرهم . وإذا كان أدباء انجلترا وروسيا وألمانيا وغيرها قد سبقوا زملاءهم الفرنسيين فى بعض أنواع الأدب الأخرى ، ففضل التقدم فى الفن القصصى يرجع إلى الفرنسيين وحدهم بلا نزاع ، فهم الذين أوجدوا جميع المذاهب القصصية التى أقرّها النقد الأدبى .

وتاريخ الأدب الإيطالى حافل أيضاً بالطرائف من هـذا القبيل .

ويكفى إيطاليا فخراً أنها أنجبت بوكاتشى ، وساكيتى ، وبانديلو وغيرهم من واضعى الأقاصيص الخالدة..

ونبغ فى ألمانيا هانس ساخس ، ووالدس ، وهاجدورن ، ونيكولاى ، وشوبارت ، وعلى الخصوص هوفمان ، الذى ترجمت أقاصيصه إلى جميع اللغات الحية .

ولإنجلترا أن تفاخر من جهتها بشوسر ، ودرايدن ، وبريور ، وديكنس . وقد طافت أقاصيص ديكنس العالم بأسره ، ونقلت إلى كثير من اللغات .

وعالج كثيرون من أدباء اسبانيا فنّ القصص ، ونجحوا فيه إلى حدّ بعيد ، ومعظم أولئك الأدباء الاسبانيين نقلوا إلى لغتهم أقاصيص ألف ليلة وليلة ونوادر العرب كما جاءت فى كتاب الأغانى ، وحاولوا أن يقلدوها ، ويضعوا مثلها باللغة الاسبانية ، مستمدّين موضوعاتهم من حوادث الأندلس فى عهد الحكم العربى .

ووضع الأميركى واشنطن ارفنج بضع أقاصيص سماها « قصص الحمراء » تقع معظم حوادثها فى قصر الحمراء بغرناطة .

ويحتلّ أندرسن الدانماركى مكاناً خاصاً بين واضعى الأقاصيص فى بلاد الغرب .

***

أهمل أدباء العربيــة فنّ القصص ، ولا يزال إهمالهم هـذا إلى الآن ممـا يدعو إلى الأسف . فكتاب العربية الذين يمـارسون هـذا النوع من أنواع الأدب قليلون ، ومعظمهم يعمد إلى ترجمة الأقاصيص الافرنجية ترجمة حرفية ، أو يحوّرها بصورة يعتقد معها أن تلك الأقاصيص أصبحت شرقية أو عربية ، مادامت الأسماء الغربية فيها قد تبدّلت وتغيرت !

ولـكن القليل الذين وقفوا أقلامهم على خدمة الفنّ القصصى والنهوض به والدعوة إليه ، يعملون بنشاط واجتهاد يحمدون عليهما ، ولا بدّ أن يكلل مجهودهم بالنجاح ، عاجلا أو آجلا ، فيأخذ هذا الفنّ مكانه بين أنواع الأدب الأخرى ، كما هى الحال فى أوروبا .

***

حدث فى العام المـاضى أن عالجت فى مجلة « كلّ شىء » الغراء بعض الموضوعات الأدبية ، فكتبت عن التأليف وحماية حقوق المؤلفين والظروف الغريبة التى تكتنف المؤلف وطبع نفثات قلمه فى مصر . فليسمح لى القارئ أن أدوّن فى هـذا « التمهيد » ملخص رأيى فى ذلك كله ، وأن أضيف إليه كلمة موجهة إلى أصحاب : —

شركة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الذين يتولّون الآن طبع هذه الأقاصيص ونشرها :

منذ ست سنوات طلب منى أحد أصحاب الصحف اليومية ترجمة رواية فرنسية مشهورة إلى اللغة العربية لنشرها تباعاً فى جريدته ، فلبيت الطلب ، ونقلت إلى العربية تلك الرواية التى كان مؤلفها الفرنسى قد طبع منها مئات الآلاف من النسخ فى فرنسا .

وكان فى نيتى أن أطبع روايتى فى كتاب بعد الانتهاء من نشرها على صفحات الجريدة ، ولكن حدث بعد الانتهاء من ذلك ، أن كنت جالساً فى احدى المقاهى فمرّ أمامى بائع كتب و بيده رواية يدل عنوانها على أنها هى هى الرواية المترجمة المشار إليها !

أخذت نسخة من الرواية ، وجعلت أقلب صفحاتها ، وأقرأ بعضها ، فاذا بى أمام ترجمتى الحرفية ، التى سطا عليها أحد أصحاب المطابع ، وجعل يجمعها كل يوم بعد صدور الجريدة ، حتى إذا ما انتهت الرواية كان صاحبنا قد طبعها « بلا إذن ولا دستور » وألقاها للبيع فى السوق ، بعد أن شطب اسم المترجم الحقيقى ووضع محله اسم رجل آخر !

وحاولت أمام تلك اللصوصية الغريبة أن أدافع عن نفسى وأسترد حقى ، لكنى فشلت ، واضطررت إلى العدول عن نيتى فلم أطبع كتابى

الذى لايزال إلى الآن متداولا فى السوق باسم رجل آخر ، لم يكتب فى الرواية سطراً واحداً . ! .

هـــذا مثل من الأمثلة العديدة التى تقع كل يوم ، وحادث من الحوادث التى أصبحت عادية سارية . فالمؤلف أو المترجم لا يستطيع حماية نفســـه وحماية مؤلفاته من سطو اللصوص أمثال صاحب المطبعة الذى أشرت إليه .

وقد رفعت أمام المحاكم الأهلية قضايا مدنية طالب فيها رافعوها بمـا يسمونه حقوق التأليف وحمايته ، فخسروا قضاياهم ، وكانت النتيجة أن تمـادى بعض أصحاب المطابع فى سطوهم على حقوق الغير .

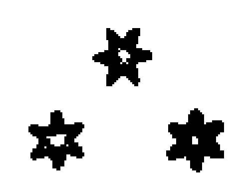
وما دام الأديب يعلم أن عمله غير مصون وأنه لايتمتع بحماية القانون والنظام أسوة بغيره من « أصحاب الاملاك » إذ أن الكتاب يجب أن يكون ملكا لصاحبه ، أقول ما دام هذا هو حال لأديب ، فان نشاطه لابدّ أن يظلّ عرضة لـكبوات تتلوها كبوات . . .

***

وفى هـذه المناسبة أذكر أن فى أوربا ، وعلى الخصوص فى فرنسا ، جمعيات تسهر على حماية حقوق المؤلفين والمترجمين من عبث العابثين ، فضلا عن أن القوانين القائمة هناك تضمن لهم تلك الحماية ، وتكفل لهم حقوقهم .

ففى فرنسا مثلا جمعية اسمها « سوسيتيه دى جان دى ليتر » أى جمعية حملة الأقلام ، ينضوى تحت لوائها كتاب فرنسا على اختــلاف ألوانهم ونزعاتهم ، وهى تراقب عن كثب بواسطة مندوبيها ووكلائها ومكاتبها فى جميع أنحاء العالم ، كلّ ما ينشر فى الجرائد والمجلات وما يصدر عن المطابع والمكاتب ، وليس على المؤلف أو المترجم أن يهتمّ بالسهر على حقوقه ، فان الجمعية تفعل ذلك بالنيابة عنه ، وتحصل له ما يستحقه من رسوم وأتعاب ممن ينقلون أو يترجمون شيئاً من نفثات قلمه . ولهذه الجمعية وغيرها من الجمعيات المشابهة لهـا وكلاء فى مصر ، بحيث أن حقوق المؤلفين الفرنســيين تظلّ محترمة محفوظة فى خارج وطنهم كما هى محترمة محفوظة داخل فرنسا .

وقد نظرت المحاكم المختلطة بمصر فى قضايا رفعها وكلاء تلك الجمعيات على بعض الـكتاب المصريين الذين ترجموا إلى العربية مؤلفات فرنسية دون أن يحصلوا على تصريح بذلك من أصحاب تلك المؤلفات ، وحكمت لهم بتعويض مالى .



ووقعت لى حادثة أخرى عوّضت علىّ بعض الضرر الذى لحقنى بسبب الحادثة الأولى :

كتبت مرّة قصة مصرية اسمها « رمال مصر » باللغة الفرنسية ، Sables d'Egypte ، و بعثت بها إلى مجلة فرنسية أدبية تصدر فى باريس ، فنشرتها ، وأرسلت إلىّ مبلغاً من المـال ، وطلبت أن أكتب لهـا غيرها ففعلت .

ومرّت سنتان على نشر القصة ، و إذا بى ذات يوم أتلقى كتاباً من إدارة المجلة تقول لى فيه ان مجلة أخرى نقلت عنها قصة «رمال مصر» ودفعت لهـا « حقوق التأليف » وأرسلت إلى إدارة المجلة مع كتابها تحويلا بالمبلغ ! ولو لم تفعل ذلك لمـا طالبتها بشىء لأننى كنت أجهل تمـاماً أن مجلة فرنسية أخرى نقلت تلك القصة وأن لى عليها حقوقاً فى استطاعتى أن أطالب بها !

ومرّت شهور أخرى و إذا برسالة ثانية من إدارة المجلة تنبئنى بأن إحدى شركات السينما ترغب فى مفاوضتى لأجل الحصول على حقّ إخراج تلك القصة المصرية فى شريط سينمائى وتطلب معرفة الشروط التى اشترطها لذلك .

فوضت الادارة نفسها بأن تنوب عنى فى مخابرة الشركة ، وتمت المخابرة بين الطرفين ، وأبلغتنى إدارة المجلة نتيجة الاتفاق وشروطه ، مشفوعة أيضاً بمبلغ من المـال دفعته شركة السينما فوراً !

هذا مثال ممـا يصنعه الأورو بيون مع المؤلفين ، أرو يه هنا لمقارنته

بالحادث الذى سقته إلى القراء عن السرقات الأدبية فى مصر ، ولكى يظهر لهم الفارق بين احترام حقوق التأليف فى مصر واحترامها فى بلاد الغرب .

فهناك ، المؤلف يربح ، والناشر يربح ، وكلّ من يستفيد من نفثات قلم المؤلف يربح ويفيد سواه .

* * *

وأقول بهذه المناسبة ان جميع الروايات الأفرنجية التى تمثلها الأجواق الأوربية فى مصر فى فصل الشتاء ، على مسرح الأوبرا أو غيره ، يدفع عليها رسوم يقبضها وكيل جماعة المؤلفين فى مصر ، ويبعث بها إلى أصحاب الشأن فى بلادهم . فكأن المؤلف هناك مطمئن على تحصيل حقوقه دون أن يحرّك ساكناً أو يحمل نفسه مشقة البحث والتحرّى ، لأن الهيئة المنظمة التى ينتمى إليها تسهر على حقوقه ولا تترك لأحد مجالا للسطو عليها ، ليس فقط فى الداخل بل أيضاً فى الخارج .

أما عندنا ، فأىّ مؤلف مسرحى فى استطاعته أن يحمى رواية وضعها من سطو الأفراد والجماعات « الفنية ؟ » بل أى مسرح يستطيع أن يحمى روايته من ذلك السطو ، وهو صاحبها ودافع ثمنها إلى المؤلف ؟

يموت المؤلف فى أوربا فتبقى رواياته ملكا لورثته ، ينتفعون بريعها مدّة معينة ، تتراوح بين الثلاثين والخمسين سنة بعد وفاته . أما هنا ،

فان روايات المؤلف تصبح مشاعاً بين الناس وملكا للجميع ، وهو مازال حياً يسعى إلى رزقه والرزق يهرب منه !

ومن أجل ذلك ، نرى المؤلفين هناك ممتلئين نشاطاً وحماساً ، ونراهم هنا فى غمرة من اليأس والوهن !

***

ولا بدّ لى من التطرق إلى الحديث عن أصحاب المكاتب والمطابع ، فان البعض منهم – ويا للأسف ! – يقفون حجر عثرة فى سبيل النهضة الأدبية ونشر الثقافة وإبراز المؤلفات إلى عالم الوجود .

إنّ الباحث عن الطرق والأساليب المتبعة فى طبع الكتب ونشرها فى بلادنا ، يهوله ما يصل إلى علمه من أمرها ! وأخشى لو تبسطت فى هـذا الموضوع أن أسىء إلى هذا أو ذاك من أصحاب المكاتب والمطابع ، وليس الغرض من تدوين هـذه الآراء الاساءة إلى أحد .

ولكن لابدّ من الإشارة إلى أعمال البعض ممن يتولون طبع الكتب ونشرها ، وهى أعمال أقلّ ما يقال فيها أنها لاتتفق مع العرف والضمير والعدل والانصاف ، وتلحق بالناشرين الذين يغارون على سمعة مهنتهم الشريفة ، ضرراً أدبياً كبيراً – قد يكون أيضاً فى بعض الأحيان مادياً . . .

ولو بحثنا بين جماعة الناشرين فى مصر ، لوجدنا لذلك الرجل الذى حدثت القارىء عنه وعن سرقته ، زملاء يمشون معه يداً بيد ، وجنباً إلى جنب !

وأختم هذا الحديث بكلمة شكر وثناء أوجهها إلى الأفاضل أصحاب مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر ، الذين أتاحوا لى فرصة جمع هذه الأقاصيص وتقديمها للقارىء فى كتاب ، والذين لقيت فيهم الاتقان فى العمل ، والنزاهة فى المعاملة ، والدقة فى المواعيد ، واحترام الحقوق والواجبات على السواء ، والحرص التام على كرامة المهنة وسمعتها .

* * *

بقى علىّ أن أقول كلمة فى « القصة التاريخية » ، وفى هذه المجموعة التى أقدمها اليوم للقارىء والتى عزمت باذن الله على أن أتبعها بغيرها .

إن كتب التاريخ تقصّ علينا حياة الأمم والعشائر والجماعات . أما الرّواية والقصة ، إذا كان موضوعهما مستمدّاً من حوادث التاريخ ، فانهما تقصان علينا حياة الأفراد وسط تلك الجماعات والعشائر والأمم . وهذا ماتوخيته من وضع الأقاصيص التى جعلت لها هذا العنوان العام : « تاريخ ما أهمله التاريخ » .

لقد كتب كثيرون من أدباء العربية « روايات تاريخية » فتحوا بها فى عالم الادب فتحا جديدا . وأذكر بينهم فى هــذه المناسبة المرحوم

جورجي زيدان ، منشئ « الهلال » ، والزميل الصديق معروف الأرناؤوط ، صاحب جريدة «.فتى العرب » الدمشقية ، وواضع رواية « سيد قريش » الطريفة .

لكن « القصة التاريخية » كانت مهملة فى الأدب العربى ، خلافاً « للرّواية التاريخية » التى عالجها بعض الكتاب كما قلت . وقد حاولت أن أسدّ الفراغ ، وأعدّ من يمن طالعى أن أوفق فى محاولتى هذه بعض التوفيق .

***

فى سنة ١٩٢٧ نشرت فى مجلة « المصوّر » البيان الآتى :

« تجمع لدىّ عدد كبير من الرسائل ، يسألنى فيها القرّاء أسئلة تنحصر جميعها فى هذه الكلمات :

(هل القصص التى تنشر فى « المصوّر » بتوقيعى و بعنوان : « تاريخ ما أهمله التاريخ » حقيقية أم خيالية ؟)

« ويسألنى البعض من أين أستمدّ التفاصيل ، وعلى أية كتب من كتب التاريخ أعتمد فى سرد الحوادث .

« وعلى هذا كله أجيب بصراحة واختصار :

« الحوادث التى أدوّنها بهذا العنوان : « تاريخ ما أهمله التاريخ » حقيقية واقعية فى جوهرها ، خيالية فى تفاصيلها .

« فقد رأيت أن فى التاريخ عامة ـ وفى تاريخ البلدان الشرقية خاصة ـ كثيراً من الحوادث التى يمرّ بها القارئ دون أن يعلق عليها أهمية ما ، أو يلتفت إلى تأثيرها وأثرها فى التاريخ وفى الأخلاق ، ففكرت فى أن أتناول تلك الحوادث ، الصغيرة فى حدّ ذاتها ، الكبيرة بمغزاها ، فأدوّنها فى قالب قصصى ، وأحيطها بهالة من الخيال تجعل سردها مستحباً للقرّاء ، ومطالعتها أقلّ جفاء من مطالعة كتب التاريخ المجرّدة .

« ولست مبتكر هذا النوع من الكتابة ، فقد سبقنى إليه كبار الكتاب من شرقيين وغربيين ، والرّوايات التاريخية كثيرة فى الشرق والغرب . لكننى اخترت الاقاصيص التاريخية الصغيرة ، دون الرّوايات الطويلة ، التى يتطلب وضعها مجلداً أو أكثر ، فجعلت أنتقى من كتب التاريخ الحوادث التى يسهل وضعها فى قالب قصصى يقع فى بضع صفحات ، فأقدّمها إلى القراء بعد أن أتخيل لها التفاصيل التى أراها قريبة للحقيقة أو مطابقة لها .

« وقد سألنى أناس عن أسماء الكتب التى استقى منها موضوعات قصصى التاريخية ، ولكننى لاأستطيع الردّ على هذا السؤال . فكتب التاريخ كثيرة ، وإنني أستعين بها جميعها لأن فى كلّ منها عشرات من الحوادث والوقائع والآثار والذكريات ، التى توحى للأديب شتى الموضوعات الصالحة لبناء قصة تاريخية .

«وهناك المتاحف ودور الآثار ومافيها . وهناك أيضاً المكاتب العامة والخاصة وما تحويه من مخطوطات ومحفوظات . وكلها مصادر يرجع إليها الكاتب إذا ما أراد أن يحدث قراءه عن وقائع التاريخ المجهولة أو الغامضة ، فضلا عن ذاكرة الشيوخ المعمّرين الذين يقصون على الجيل الحاضر حوادث الجيل الغابر . »

* * *

فالذى أقدمه إذن للقارئ اليوم هو الحلقة الأولى من سلسلة : « تاريخ ما أهمله التاريخ »

وعنوان هذه الحلقة : « الضحايا »

وقد يسأل القارئ لماذا اخترت لها هذا العنوان ؟

فجوابى : ان جميع أبطال هذه القصة راحوا ضحايا . . .

ضحايا الظلم والاستبداد . . .

ضحايا الغدر والخيانة . . .

ضحايا الحقد والانتقام . . .

ضحايا الطمع والجشع . . .

ضحايا الغرور والجنون . . .

ضحايا الثورات والحروب . . .

ضحايا العادات والتقاليد . . .

ضحايا السياسة والخداع . . .

٣٢

وأخيراً . . .

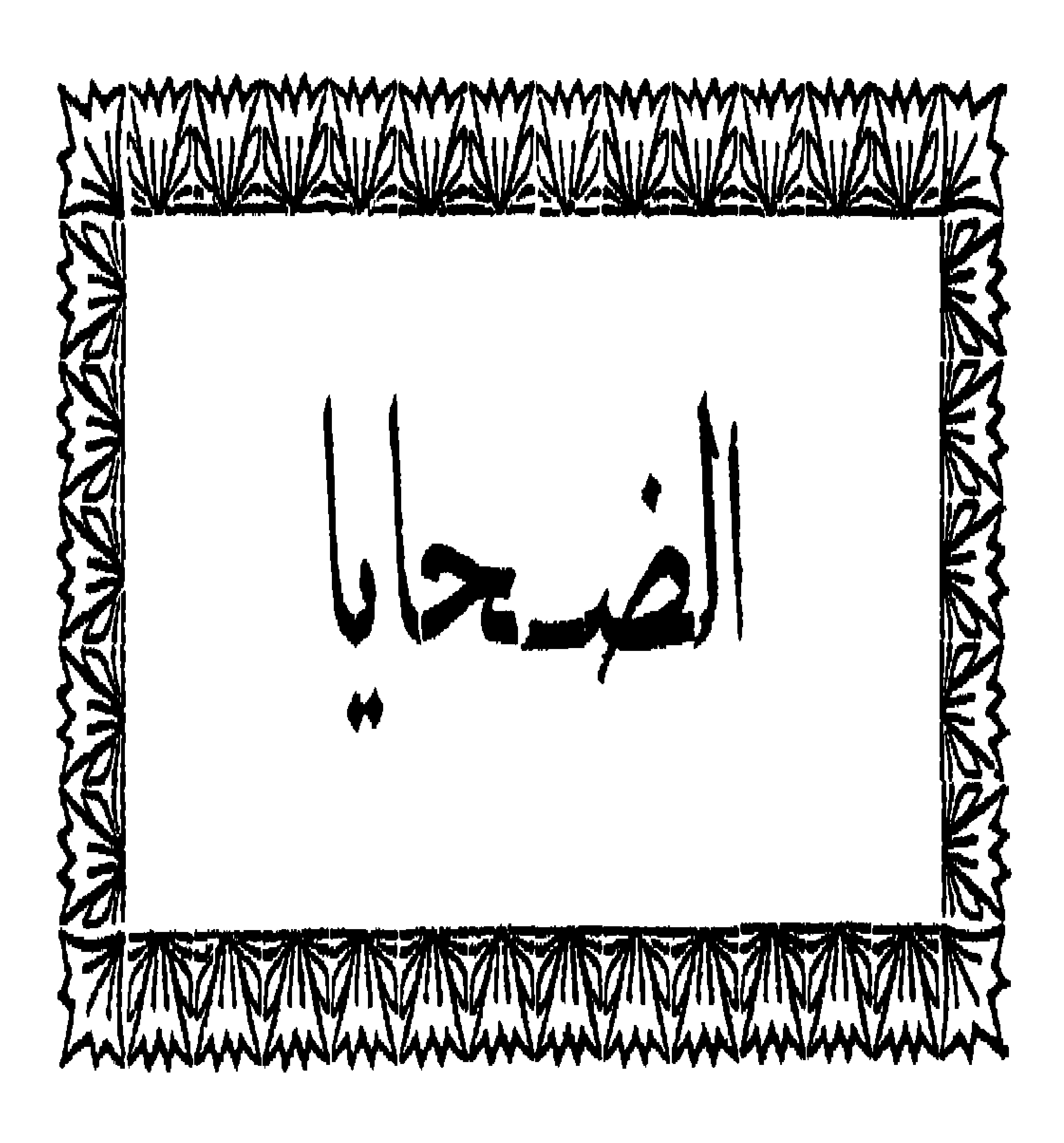
ضحايا الحبّ والهيام . . .

فعسى القراء أن يجدوا فى هـذه المجموعة الأولى تسـلية وفائدة ، وعسى أسلوب هذه الأقاصيص التاريخية أن يجد حظوة لديهم ، تشجعنى على المضىّ فى خدمة الأدب من هذا السبيل ؟

حبيب جاماتي

مصر . يناير سنة ١٩٣٣ — رمضان سنة ١٣٥١ .




الضحايا

«وأصيب برعى فى ذلك اليوم برصاصة استقرّت فى فخذه الأيمن»



١

البطل المجهول

في ميدان التضحية متسع للجميع

سعد زغلول

١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ...

دوى فى البلاد صوت سعد مصر ، فاهتزت له مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وسارت نبراته فى جسم الأمة سير الكهرباء ، فوقف أربعة عشر مليوناً من المصريين ، ماسكين أنفاسهم ، يتطلعون إلى الزعيم الجليل وصحبه ، وقد قصدوا إلى « دار الحماية » يعربون لعميدها عن أمانى مصر القومية ، ويطلبون القيام بالعهود المقطوعة ، وبالجلاء المرغوب فيه .

وكان ما كان من أخذ وردّ ، وصدق يقابله رياء ، وصراحة تقابلها مراوغة ، وودّ يقابله جفاء .

امتنع الأسد البريطانى ، عن إعادة « الأمانة » إلى أصحابها ، وكانت وديعة فى عرينه !

٨ مارس سنة ١٩١٩ . . .

حشدت بريطانيا العظمى المنتصرة جحافلها وأساطيلها ، وجردت سلاحها فى وجه من جاءها سافر الضمير مسالماً ، شاهراً بيده الحقّ الناصع سلاحاً .

عدّت المطالبة بالحياة الحرّة للوطن والعشيرة جرماً شنيعاً وعصياناً يعاقب عليه ، فأصدر القوىّ أمره بنفى الضعيف الأعزل ، وإبعاده عن وطنه وعشيرته .

أعمى الصلف والغرور بصر القوم وبصيرتهم، فغاب عنهم أن وراء الأفراد الأربعة (١) الذين أبعدوا بلاداً بأسرها تشدّ أزرهم ، وتشعر شعورهم ، وأن الاساءة إلى سعد ورفاقه إنما هى إساءة إلى وادى النيل من أدناه إلى أقصاه .

طير الانجليز بيدهم الشرارة التى أصابت المراجل فأحدثت فيها

(١) سعد زغلول باشا ، ومحمد محمود باشا ، وإسماعيل صدقى باشا ، وحمد الباسل باشا .

٣٧

ذلك الانفجار الهائل ، فثار الشعب ثورته ، وصعدت صدور أبنائه هتافاً واحداً وأمنية واحدة : « يحيا سعد ! الاستقلال التام ! »

* * *

فى التاريخ عظات وعبر ، لكن ابن آدم لايتعظ ولا يعتبر !

تغلب داود ، راعى الأغنام الاسرائيلى ، على جالوت الجبار الفلسطينى ، ولم يكن بيد داود سوى الحجر والمقلاع .

وتغلب اليونان على الفرس ، والبلغاريون على الأتراك ، والأمريكيون على الانجليز ، والهولانديون على الاسبان . . .

فى كلّ عصر من العصور الخالية ، ضرب الضعيف القوىّ ضربة ألقته صريعاً ، وحملته على الاعتراف مرغماً بما أبى الاعتراف به مخيراً .

لكن الانسان يسدل بسرعة على الماضى ستار النسيان ، فلا تؤثر فيه العظة ولا تنفع الذكرى .

والتاريخ لا يزال يعيد نفسه ، والأرض تدور دوراتها ، والجوارح تنقضّ على الطيور المهيضة الجناح ، والسباع تطارد الغزلان فى الغابات والصحارى ، والانسان يهضم حقّ أخيه الانسان !

* * *

« فى ميدان التضحية متسع للجميع ! »

ما أصدق كلمات سعد زغلول هذه ، وما أوسع معناها !

كان سعد فى ميدان التضحية سخياً ، يقابله اد سعد ورفاق سعد فى الجهاد بأموالهم وراحتهم وحرّيتهم وهنائهم ، فى سبيل القضية القومية المشتركة ، فكانوا للعالم قدوة ومثالا .

ولكن ما أكثر الشهداء الصغار بجانب الشهداء الكبار ، وما أكثر الضحايا المجهولة بجانب الضحايا المعروفة المشهورة !

كم من وضيع لم يكن يملك غير نفسه فجاد بها فى تلك الأيام العصيبة السوداء ، عملا بمبادىء سعد ، وإجابة لنداء البلاد ، وترضية للضمير الحىّ ، والنفس الأبية .



المغفور له سعد زغلول باشا

لا أزال أذكر حادثاً وقع أمامى ، فى مارس سنة ١٩١٩ ، فملأنى روعة ، إذ أننى لمست فيه قلب الصغار النابض ، وشاهدت روحهم

لجردة ، وأيقنت أن فى صدور أبناء الشعب جذوة شعور كامنة ، أذكاها لزعيم المرسل بسحر بيانه ، وقوّة إرادته ، وثبات إيمانه ، واتقاد وطنيته !

كان يجيئنى فى مكتبى ، فى تلك السنة ، غلام فى العاشرة من عمره يدعى « برعى » ، وكان ذلك الغلام بائع أوراق يانصيب ، « يسرح » بها من الصباح إلى المساء ، ويعرضها على « زبائنه » مبتسماً ناظراً إلى كلّ منهم نظرة ملؤها الأمل والرجاء ، مدعماً حركاته بقول لا يتغير ولا يتبدّل :

ـــ الورقة الباقية يابك . . . آخر ورقة يانصيب . . . هى الكسبانة يابك . . . خدها وحياة النبى ! .

وكان الناس يبتاعون منه أوراقه لا طمعاً فى الربح ولا رغبة فى « رؤية البخت » بل إجابة لرجاء الغلام وعملا بدافع الاحسان .

كانت أمه « غسالة » تطوف المنازل كلّ يوم ، ولا تذوق الراحة إلا فى يوم الجمعة من كلّ أسبوع . لكنها أصيبت بمرض أودى بنظرها ، فاضطرّت إلى ملازمة مسكنها .

وكان أبوه بناء . لكنه سقط ذات يوم من علوّ شاهق ، فأصيب بكسر فى رجله ، وجرح فى كتفه ، فأقعده ذلك عن العمل ، وصار مع زوجته عالة على الصبىّ الصغير المسكين .

أرادت الأمّ أن تخرج للتسوّل فى الشوارع والطرقات ، لكن الابن الطيب القلب حال دون رغبتها ، وتعهد بالقيام بمعيشة أبويه .

وبدأ منذ ذلك الحين يبيع أوراق اليانصيب، ويعود في كل مساء إلى كوخه بجوار القلعة، فيضع بين يدي والده ما اكتسبه من دريهمات.

كنا نعلم ذلك جميعنا، وكنا نبتاع أوراق اليانصيب من برعي الصغير، مرتاحين إلى عملنا، واثقين أننا نقوم بإحسان مزدوج.

* * *

لكن شاءت الأقدار إلا أن تحرم الأم الضريرة والأب المقعد من سندهما ومعينهما الوحيد . . .

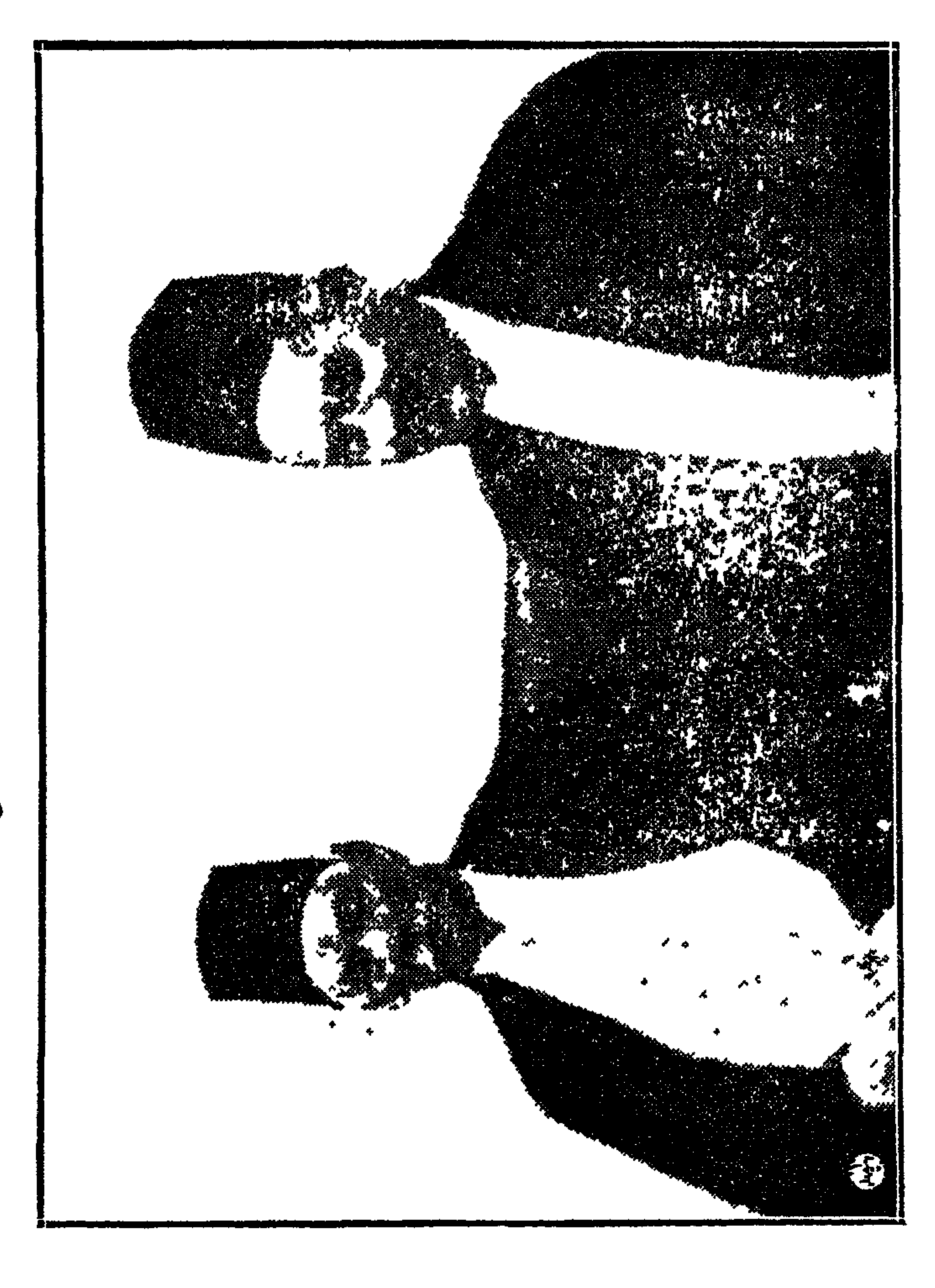
ففي صبيحة يوم كالح من أيام مارس سنة ١٩١٩، هبت على القاهرة رياح هوجاء شديدة الحرارة، وكأني بالطبيعة، وقد ثارت في ذلك اليوم ثورتها، تقوم لمشاركة شبيبة مصر في احتجاجها على نفي الزعيم الكبير، وخرق المواثيق، ونكران العهود.

مشت الجماهير في مظاهرة رهيبة، ماجت بها الميادين والشوارع، وشق الهتاف بحياة سعد واستقلال مصر كبد الفضاء . . .

وكنت ترى الكبير والصغير، والغني والفقير، وصاحب الجاه والصعلوك الحقير، يسيرون جنباً إلى جنب، وقد اختلجت صدورهم بشعور واحد وعاطفة واحدة !

ومشى برعي أيضاً مع من مشى في تلك المظاهرة.

بلغ القوم في سيرهم ميدان الأوبرا، فبدا ذلك الميدان كأنه بحر زاخر متلاطم العجاج.



المغفور له سعد زغلول باشا ، وعن يساره مصطفى النحاس باشا

وبرز لهم الجند الانجليزى شاكى السلاح فى منافذ الميدان ، وبعد التهديد والوعيد ، صوّب أولئك الأبطال الاشاوس فوهات بنادقهم إلى الصدور ، وأطلقوا عليها رصاصهم الحاصد . . .

فسـقط فى الطريق من سـقط من طلاب الحقّ . . . وفرّقت السيارات المدرعة ، والرّشاشات السريعة ، جماهير المتظاهرين .

وأصيب برعى فى ذلك اليوم برصاصة استقرّت فى فخذه الأيمن . . .

* * *

نقلناه إلى مكتبنا ، ونادينا من ضمد له جرحه ، وكان الغلام يئنّ من شدّة الألم .

و بينما نحن كذلك ، دخلت علينا سيدة كانت قد سمعت بوقوع الحادث فى الشارع فجاءت تستطلع الخبر ، وجعلت تساعدنا وتواسى الجريح

قالت له : « لا تبك يابنى . ألا تعلم أنك تتألم فى سبيل مصر ؟ »

فأجابها بصوت ضعيف : « أعلم ذلك » .

فسألته : « لماذا قتربت من الجند وقد رأيتهم يهددون الناس ببنادقهم ؟ »

فأجاب برعى : « رأيت أحدهم مقبلا علىّ فرفعت صوتى صائحاً فى وجهه : يحيا سـعد ! . . فأطلق علىّ الرصاص . . . أتظنين أننى سأموت ياسيدتى ؟ »

فهطلت الدموع من عينى السيدة دفعة واحـدة ، وانـكبت على الغلام تقبله وتشجعه ، فأيقنت أن فى الاحن والملمات جميع نساء مصر لفتيان مصر أخوات وأمهات !



سعد زغلول باشا فى ملابسه الرسمية

ولم تشأ تلك السيدة أن تدع الصبى الجريح ينقل وحده إلى المستشفى ، بل رافقته إليه . . .

ولم أسمع شيئا عنها منذ ذلك الحين . . .

ولم أر قط الغلام بائع أوراق اليانصيب منذ ذلك الصباح المشئوم . . .

لم أره ، ولكننى علمت أنه قضى نحبه فى مستشفى قصر العينى ، متأثراً بجراحه .

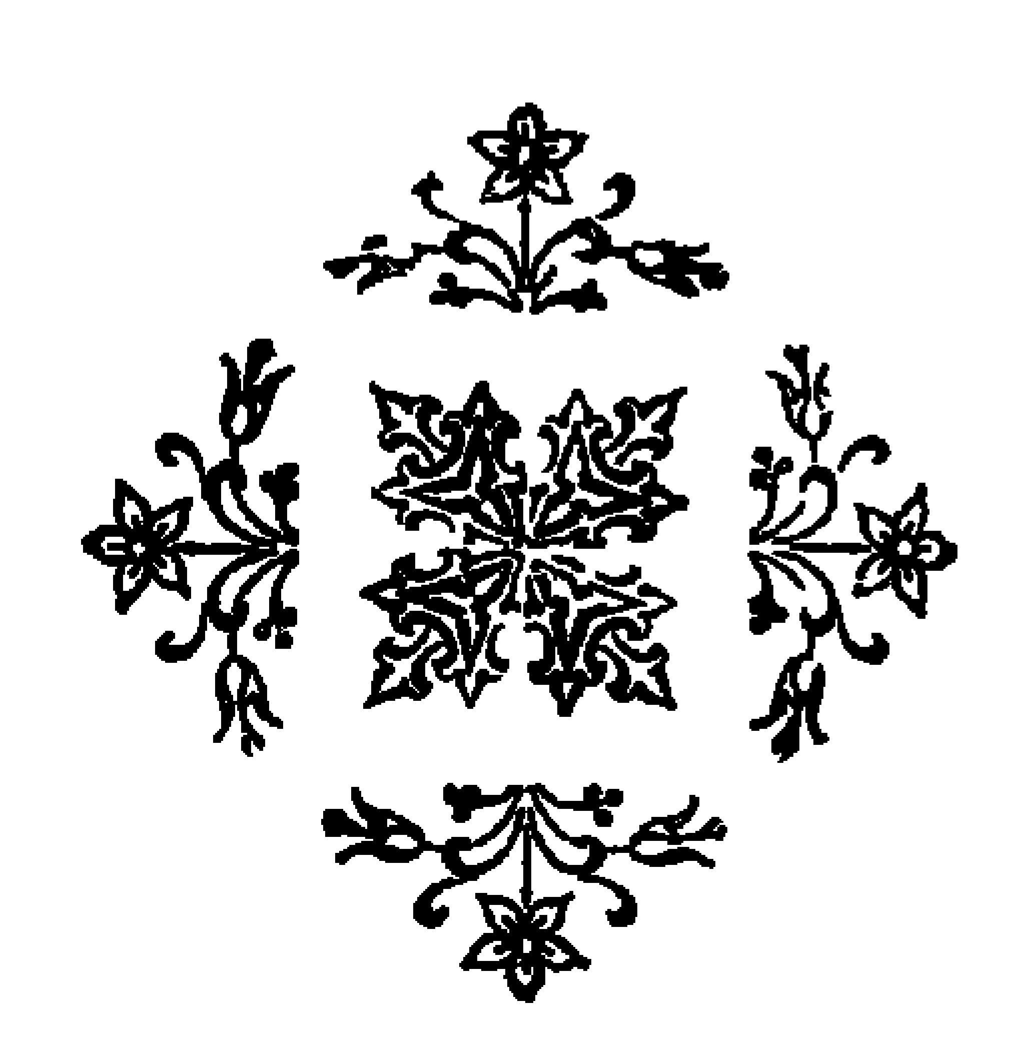
فأبلغت الخبر إلى « زبائن » برعى ، وتبرّع كل منهم « بما فيه النصيب » لإعانة أم بائع اليانصيب وأبيه !

***

هكذا كانت الصبيان تشارك الكبار في النداء باستقلال مصر وبحياة سعدها .

وهكذا كان أولئك الشهداء المجهولون يسقطون في ميدان الجهاد ، فيضحون بأنفسهم على هيكل الوطنية ، ولا يدوّن أحد في سجل التاريخ تضحيتهم . .

فلنستمطر على أرواحهم الذكية غيث الرحمة والرضوان ، فإنهم من بناء الاستقلال بمثابة الأساس !



٢

الانشودة المصرية

أوقفت الأعمال فى بحيرة نيمى بايطاليا وعدلت الحكومة الايطالية عن محاولة استخراج الكنوز المخبأة فى المركبين اللذين أغرقهما الامبراطور كاليجولا فى تلك البحيرة .

(الجرائد . فى شتاء سنة ١٩٣١)

جلس قيصر كايوس أوغسطس جرمانيكوس الملقب بكاليجولا (Caligula) على عرش روما فى السنة السابعة والثلاثين للميلاد ، وظل محتفظا بالصولجان إلى السنة الحادية والأربعين ، التى اغتاله فيها الرومانى الأصيل كيرياس ، فأنقذ الأمبراطورية من الخراب والدمار ، وأزال عن الشعب الرومانى ذلك الكابوس المزعج . . .

كان كاليجولا جميلا متأنقا ، يميل إلى الفرح والمرح ، لكنه كان يحمل بين ضلوعه قلباً قدّ من الصخر الأصم ، ويتوق دائماً إلى الضرب والبطش ، لا يحلو له عيش إلا إذا خضب يديه ولو مرّة واحدة فى يومه بنجيع الأبرياء .

نهض ذات يوم وهو متعطش كعادته إلى الدماء ، فأمر زبانيته بأن يذبحوا أمام عينيه أربعين من الأسرى والعبيد والأشراف الذين تآمروا على حياته ، وعند ما أشار عليه أحد المقرّبين إليه بأن يعفو عنهم لكى يكتسب بعفوه حب الشعب الرومانى ، أجابه صائحاً :

— وددت لو كان للشعب الرومانى رأس واحد لكى أقطعه بضربة واحدة !

وكان الرومانيون فى ذلك العهد ، عند ما تقع مثل هذه الحوادث الدموية ، لا يجرءون على نقل أخبارها ، بل يكتفون بقولهم المعروف : « الامبراطور يلهو ! »

* * *

غضب كاليجولا ذات يوم على القنصل « افرانيوس» Afranius ، فألقى به من نافذة القصر إلى الشارع ، حيث سقط المسكين ميتا ، فصاح الشعب قائلا :



الامبراطور كاليجولا على حصانه أنسيناتوس

— من تعين لنا قنصلا مكانه ياقيصر ؟

فأجاب كاليجولا مقهقهاً :

— حصانى !

وعين ذلك الامبراطور المعتوه حصانه « أنسيناتوس » Incinatus قنصلا رومانياً ! وكان يمتطى متن ذلك « الحصان ـ القنصل » ويخرج للنزهة فى شوارع المدينة ، فيطأ الحصان بحوافره رؤوس الرومانيين

الساجدين أمام قيصر ، فيضحك كاليجولا ، ويردد الشعب خائفاً مرتعداً :

— الامبراطور يلهو !

***

قال لعشيقته ذات ليلة بعد أن سكر بنشوتى الخمر والغرام :

— قبضت اليوم على أربعة من أشراف روما ، قيل لى أنهم يتآمرون علىّ . وقد أعددت سوطاً من جلد الماعز ، أريد منك أن تضربى به كلّ واحد من أولئك الأشراف الأربعة ثلاثين ضربة على مرأى من الناس !

فذعرت المرأة وقالت :

— اعفنى من هذا أيها الحبيب ولا تجعلنى أعتدى على حقوق الجلّاد ! ألا تخشى أن يؤدى هذا الاضطهاد إلى كره شديد تغذيه أعمالك فى نفوس الرومانيين ؟

فأجاب قيصر ضاحكا :

— ليكرهنى الرومانيون ! هذا لا يهمنى ! ولا أرغب إلا فى شىء واحد وهو أن تخشانى روما وترتعد أمامى !

وضربت المرأة ، عشيقة قيصر ، كلا من الأشراف الرومانيين ثلاثين جلدة أمام الناس ، فى أحد الميادين العامة . . .

وردد الشعب الخائف الخانع :

— الامبراطور يلهو!

* * *

جاءته يوما المرضع « جونيا » Junia التى حملتـه على ذراعيها طفلا ، وأرضعته لبن ثديها ، وكانت تحنو عليـه حنوّ الأم على ولدها ، وقالت :

— أى بنى قيصر ، جئت أطلب منك أن ترعى بعين عنايتك ابنتى « ستيلا » Stella التى عرفتها طفلة ولعبت معها فى الطرق والغابات ، وقد أصبحت الآن فتاة كبيرة أبحث لها عن زوج بين شبان روما الأشداء النبلاء .

ووقع نظر الامبراطور على أختـه فى الرضاعة ، فهاجت حواسـه البهيمية ، وأراد أن يجعل من الفتاة الطاهرة خليلة ساقطة . . .

رفضت المسكينة أن تنزل على إرادته ، وهال أمها أن ترتكب فى قصر الامبراطور تلك الفعلة الشنعاء ولا تسقط قبة الفلك على الأرض ، فرفعت يديها تتضرع إلى الالهة طالبة انقاذ ابنتها من ذلك الوحش البشرى ...

لـكن الآلهة لم تسمع نداءها . . .

وشربت الفتاة السم فماتت . . .

وشربت الأم السم فماتت أيضا . . .

وجاء ابنها يحاسب الأمبراطور على موت المرأتين ، فذبحه قيصر بيده على عتبة الباب ، وألقى جثته إلى الخارج ، فلطخت بدمها بلاط الشارع ، ووقف الشعب حولها مبهوتاً مذهولا ، وردّد قائلا :

— الأمبراطور يلهو !

*
* *

خرج كاليجولا مع فريق من رجال حاشيته للصيد والقنص فى الجبال والهضاب ، فوصل إلى ضفاف بحيرة «نيمى» التى كان الرومانيون يسمونها « مرآة ديانا » نسبة إلى ربة الصيد ، ابنة جو بتير العظيم ، الالهة ديانا ، حارسة النباتات ، وصديقة الأزهار والرياحين .

مرّ الامبراطور بمعبد ديانا ، المشرف من فوق هضبة خضراء على البحيرة الهادئة ، فترجل عن حصانه « القنصل انسيناتوس » وطلب من الكهنة هناك ماء وخمراً . . .

ووقع نظره على رئيس الكهنة ، فاذا به أمام شيخ جليل ، يمشى ببطء متكئاً على عكاز . فسأل عن سنّ الرجل ، فقيل له إنه يناهز المائة ، و إنه يخدم « ديانا » منذ ستين سنة . . .

فضحك الامبراطور وقال :

— اضربوا عنقه فانه من العار على روما أن يكون خادم ديانا فيها شيخاً هرماً مثل هذا !

وضرب الجنود عنق الكاهن . . .

وضحك رجال الحاشية مردّدين :

— الامبراطور يلهو !

***

ألقى كاليجولا نظرة حواليه ، فراق له ذلك الموقع البديع ، وقال لخادمه لوسيوس :

— ينبغى أن أقيم فى هذا المكان بضعة أيام فى الشهر !

وحمل لوسيوس رغبة مولاه إلى القناصل والقوّاد والمقرّبين من قيصر ، فجعلوا يتسابقون فى إرضائه ، وأسرعوا إلى نقل سفينتين جميلتين من بحر نابولى إلى بحيرة نيمى ، وحملوا الخبر إلى الامبراطور قائلين له إن فى استطاعته بعد ذلك اليوم أن يقضى أسبوعا أو أكثر فى إحدى السفينتين ، فى ذلك المكان الذى وجد حظوة فى عينيه .

وأمر قيصر بأن ينفق المال لتوفير أسباب الراحة فى السفينتين ، فصدع العمال والجنود ورجال القصر لأمره ، وأعدّوا السفينتين لاقامة قيصر . . .

نقلت إليهما الأسرة والمقاعد والوسائد من قصر كاليجولا . وجلس الموسيقيون فى الأماكن المعدّة للجذافين . ووضعت سلاسل من الذهب والفضة محل الأشرعة . وعلقت فيها المصابيح الملوّنة . ومزجت زيوت المصابيح بالبخور والعطور . . .

وتفرّقت النساء فى غرف السفينتين وعلى ظهريهما ، لخدمة قيصر ، وأصدقاء قيصر .

وقضى كاليجولا ليلة فى إحدى السفينتين وليلة فى السفينة الثانية . ثم عاد فقضى فى ذلك الفردوس العائم ليالى كثيرة ، خطر له فى إحداها خاطر غريب ، فصاح بمن كانوا يحيطون به :

— أريد أن أعلم إذا كان الانسان يغرق فى هذه البحيرة أم لا . كم معنا هنا من العبيد ؟

فأجابوه :

— فى هذا المركب ثلاثون عبداً . وفى الثانى عشرون . . .

— اقذفوا بهم جميعاً إلى المـاء !

فصدع الرومانيون الأشراف لارادة قيصر ، وألقوا العبيد فى اليمّ ، وجعلوا يضربون بالمجاذيف كل من حاول النجاة منهم ، فغرقوا جميعاً ، بين الصياح والقهقهة ، وردّد الشعب المحتشد على شاطىء البحيرة :

— الامبراطور يلهو !

* * *

قيل لـكاليجولا فى صباح يوم من أيام الخريف ، إن مؤامرة تدبّر لاغتياله ، فعهد إلى اثنين من أصدقائه بالبحث عن المتآمرين للقضاء عليهم ، وغادر روما مسرعاً إلى سفينتيه ، فى بحيرة نيمى .

وأراد أن يقضى تلك الليلة فى سماع الأغانى والأناشيد ، فطلب إلى النساء اللواتى فى السفينتين أن يسمعنه أحسن ما عندهن من غناء .

وجعلت كل واحدة من أولئك الأسيرات الغريبات تترنم بأنشودة من أناشيد وطنها ، فتصاعدت من السفينتين ألحان متباينة ، ولغات مختلفة ، ولهجات متناقضة ، وامتزجت فى ذلك الجوّ الهادئ .

واسترعت سمع قيصر أنشودة حزينة ، منبعثة من صدر مكلوم ، كانت تنشدها فتاة فى العشرين من العمر ، جاثية على مقربة من سرير الامبراطور .

أومأ إليها كاليجولا بأن تقترب ، فنهضت مرتعشة خائفة ، وتقدمت خطوات نحوه ، وجثت ثانياً على ركبتيها . فقال قيصر :

— انهضى يا ابنتى ولا تخشى شيئاً . ما اسمك ؟

— سيفا . . .

— من أية بلاد أنت ؟

— من مصر .

— من هو أبوك ؟

— اسمه «بروكلوس» Proclus . كان جندياً فى الجيش الرومانى هناك ، وتزوّج امرأة مصرية ، ثم مات وماتت أمى أيضاً ، وجىء بى إلى روما حيث أرسلونى هدية إليك يا قيصر .

— ومن جاء بك إلى روما ؟

— الضابط ليبيدوس Lepidus ، من رجال حرسك ياقيصر !

— ليقتل ليبيدوس وتلق جثته فى المـاء !

فوثب الجنود على الضابط ، وقتلوه ضرباً بالخناجر ، وألقوا جثته فى البحيرة ، فتهامس المدعوون فيما بينهم : « ما الخبر ، ولمـاذا حدث ما حدث ؟ »

ثم رددوا قائلين ، مبتسمين :

— الامبراطور يلهو !

* * *

وقال كاليجولا لابنة المصرية :

— أعيدى على مسمعى الأنشودة التى كنت تنشدينها . . .

وأمر بأن تسكت النساء فى السفينتين ، ثم ارتفع صوت عذب ، جميل ، مترنماً بأغنية يذكّر لحنها بنوح اليمـام على الأغصان :

« فى الدنيا بحار كثيرة
لـكنك أجمـل البحار ...
فى الدنيا أنهـــر كثيرة
لـكنك أجمـل الأنهر ...
أمى على شاطئـــك تغنى
وأخى على ضفافك يزرع ...
يا بحر أمى ـ يا نهر أخى ـ
ياأجمل البحار ـ ياأجمل الأنهر ! »

سكتت الفتاة . وساد الصمت . ونفرت دمعة من العين التى لم تعرف الدموع من قبل : عين قيصر كايوس جرمانيكوس كاليجولا !

وقال الامبراطور :

— أىّ بحر تعنين يا ابنتى ؟

— بحر الاسكندرية يا قيصر !

— وأىّ نهر تعنين ؟

— نهر النيل يا قيصر !

— من علمك هذه الأنشودة ؟

— أمى !

أنا أيضا أعرف هـذه الأنشودة . فقد كانت جونيا ، مرضعتى ، أمى ، تترنم بها على ضفاف النهر الصغير حيث ربيت ! وجونيا رأت النور فى مصر ، مثل أمك يا بنيتى . وقد قتلتُ جونيا بيدى !

وساد من جديد سكوت رهيب ، مزقه الامبراطور فجأة ، صائحاً بصوت دوى كالرعد فى سكون الليل :

— لقد ملات « مرآة ديانا » كما ملات روما وضوضاءها ! لا أريد أن أهجر هـذا المكان إلا بعـد أن أترك فيـه أثراً للأحقاب المقبلة . عودوا جميعا إلى البر ، بعد أن تفتحوا فى كل من السفينتين ثغرة كبيرة تتـدفق منها المياه إلى الداخل ، فتغرق هاتين الجنتين العائمتين ، بمـا فيهما من أوان وتحف وكنوز وأموال !

ثم التفت قيصر إلى الفتاة المصرية وقال :

— أما أنت يا ابنتى ، فاننى سأجعلك بين نساء القصر معززة مكرمة ، وأجعل منك الزهرة النضرة فى حديقة كاليجولا !

فانكبت الفتاة على قدميه تبللهما بالدموع . لكنها لم تكن راضية بما كتب لها على صفحة القدر ، ولم ترق لها رغبة قيصر فى جعلها المرأة المختارة بين نسائه . . .

كانت تحن الى وطنها ، ولا تلذ لها الحياة بعيدة عن ذلك الوطن !

و بينما الرجال والنساء يغادرون السفينتين على أثر قيصر ، إذا برسول يحمل إليهم خبراً هاماً من روما :

— قيصر ! لقد تمكن رجالك المخلصون من القبض على المتآمرين!

— وماذا صنعتم بهم ؟

— ذبحناهم !

— كم كان عددهم ؟

— تسعة رجال وامرأة .

— حسناً صنعتم . . . والشعب ؟

— إنه يتضرّع إلى الآلهة بأن تطيل عمر قيصر ! وقد ذبحنا المتآمرين تحت سور « الكابيتول » بينما الشعب يردد :

— الامبراطور يلهو !

* * *

جلس كاليجولا على ضفاف البحيرة ، فى مكان مرتفع ، يحيط به رجال الحاشية ومن كان فى السفينتين من عبيد واماء . .

ولبث الجميع ينتظرون غرق السفينتين . . .

و بينما المياه تتدفق إلى داخلهما ، وتغور « الجنتان العائمتان » رويداً رويداً فى المـاء ، إذا بصوت حزين ، بعيد ، ينوح منشداً :

« يا بحر أمى ــ يا نهر أخى ــ
« يا أجمل البحار ــ يا أجمل الأنهر ! »

فانتفض قيصر ، وقد عرف صوت الفتاة المصرية ، وسأل قلقاً مضطرباً :

ــ أين هى ؟ ومن أين مبعث الصوت ؟

فسكت الجميع لأنهم أدركوا ان الفتاة بقيت فى السفينة ، وآثرت الموت غرقاً على الحياة فى روما ، والرقود فى قاع البحر على الرقود فى فراش قيصر !

وضمت المياه فى أحضانها سفينتى كاليجولا ، بكنوزهما ، وأزهارهما ، ومن بقى فيهما من الأحياء . . .

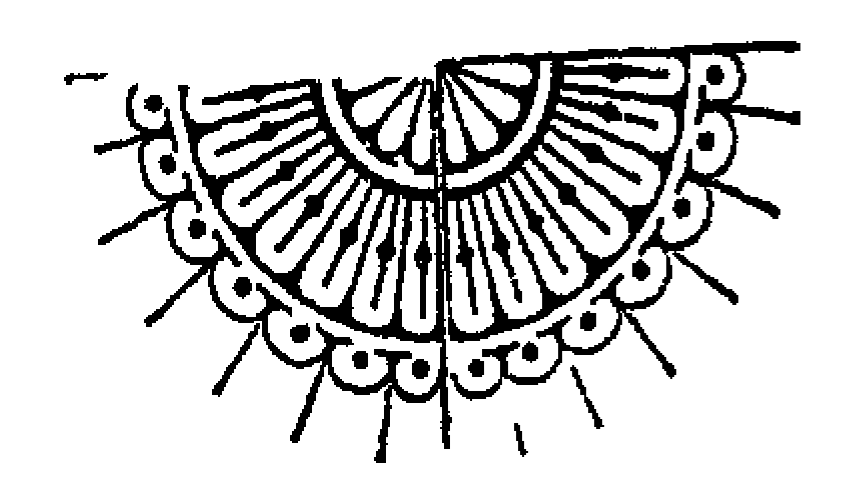
ووجم قيصر ، وظلّ يحدق البصر فى الأمواج المتكسرة على صخور الشاطىء ، وكلمـات الفتاة ترن فى أذنيه :

« يا بحر أمي ـ يا نهر أخي ـ

« يا أجمل البحار ـ يا أجمل الأنهر ! »

ونفرت دمعة أخرى من عينيه . . . وردد المتفرجون على ذلك المنظر الرائع :

ـ الامبراطور يلهو !



٣

الاسكندر والمصرية الحسناء

صور . ! . يا مسقط رأس حيرام مشيد الهياكل لسليمان الحكيم! يا موطن البحارة الشجعان ، الذين ضاقت بهمتهم أسوارك فركبوا متن اليمّ وعمروا فى مجاهل الغرب قفر الديار ! يا أخت المدنية وحاملة حضارة مصر إلى قصىّ الأمصار ! يامدينة دثرت معالم مجدها بعد عز وسلطان ، فبقيت أعمدة هياكلها وحجارة قلاعها دليلا على أن دولة المادة زائلة ودولة الفكر على ممرّ الدهور باقية !

صور ! يا فخر فينيقيا وسيدة البحار وقاهرة العجاج ! هل لحجارتك الصماء ، أن تقصّ علينا أقاصيص الغرام والانتقام ، وأن تفضى إلينا بأحاديث الحروب والفتوحات ؟

أنت أيتها اللوحة المرمرية ، الملقاة هناك ، التى طالما أهرقت على صفحتك البيضاء دماء البنين والبنات ، يرفعها أبناء فينيقيا ذبيحة

على هيكل الاله الأكبر « ملكارث ! » هل لك أن تخبرينا عن تلك الفتاة المصرية الحسناء ، التى فرّت من بلادها واحتمت وراء جدران هيكلك ، فلاقاها الهلاك من حيث طلبت النجاة، ثم أنقذها الأسكندر ذو القرنين من بين مخالب الكهنة القساة القلوب ؟

* * *

إليك أيها القارىء ما ترويه تلك اللوحة الأثرية ، التى تغمرها المياه وتعبث بها الأمواج :

وصلت إلى المدينة قافلة فينيقية قادمة من مصر ، وحطت رحالها أمام الهيكل الأكبر ، ومعها عدد لايحصى من الجوارى والعبيد، أرسلهم تجار مصر إلى تجار صور ، للمقايضة على الأثواب المزركشة والجواهر الثمينة.

ودخل أحد رجال القافلة على كاهن « ملكارث » وقال :

— أيها السيد . أحمل إليك تحية زميلك المصرى كوفيس . وقد عهد إلىّ بمهمة شاقة أقسمت له برفات أجدادى أننى قائم بقضائها

— أرد على صديقى كوفيس تحيته بأعطر منها وأزكى . والآن : تكلم . أية مهمة عهد بها إليك أخى المصرى ؟

— دفع إلىّ فتاة صغيرة وقال : « خذها معك يا عبدومين إلى صور . وقل لأخى خادم البعل ملكارث اننى أضعها عهدة فى كنفه وأمانة بين يديه . ليحتفظ بها فى الهيكل ، حتى إذا ماحان وقت عودتها إلى وطنها ، طلبت إليه أن يردّ الأمانة إلى أصحابها . » فجئتك بالفتاة

أيها السيد ، وهى فى الخارج مع زوجتى وابنتى .

— أدخلها ولا تبح لأحد بشىء مما قلته لى .

* * *

أقامت الفتاة « ميليتا » فى هيكل البعل تسعة أعوام ، ودخلت فى سلك الكاهنات ، فكانت تسهر على إحراق البخور أمام الأصنام ، وتشترك مع أخواتها الفينيقيات فى أناشيدهن وتضرعاتهن إلى تموز ربّ الجمال ، وعشتروت ربّة الحب .

لكن الهدوء الذى كانت تعيش فيه فى هيكل هادىء ، والأمان الذى كانت تنعم به فى بلاد آمنة ، لم يدم عهدهما طويلا .

ذلك لأن الحرب حلت محلّ السلام ، بقدوم الاسكندر المقدونى إلى البلاد غازياً ، واحتلاله المدن والأمصار فاتحاً .

وصل أمام صور وأقام حولها الحصار وشدّد عليها الخناق ، فرأى الكهنة أن صلواتهم وتضرعاتهم لا تجدى نفعاً ، فعمدوا إلى الاستعاضة عنها بكثرة الذبائح والضحايا ، ظناً منهم أن الآلهة — وقد أسكرتها نشوة الدماء المسفوكة — ستدفع عنهم غضب الفاتح وترد جيشه على أعقابه !

وملكارث إله يحب الدماء الحمراء ، ويتلذذ برؤية الأعناق تحزها يد الجلاد !

تقرّر أن تصعد كل يوم على المذبح ضحية عند شروق الشمس ، وأخرى فى منتصف النهار ، وثالثة بعد الغروب !

وكان الآباء يقدّمون راضين مرتاحين بناتهن العذارى ، لأن ملكارث لا يتقبل على مذبحه غيرهن فى أوقات الأحن والحروب !

وسالت الدماء الزكية ، وعلا البكاء والعويل ، وتعاظم الخطب ، وعمّ الحزن المدينة . . .

والاسكندر يعاند الصوريين وآلهتهم ، ويهاجم الأسوار ويحاول اقتحام الأمواج . . .

وجاء دور الكاهنات . . .

ثلاث فتيات منهن يصعدن كل يوم إلى المذبح ، ويسلمن أعناقهن للخناجر المقدسة !

ومضت خمسة أيام والعدوّ لم يتقهقر ولم يظهر عليه وهن ولا عياء ...

طلعت شمس اليوم السادس . . ودخلت أشعتها من خلال النافذة إلى مخدع ميليتا . . .

حدقت الفتاة بصرها فى تلك الخيوط الصفراء ، التى جاءت تنذرها بقرب الأجل . .

اليوم يومها . .

عند ما ينتصف النهار ، ستودع الحياة الوداع الأخير ، وترتدى ثوبها الأبيض الناصع ، وتذرف الدموع الأخيرة على شبابها الغضّ وجمالها الذى لم ينعم به رجل !

ذكرت بلاداً رأت النور فيها ، وبيتاً لعبت فيه طفلة ، وأباً كان

يحبها ، وأما كانت تضمها بحنان إلى صدرها . . .

ثم ارتسم أمام عينيها ذلك المنظر الفظيع : رأت أباها يعنف أمها، ثم يثور ثوراناً شديداً ، فيتناول هراوة ويهوى بها على رأس زوجته

رأت أباها القاتل ! ورأت الجنود يقبضون عليه ويسوقونه إلى ساحة الاعدام . . .

وأجهشت المسكينة بالبكاء . .

يا للذكريات !

* * *

— ميليتا . . ! تقدمى أيتها العذراء ، فقد اختارك الاله من بين أخواتك ذبيحة طاهرة ! اصعدى إلى المذبح كالحمل الوديع ، وقبلى النصل المقدس الذى صنع الاله قبضته بيديه !

انتفضت الفتاة وانتابتها رعشة شديدة . ثم دارت الأشياء حولها ، فرأت بقعاً حمراء فى كل مكان . . .

وصعد الدم إلى رأسها فصاحت بالقوم قائلة :

— أيها القساة الأجلاف ! لست من بنات جلدتكم ، ولست من عبدة آلهتهم ! لن أسلم عنقى لكاهن من هؤلاء الكهنة ، ولن أجثو أمام هذا الاله الذى لا يرضيه غير منظر الدماء ! دعونى أخرج إلى العدوّ فهو أرحم منكم بضعف النساء . ! . دعونى أرجع إلى بلادى فأخدم آلهة أقلّ قسوة من آلهتكم !

فدوى المكان بصيحات منكرة ، وارتفعت الأصوات باللعنة على الكاهنة المجدّفة !

ووثب عليها الكاهن الأعظم — ذلك الذى تعهد بالاحتفاظ بها أمانة بين يديه — فقبض على عنقها ، وساقها إلى المذبح حيث سقطت على الأرض شاكية باكية !

وأحاط بها الكهنة كالذئاب ، وأشاروا إلى الشعب بأن يلزم الصمت ، فهدأت الأصوات .

لكن صياحاً عالياً ارتفع فجأة فى خارج الهيكل ، تبين القوم من خلاله عويل النساء وولولتهنّ .

أنصت الجميع باهتين لاهثين . . .

وما هى إلا لحظة حتى اقتحم باب الهيكل مقتحم وصاح مذعورا :

— الأعداء ! الأعداء ! الاسكندر فى المدينة !

ماج الحاضرون دفعة واحدة طالبين النجاة من الباب . لكن الكاهن الأكبر رفع عقيرته صائحاً بهم : « أيها المجانين إلى أين تذهبون ؟ أفى المدينة ملجأ أفضل من هذا ؟ لن ينالكم ذو القرنين بضرر ما دمتم فى الهيكل مقيمين ! »

فلم يخرج من الباب أحد. بل ظلوا جميعاً فى أماكنهم ، وعادوا إلى تضرعاتهم للكارث ، إله النار الملتهبة والدماء المسفوكة !



الاسكندر

ترجل الاسكندر أمام الباب عن صهوة جواده ودخل الهيكل .

فخرّ الحاضرون على وجوههم وسجدوا إلى الأرض . . . ما عدا ميليتا . . .

كانت الفتاة ملقاة على سلم المذبح تنوح وتبكى . لكنها رفعت

رأسها عند ما دخل الاسكندر ، وارتسمت على شفتيها ابتسامة أمل ورجاء

فاسترعت نظر الفاتح الشاب ، وأقبل عليها ، رائق النظر ، باسم الثغر ، ومدّ إليها يده ، فطبعت عليها الفتاة قبلة ، وانحدرت مع القبلة دمعة حارّة من عين المصرية الحسناء .

وقال الاسكندر :

— ما اسمك ؟

— ميليتا .

— فى أىّ بلد ولدتك أمك ؟

— فى مصر .

— ما جاء بك إلى هنا ؟

— القدر الساخر !

فنادى ذو القرنين كاهن ملكارث سائلاً :

— من جاءك بهذه الفتاة ؟

— كان أبوها خادما لاله مصر . زنت عليه زوجته فقتلها ، وسُلّم للجلاد جزاء جرمه . وقد أرفد إلى صديقى كوفيس هذه الفتاة لكى أجعل منها خادمة لملكارث ، كفارة عن ذنوب أبيها .

— متى كان الأبناء يؤخذون بجريرة الآباء ؟ ومتى كان البرىء يكفّر عن المذنب ؟

نزع القائد الكبير رداءه عن كتفيه ، وألقاه على الفتاة قائلاً :

— أنت حرّة طليقة يا ميليتا . و إذا أردت العودة إلى وطنك فان كوكبة من فرسانى تصحبك وتحرسك فى الطريق .

*
* *

شتت الاسكندر شمل الفرس فى افسوس ، وسحق جيوش دارا الجرّارة فى إربيل ، ودان له الشرق ، وحمل إليه الأمراء والأقيال والملوك مفاتيح مدنهم ، وأعلام ممالكهم ، وخزائن جواهرهم .

وكان ذلك القائد لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين من عمره !

أسلمه النصر قياده ، وخنع له المجد صاغراً ، فأسكرته نشوة الظفر المتواصل ، وجنحت به عن طريق الصواب .

سار من موقعة إلى موقعة ، ومن ميدان إلى ميدان ، ومن سلطنة إلى سلطنة ، يسوق الأبطال أمامه ، ويقيد بأغلال الرّق من كانوا بالأمس يسترقون العباد !

و يدمن على الخمر إدمانه على النصر !

عبثاً حاول حكماء اليونان الذين كانوا يسيرون بمعيته أن يحوّلوه عن الشراب ، وعبثاً حاولوا أن ينقذوا تلك العبقرية العظيمة المنتجة من الضياع .

تناول ذات يوم كمية هائلة من الخمر ثم نزل إلى النهر للاستحمام .

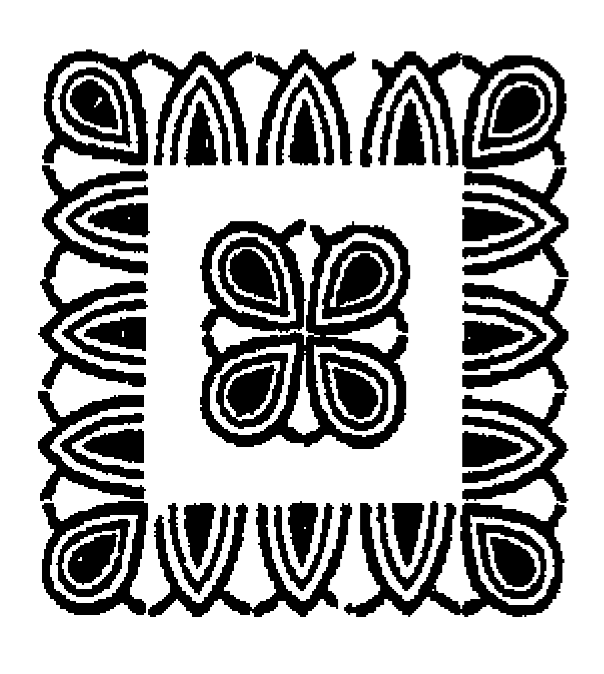
وخرج من الماء مريضاً ، و بعد أيام بكته جيوشه المظفرة ، وبلاده الثكلى .

وكانت الفتاة المصرية ميليتا قد تبعته من صور ، تلازمه فى سفره ، وتقدّم له الطعام فى مضربه .

فلما مات الاسكندر دفنت معه آمال ميليتا فى الحياة !

*
* *

رفع الجيش مضاربه ، حاملاً جثة الفاتح العظيم والمليك المحبوب ، وعثر الجند فى خيمة صغيرة ، على ضفاف النهر ، على جثة المصرية الحسناء ، وقد اخترق صدرها خنجر ذو قبضة ذهبية مرصعة بالجواهر ، عليها رسم الإله ملكارث المتعطش دائماً إلى الدماء !



٤

ابنــة النيل

« فالينا » فتاة مصرية حبتها الطبيعة بمنظر وسيم وجمـال أخَّاذ . كانت جدّتها فى قصر « كليو بطرة » أمة بين الاماء ، تقـدّم العطور لملكة النيل ، وتحرق البخور فى مخدع فاتنة الرومان .

نالت حظوة فى عينى مولاتها ، فأعتقتها وأطلقت سبيلها . فأقامت فى الاسكندرية ، حيث اتخذت أحد الجنود رفيقاً لحياتها ، ورزقت منه مولوداً بذلت عنايتها فى تربيته ، فصار جندياً شجاعاً كأبيه الجندى الشجاع .

وهو والد « فالينا » الفتاة الحسناء ، التى تبيع المـاء لسكان الضواحى ، فتساعد أباها بمـا تكتسبه من دريهمات على سدّ حاجات الأسرة الصغيرة .

لـكن قرصان البحار ولصوص الرقيق كانوا لها بالمرصاد ، يترقبونها فى روحاتها وغدواتها ، وقد رأوا فيها نموذجاً حياً للجمال المصرى ،

وسلعة قابلة للرواج فى سوق تجارتهم الخسيسة .

واقضوا عليها ذات يوم ، وهى عائدة إلى المدينة ، انقضاض الذئاب الكاسرة على النعجة الضالة ، فاحتملوها إلى سفينتهم ، وألقوها مقيدة باكية بين النساء المقيدات الباكيات ، اللواتى اختطفهنّ أولئك اللصوص من أكواخ الفقراء وقصور الأغنياء على السواء .

ورفعت السفينة مرساها ، وأقلعت قاصدة إلى حيث تجار الرقيق فى الانتظار ، لعرض الأسلاب والسبايا على هواة اللحوم البشرية !

وكأنى بالقدر القاسى ، وقد قضى من قبل بفكّ قيود الجدّة فى قصر كليوبطرة ، أبى إلا أن يعيد إلى الأسر والعبودية حفيدتها المسكينة، فلوى عنق الفتاة الحرّة ، تحت النير الذى طالما رزحت تحته الجدّة المعتوقة !

تقاذفتها المطامع والشهوات ، وتناقلتها أيدى أسياد بعد أسياد ، وحطت أخيراً رحال شقائها فى قصر نيرون الأمبراطور ، بمدينة روما العظمى ، فبيعت هناك مع ثلاثين من أخواتها ، لصاحب القصر وسيد الرومان .

*
* *

قتل نيرون « أخاه » بريتانيكوس ، وأخمد أنفاس أمه أجريبينا ، وتخلص من زوجته أوكتافيا ، وبعث إلى عالم الأموات بحليلته بوبيا ، وكان لا يلذ له عيش إلا وسط الدماء المسفوكة ، والجثث المكدّسة ،

والنيران المتصاعدة ، وأنات الجرحى ، وزفرات الثكالى .

وكان لا بد لذلك القلب الشارد الجموح أن يخفق بحب غريب شاذ ، لم يذكر مثله تاريخ ، ولم يحلم به إنسان . وهل هناك ما هو أشد غرابة ، وأبعد شذوذاً ، من أن يحب الرجل قرداً ، ويطير لبه به هياماً ، ويضعه فى منزلة دونها منزلة الأم والزوجة ، والصديق والقريب؟



الامبراطور نيرون

فعل نيرون ذلك ، فى وقت لم تكن فيه نظرية التطور قد ظهرت بعد ، لكى يقدم إنسان على ما أقدم عليه ذلك الامبراطور ، بحجة أن

آباءنا قد سكنوا المغاور مع آباء ذلك القرد ، وأن أجدادنا قد تسلقوا الأشجار مع أجداده . . !

فعل نيرون ذلك لأن القوّة المكوّنة وضعت فى قفص ضلوعه قلباً ليس كبقية القلوب . ولأن للطبيعة أحياناً مثل هذا الهذيان ، فما أكثر الوحوش البشرية فى العالم ، وما أكثر البهائم والزوائل التى تسمو بالفضيلة على الانسان الناطق !

أحبّ إذن نيرون ذلك القرد السعيد بين القرود وشيد له القصور فى عاصمة ملكه وفى ضواحيها ، وأوقف على خدمته حاشية كبيرة من الرجال والنساء ، والشبان والبنات ، وعلى حراسته كوكبة من الفرسان ، وفصيلة من حملة الرماح . فذاق القرد المحبوب من حلو الحياة ما لم يذقه من قبل حيوان ، ونعم بما لم ينعم به محبّ أو محبوب ، أو أمير من أمراء الدولة ، أو غادة من فاتنات البلاط !

وشاء القدر أن يقع الاختيار على « فالينا » المصرية ، للاقامة فى أحد قصور ذلك السيد الجديد ، تقدّم له العطر وتحرق له البخور ، كما كانت تفعل جدّتها من قبل فى قصور الملوك !

* * *

كان الطاغية الرومانى يزور قروده كل يوم مرّة أو مرّتين ، حاملا إليه الثمين من الهدايا ، والطيب اللذيذ من الطعام والشراب . وكانت تحاوله معاقرة الخمر بين الغيد والحسان ، فى أحد القصور التى شيدها

لذلك القرد بأموال أمته ، فيضطجع على المساند المزركشة ، والوسائد الحريرية ، والقطائف الأرجوانية ، وقرده بين ذراعيه ، والحور من حوله يرقصن فى ثوب حواء !

« الرجل ذو اللحية المخضبة بالحناء . . . » هـذا هو الاسم الذى كان الناس يطلقونه على نيرون قبل أن يسموه « حارق روما » ـ وهو أيضاً الاسم الذى أطلق من قبل على آباء نيرون وأجداده .

وما دعوه بذى اللحية المخضبة بالحناء ، إلا لأنه كان — كآبائه وأجداده أيضاً — يصبغ لحيته الصغيرة بسائل هو خلاصة الحناء ، يحملونه إليـه خاصة من الأقطار الشرقية الخاضعة لسلطانه . وكانت «فالينا» قد نالت رضى ذلك المولى الخطير ، فكان يعهد إليها بتخضيب لحيته مرّة فى الأسبوع !

جلس ذات يوم يمعن النظر فى الحسناء وهى تقوم بمهمتها ، وأصابعها تداعب بشرة الامبراطور ، فراقه جمالها البارع ، وأسكره الشذا المنبعث من جسمها البضّ ، وانبسطت أساريره دهشة لاغفاله هذا الكنز الثمين ، والشباب الزاهر . . .

واستيقظت سليقة الحيوان فى صدر ذلك الحيوان ، فطوّق الجلف خصر العذراء بذراعيه الخشنتين ، ودنست شفتاه الغليظتان صدرها المرمرى الطاهر . . .

لكنها انتفضت نافرة نفرة الظبية من لسعة الأفعى ، وتراجعت

مذعورة إلى ركن قصىّ فى الردهة لواسعة، وجثمت هناك مرتعدة خائفة!

تبعها الامبراطور والشرر يتطاير من عينيه ، وقد ثار ثائره وهاجت شراسته أمام هذه الفتاة الجميلة الوقحة ، التى تقاومه وهو السيد المطاع ، وتأبى الاستسلام بين ذراعيه ، وهو الذى تسعى إليه من أطراف المملكة نساء القوّاد و بنات الأقيال !

قبض على شعرها بيده الحديدية ، وجرّها إلى وسط القاعة جرّاً ، وهو يلهث من الغضب و يصيح :

— لعنة الآلهة عليك وعلى من جاءنى بك ! أجارية تعصى إرادة نيرون القوىّ الجبار ؟

فاستجمعت الفتاة قواها أمام الخطر ، وصاحت فى وجه الغاصب :

— القوىّ الجبار يصبح ضعيفاً جباناً إذا رفع يده على امرأة !

بهت الطاغية لردّها ، وتلاشت حدّته ، وقال بهدوء وسكون :

— حسن . انهضى إذن واتبعينى . . .

لـكنها شعرت بالخطر يتزايد ، فتذرّعت بالشجاعة وأجابت :

— لقد سلبتنى حرّيتى أيها المولى ، لـكنك لن تسلبنى شرفى لأنى لن أمكنك منه !

وفرّت من الردهة مهرولة فى أروقة القصر ، هائمة لا تلوى على شىء .

وظلّ نيرون وحده ، يتميز غيظاً . . . ثم ارتسمت على فمه ابتسامة رديئة وتمتم قائلا :

— سوف يكون عقابك عبرة لسواك !

* * *

١٩ يوليه سنة ٦٤ للميلاد ...

ألسنة النيران تندلع فى جهات المدينة الأربع ، والدخان يتصاعد فى الفضاء سحاباً كثيفاً ، والقصور والمنازل والهيا كل تنهار وتتساقط ، وعويل المنكوبين البائسين يمتزج بصراخ الجنود الذين عهد إليهم قيصر باضرام النار !

تسلية أرادها نيرون فكانت !

أمر الامبراطور باحراق عاصمة ملكه ، فاندفع الجند ينفذون أمر الامبراطور ، وذهبت المدينة الجميلة ، وما حوته أحياؤها من طرائف وأرواح ، وقيداً لذلك الحريق ...

ودوّن التاريخ فى سجلاّته حادثاً من أفظع الحوادث التى شهدها الناس منذ القدم ...

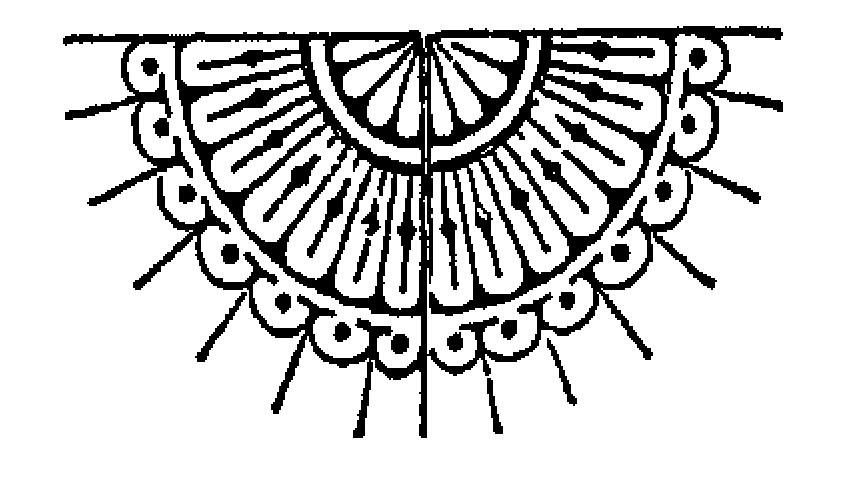
وطاف زبانية قيصر بالمشاعل متغلغلين فى الأزقة والطرقات ، حاملين النار إلى القصور والأكواخ والحوانيت ...

ورأى الناس الجند يرفعون فى أحد الميادين مشعلا ليس كغيره من المشاعل ...

ولم يكن ذلك المشعل الذى طاف به زبانية نيرون فى المدينة

المنكودة الحظ ، غير جثة « فالينا » المسكينة ، التى طوّحت بها الطوائح ، فدافعت عن عرضها وشرفها ، وقضى عليها الامبراطور بالموت حرقاً !

هكذا ماتت ابنة النيل فى روما ، شريفة النفس طاهرة الذيل ، ضحية من ضحايا نيرون العديدة ، بينما الطاغية الغليظ الكبد ، ينشد أناشيد هوميروس ، فى شرفة قصره ، على نغمات القيثارة ، وعلى ضوء المدينة الملتهبة والمشاعل البشرية !



٥

بأمر الحاكم بأمره

كانت مصر حوالى سنة ٣٩٠ هجرية تئن تحت نير من الظلم الأصمّ الذى يلهمه الجهل وينفذ ويلاته الجنون ، وذلك فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى وإذا شئت فسمّه كما كان يسمى نفسه : الحاكم بأمره.

ولد الحاكم فى القاهرة سنة ٣٧٥ هجريه ، وهو سادس الخلفاء الفاطميين ، وأوّل واحد منهم رأى النور فى مصر ، وبويع بالخلافة بعد والده « العزيز » سنة ٣٨٦ هجرية ، وهو فى الثانية عشرة من عمره .

لا أحدّثك عن سيرة ذلك الجبار الذى استهلّ حكمه بقتل مربيه ووزيره ، ولا عن عهده المملوء بالمظالم ، لأنك قد اطلعت بلا شك على ذلك كله فى كتب التاريخ . ولكنى أحدّثك بما لم تقرأه فى كتاب .

أحدّثك عن سيرة « عمرة وقاسم » وقتلهما بأمر الحاكم بأمر الله .

***

كان فى مدينة الاسكندرية ، فى ذلك العهد ، رجل رثّ الحال ، معدم المال ، يعيش من زراعتــه فى كوخ حقير ، بعيداً عن ضوضاء الناس وشرورهم ، ليس له من قريب أو حبيب إلا ابنته .

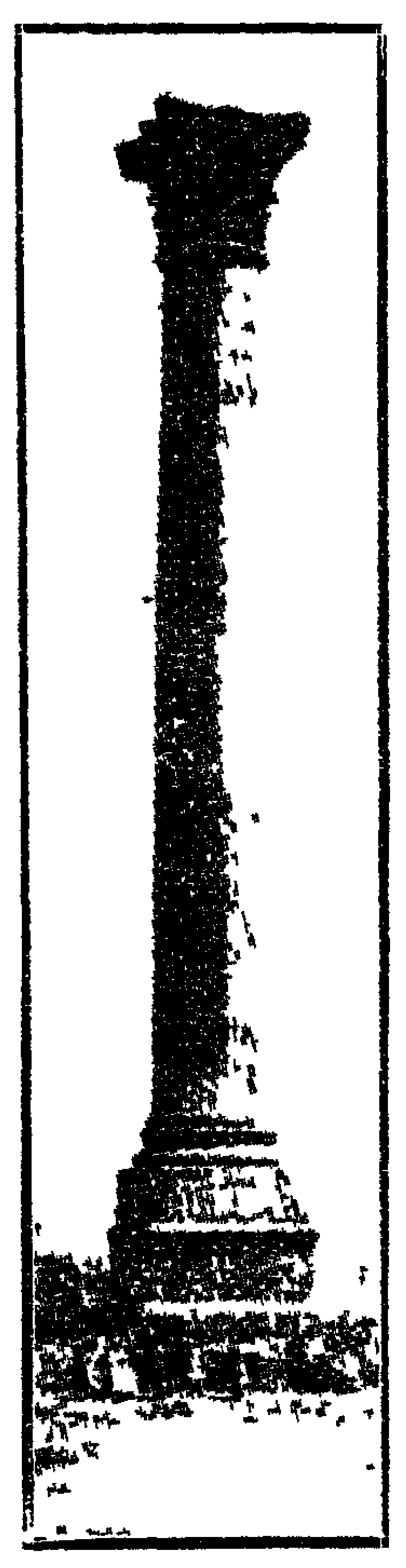
وكانت الفتاة « عمرة » بارعة الجمال ، ممشوقة القوام ، تناهز من العمر أربعة عشر ربيعاً .

حبسها أبوها فى كوخه ، ومنعها الهواء قبل العيون ، لا ظلماً لها أو لاستبداد منه بها ، ولـكنه خشى عليها صولة الحاكم بأمر الله

على أن أبا عمرة كان يأذن لفتاته أن تخرج فى أوقات من النهار معلومة إلى شاطىء البحر ، فتبثه أحلام صباها ، وتحمل أمواجه مكنونات قلبها ، ونفثات صدرها ، توجهها إلى حبيب هى أجهل به من البحر !

ولقــد طالما مزجت عمرة دمع عينها الرائق العـذب بأمواه ذلك العجاج الهائج الملح ، لذكرى والدتها الخالية ، وشـقيقها الناوى ، وقد بكتهما طفلة ، وعهدتهما صغيرة ، فانطبعت فى ذاكرتها صورتاهما ، وخير الذكريات ما نما مع العمر ، وانطبع فى النفس الفتية .

وكان أبوها إذا عاد من حقله يوافيها إلى متنزهها بصنارتين لـكلّ منهما واحدة ، فيصطادان الأسماك على الشاطىء ، ويعودان بما سنح من الصيد فتطبخه له فتاته .



العمود : الشهير بعمود بومبي بالاسكندرية

وكان الوالد يحذر عمرة شرّ الرجال بل العيون الرقيبة ، إشفاقاً منه عليها ، وكان فيما قاله لها ذات يوم :

— أي عمرة المحبوبة ، إنما عيون الرجال شرّ من صنارة الصياد ، ينصبها ساقطو النفوس منهم للفتيات البريئات ، فيعلقن بها كما تعلق

الأسماك الصغيرة بصنارتك . فحذار يا بنية من شرّهم إنه لعظيم !

دامت الحال على هـذا المنوال مدّة من الزمن ، أمن فيها أبو عمرة المسكين شرّ الحاكم وضربات القـدر ، ونسى أن الـكدر يجىء به صفو الليالى ، وظنّ نفسه بعيداً عن جواسيس الحاكم وزبانيته ، وما درى أنهم قد رصدوا فتاته ، وأن أمرها وصفتها قد بلغا الحاكم بأمره ، فاشتاق إلى رؤيتها ، وعقد النية على انتزاعها من يد أبيها .

***

أرسل الحاكم رسله يطلب الابنة من أبيها ، وما كان ليجول فى خلده أن فلاحاً مسكيناً يجرؤ على ردّ طلبه وعصيان أمره .

ولـكن حبّ الوالد ، إذا أحسّ بخطر يهدّد من يحبّ ، لا يخيفه ملك جبار ولا سلطان ظالم .

رفض الأب أن يسلّم كنزه ، وأن يحفر قبر ابنته بيده ، فردّ الرسل خائبين ، وعمد فى ليلة ليلاء إلى الهرب فراراً من وجه الظالم ، وظلّ يضرب فى البلاد هائماً ولهان كطير الحمام أحسّ الباشق يهدّد فراخه ، فسالت نفسه هلعاً وطارت شعاعاً .

ولـكن أبا عمرة المسكين ، كان أضعف حولاً وأقصر باعاً من أن يفلت من يد ذلك الجبار العنيد ، الذى كان يملأ النفوس رعباً وهولاً ، والذى كانت عيونه وأرصاده فى طول البلاد وعرضها .

خرج الأب مع ابنته ذات يوم ، وبعد أن طافا خارج المدينة ، جلسا على مقربة من ذلك العمود الذى نصبه الرومانيون تخليداً لذكرى مرورهم فى مصر وهناك داهمهما الجند وألقى القبض عليهما ، فأعيد الشيخ إلى كوخه حيث قضى أسفاً ولوعة، واقتيدت الابنة إلى قصر الحاكم حيث فتك الجزّار القاسى بالذبيح الطاهر ، وألقى به فى زاوية من زوايا القصر ، حيث قضت الابنة المسكينة أياماً وليالى ، تبكى كلّ ما يبكى عليه فى هذه الحياة من شرف ضائع ، وحرّية مفقودة ، وعيش منغص ، ووالد لم تدر أميت هو فتبكيه أم حىّ فتعلل النفس بلقائه ؟ إلى أن ترك الدمع فى خدّيها أثراً ، وذهبت من ذلك الوجه الصبيح بهجته .

وكان على باب القصر الخارجى حارس أمين قد اصطفاه الحاكم للسهر على ضحاياه يدعى « قاسما » ، فكان هذا الحارس إذا ما أظلم الليل وقف ديدبانا يتجوّل تحت شرفات القصر ، يرقب المارّة والناظرين ، حتى إذا خان القدر أحدهم فألقى نظرة على شرفة من شرفات القصر ، أخمد قاسم أنفاسه لساعته !

وكان قاسم منذ قيد الذبيح البرىء إلى قصر الحاكم يسمع طوال الليالى ، وهو قائم على حراسته ، أنيناً يخرج من غرفة عمرة ، فيقطع نياط قلبه ، ويترك أثرا أليماً فى نفسه .

وكان يسمع نداءها لوالدها ، ومناجاتها لروح والدتها ، فيودّ لو أمكنه أن ينقضّ على ذلك القصر فيهدمه بيديه حجراً حجراً ، لينقذ تلك البائسة التى لم يرها ، ولكنه درى بها ضحية من ضحايا حاكمه الظالم!

بدأ قاسم بعاطفة هى شفقة ورأفة . وما لبثت تلك العاطفة أن تحوّلت إلى حبّ فوجد فغرام فهيام ، أنساه واجبه وأمانته لسيده ، وأطار لبه وعقله ، فأمسى وأصبح يتحين الفرص ويفكر فى أحبولة أو دسيسة يتمكن بها من إنقاذ تلك الفتاة ولو ببذل دمه وروحه .

* * *

وكان للحاكم شقيقة يعرفها التاريخ باسم « ست الملك » ولكنها لأعجوبة من عجائب السماء ، لم تكن على شىء من قسوة أخيها وظلمه وفظاظته .

وكانت ست الملك كثيراً ما تتخلف إلى حرم أخيها ، تؤاسى هذه البائسة وتسلّى تلك ، فتلقى فى ظلمات ذلك الجحيم بريقاً من نور السماء .

قدمت زائرة كعادتها ، وخلت بعمرة المسكينة التعسة ، فها لها ما رأته فى وجهها من أثر الحزن العميق والشقاء الذى لاحدّ له ولا قرار .

قصت عليها الفتاة قصتها ، والعبرات تخنقها ، والزفرات تشهد للسانها بأليم ما تقاسيه من جوى ولوعة وأسى ، فرقت ست الملك لها ، ولم تغادرها إلا بعد أن عقدت العزيمة على تسهيل سبيل الفرار لها . وبعد أن وعدتها بذلك تركتها مؤمنة راجية .

وفكرت ست الملك فى الطريقة المثلى لانقاذ فتاتها ، فلم تر سبيلاً آمن وأضمن للنجاح من أن ترشو الحارس الموكل بحراسة القصر ليلاً .

دعت إليها قاسماً ، وأفضت إليه بما يجول فى صدرها ، بعد أن بذلت له الوعود الخلابة ، فارتمى قاسم على قدمى مولاته يسكب دموع الفرح والغبطة ، وأفضى إليها بما علق فى نفسه من حبّ الفتاة حباً لحمته الشفقة وسداه الهيام والجنون .

وكان الحاكم بأمر الله يكره أخته ست الملك ولا يتردد فى الكيد لها ، وقد اتهمها يوماً بتهمة شنعاء أوقدت فى صدرها نار البغض ، وأثارت فى نفسها رغبة الانتقام ، فسعت إليه بمكر ودهاء ، وبدأت تنفذ خطتها بمساعدة ضحايا أخيها على الافلات من يده .

وكان ذلك من حسن حظ عمرة التى استفادت من العداء القائم بين الأخت وأخيها .

فبعد أن رسمت ست الملك خطة الفرار ، وأطلعت الحارس عليها ، وأعدت لها العدة ، انسلت فى ليلة ظلماء إلى غرفة عمرة وأدلت بها من النافذة إلى الأرض ، على سلم كان قاسم قد حاكه بيده ، فتلقاها الحارس بين ذراعيه ، واحتملها جارياً فى ظلام ذلك الليل إلى قارب كان ينتظرهما على النيل !

وهكذا انتقمت الأخت من أخيها ، وفاز الحبيب بحبيبته ، وأفلتت عمرة من الأسر !

***

بلغ قاسم وعمرة الاسكندرية عملا بارادة الفتاة التى كانت تذوب شوقاً إلى لقاء أبيها غير حاسبة حساباً لما ينتظرها به القدر .

بلغا الكوخ فإذا به قد تداعت جدرانه ، وإذا به قد أقفر من ساكنيه !

فبكت عمرة بكاء مراً ، وسقت قبر أبيها بما تبقى من الدموع فى عينيها الداميتين ، وانصرفت بما تبقى فى قلبها الحزين من العواطف إلى حب منقذها قاسم ، ونامت آمنة شرّ ما يخبئه لها القدر ، وظنت نفسها البريئة أن السماء قد رأفت بها ، وأنها قد اكتفت بما نالها من شقاء وبؤس وعذاب أليم !

***

ثار ثائر الحاكم بأمر الله ، فأرغى وأزبد ، وبدأ يصبّ جام غضبه ونقمته على حراسه وجواريه ، فخنق منهم ومنهنّ عشرات ، وألقى فى النيل عشرات أخر ، وبثّ رسله وجنده يبحثون عن الفارّين ، واعداً متوعّداً !

وخافت ستّ الملك أن يلحق بقاسم وعمرة أذى ، وأن تعاد الفتاة إلى سجنها ، ويحكم على حبيبها بالموت شرّ ميتة ، فأرسلت أيضا رسلها وجواسيسها للبحث عن العاشقين ، وإعداد العدّة لفرارهما خارج القطر .

فكان نضال عنيف بين الأخ والأخت : الحاكم يسعى إلى إهلاك نفسين ، وأخت الحاكم تسعى إلى إنقاذهما !

***

جلس الحبيبان على صخرة من صخور شاطىء البحر فى الاسكندرية ، حيث أقامت اليوم يد العمارة فنادق ومنازل ومصانع ، يتبادلان غرامهما النامى ، ويتساقيان أحاديث الحب ، ويتطاعمان قبلات الغرام ، وأمامهما البحر يوحى إليهما أنهما حرّان طليقان ، ويوسوس لقلبيهما أن يد الظلم بعيدة عن أن تنالهما .

سكرا بنشوة الغرام ، وأسدل الحبّ بينهما وبين العالم ستاراً كثيفاً ، فلم يفطنا إلى الخطر الداهم ، ولم يفكرا فى أن السعادة لا تدوم إلا إذا أحاط بها سياج من الحذر والتكتم والخفاء .

أجل ، هى ساعة نسيا فيها أنهما مهدور دمهما ، وأن لهما عدواً يرتجف لذكر اسمه وادى النيل وما دونه من البلاد ، وأن ذلك العدوّ العنيد لن يهدأ له بال إلا بعد أن يتمّ له الاقتصاص منهما والقضاء على هنائهما !

***

كان الحبيبان على شاطىء البحر . . .

وإذا بجند الحاكم قد أحاطوا بهما إحاطة السوار بالمعصم ، وما هى إلا لحظة حتى أثقلا بالقيود والاغلال ، وجرّا إلى قبر مظلم هو سجن من

سجون تلك الأيام السود .

وزفت إلى الحاكم ابن العزيز بشرى القبض على الفارّين المجرمين ، وقصّ عليه أنهما كانا يتشاكيان الحبّ على صخرة على شاطىء البحر ، فضحك ضحكة نمّت عما فى نفسه من حفيظة ومكر . . .

ثم أومأ إلى رسله قائلاً :

— قولوا للجند والجلاّدين ألا يمسوا الحبيبين بأذى ، وأن يقودوهما حرّين طليقين إلى حيث كانا يتشاكيان و يتداعبان ، ثم يحفروا لهما حفيرة و يدفنوهما ثَمّ حيين !

***

إذا قصدت أيها القارىء إلى مدينة الاسكندرية، فسر حتى الصخور المشرفة على مدخل الميناء الشرقى ، وسل خبيراً أن يهديك إلى محلة « طابية السلسلة » و إذا بلغت ذلك المكان ، فاعلم أن أسس ما تراه من الأبنية مشيداً مكان تلك الطابية ، هى قائمة على بقايا الحبيبين اللذين ذهبت بهما فتيين يد الظلم ، ظلم الحاكم بن العزيز الفاطمى ، أو الحاكم بأمر الله ، أو الحاكم بأمره كما كان يلقب نفسه !

وقد تآمرت ست الملك على أخيها مع أعدائه الكثيرين ، فعهدت إلى صنيعها ابن دواس بقتله ، فطلع عليه بشرذمة من رجاله وأعوانه ، وقتلوه شرّ قتلة ، وأخفوا جثته فى القرافة . . .

وكان ذلك سنة ٤١١ للهجرة .

٦

انطونيو والعرافة

بلغت فلول الجيش الرومانى سواحل فينيقيا ، ونصبت مضاربها بأمر من قائدها على تلك الرمال الممتدة على شاطىء البحر الأبيض ، وتنفس الجنود الصعداء ظناً منهم أن العناء قد ولّى ، وأن الشقاء سيتبعه هناء ، وأن إله الحرب سيبتسم لهم بعد أن ظلّ مدّة من الزمن معرضاً عنهم ، كالح الوجه فى وجوههم ، ممسكا يده عن أيديهم .

وترك قائد الرومانيين ـ مارك انطونيو ـ جيشه على ساحل البحر ، واصطحب معه رفيقه ونجيه « هيتيو » المصرى ، وابتعد عن ضوضاء الخيام وضجة الجنود ، متجهاً إلى ذلك النتوء البارز فوق الماء ، المرتفع صعداً فى الفضاء ، المشرف على البحر والنهر معاً ، عند ذلك المصبّ الذى اجتازته من قبل جيوش الغزاة الفاتحين ، إما منتصرة هاتفة ، وإما مهزومة صامتة !

يعرف ذلك النهر اليوم بنهر الكلب . أما الأقدمون فانهم كانوا يسمونه « ليقوس » أو نهر الذئب .

كان مارك انطونيو قد اجتازه بجيشه قبل ذلك اليوم بشهور ، قاصداً إلى الأقطار الاسيوية المتوسطة ، لاخضاع الشعوب والقبائل الضاربة هنالك ، وبسط سلطانه وسلطان صديقته وحليفته كليوبطرة ، ملكة مصر الجميلة الفاتنة ، على الممالك والامارات التابعة للامبراطورية الرومانية الشرقية .

لكنّ السيتبين والماديين وحلفاءهم من سكان ارمنيا وفارس وما بين النهرين ، قابلوا الرومانيين بالتمرّد والعصيان ، ونازلوهم فى ميادين القتال ، وفتكوا بهم فتكا ذريعاً ، فعاد القائد الرومانى السابق أدراجه ، ويمم شطر البحر الأبيض ، طالباً فى سواحله وجبانه نجاة ومأمناً ، معللا نفسه بوصول النجدة التى وعدته بها كليوبطرة وتعهدت بارسالها بحراً وعلى جناح السرعة .

كان عدد الذين اجتاحوا البلاد فى طريقهم إلى الشرق ، بقيادة انطونيو ، أكثر من خمسين ألف فارس وراجل ، فلم يعد منهم إلى الساحل الفينيقى غير عشرة آلاف جندى ، جميعهم حفاة عراة أنهكهم الجوع والمرض والعناء !

أولئك هم الأبطال والصناديد الذين تحوّلوا بعد الهزيمة إلى خيالات وأشباح ، يخيفهم هزيم الرعود القاصفة فى أعالى الجبال ، ويرعبهم صفير

الرّياح فى الغابات ، ويلقى الذعر فى نفوسهم هدير البحر وتلاطم الأمواج . . .



مارك أنطونيو

ذلك لأن تلك الأصوات جميعها تعيد إلى أذهانهم مشاهد الحرب الدموية التى خاضوا غمارها وعادوا منها خاسرين ، وتذكرهم بأولئك « السيتيين » الذين صمدوا لهم فى الشرق وردّوهم على أعقابهم ، والذين يعيشــون فى سهول بلادهم على ظهور الجياد ، ويرشقون النبال بمهارة لا تعـدّ مهارة الرومانيين بجانبها شيئاً يذكر ، ويصيبون الهدف

بسهامهم دون أن ينظروا إليه !

وبينما الجنود يتحدّثون عن الوقائع التى نجوا منها بمعجزة ، ويرفعون إلى آلهتهم آيات الشكر والعبودية ، كان قائدهم يصعد الجبل على مهل ، ويضرب أخماساً بأسداس ، ويفكر فى خطة يرسمها للخروج من المأزق الذى زجّ نفسه فيه .

ظلّ يمشى إلى الأمام غير حاسب للوقت حساباً ، تارة يسير على سفح الجبل ، وتارة يتسلق صخوره ، حتى أدركه التعب ، فجلس على الأرض،ودعا رفيقه إلى الجلوس بجانبه ، ثم أخذ رأسه بين يديه ، ودفع إلى الوراء شعوره المسترسلة على كتفيه ، وجعل يحدق البصر فى ذلك الخضم الممتد أمامه ، لعله يرى على صفحته ، هناك ، فى الأفق البعيد ، مراكب كليوبطرة المصرية ، مسرعة إليه ، ناشرة أجنحتها السمراء ، حاملة تحية الحبيبة والنجدة المنتظرة !

لكن عينه لم تأخذ على سطح المياه الزرقاء ، غير الزبد الطافى عليها ، وخيالات بيضاء ، ينخدع بها النظر لحظة ، ثم يتضح له أنها طيور بحرية تسبح فى الفضاء وتداعب رءوس الأمواج !

مرّت ساعات على مارك انطونيو وهو على هذه الحالة ، مكتئب النفس ، شارد الفكر ، تائه البصر . . .

لكنه صحا فجأة على صوت غراب ينعق فوق رأسه على شجيرة

يابسة ، غضبت عليها الطبيعة فأوجدتها بين تلك الصخور القائمة والحجارة الغبراء .

رفع مارك انطونيو رأسه ، والتفت فلم يجد رفيقه جالساً بجانبه ، بل رآه واقفاً على بعد خطوات منه ، وقد ولاه ظهره ، واقترب من صخرة بارزة ، وجعل ينظر فى صفحتها، جامداً ، لايأتى بحركة .

نهض أنطونيو وسار إليه ، ثم وقف معه جنباً إلى جنب ، شاخص البصر ، وقد جذبته تلك الصخرة وسحرته صفحتها الصامتة الناطقة !

هنا ، فى هذا الوادى ، على ضفاف هـذا النهر الصغير ، أمام هذا الشاطىء الممتدّ على مرمى البصر ، فى سفح هـذا الجبل الشاهق ، أمام تلك الصخور الجرداء ، مرّت من قبل جيش أنطونيو جيوش ، وذاقت كما ذاق جنوده لذة النصر ومرارة الفشل !

وأولئك القوّاد العظام والأبطال البواسل ، الذين دوّخوا العالم وملأوه ضجيجاً ، قد ذهبوا إلى حيث لا بدّ للناس من الذهاب ، وانتقلوا إلى عالم غير هذا العالم ، تاركين وراءهم من تلك الحوادث التى أثاروها ، والحروب التى أضرموا نارها ، والممالك التى اجتاحوا ديارها ، والتيجان التى أسقطوها عن رءوس أصحابها ووضعوها على رءوسهم ، والغزوات البعيدة التى قاموا بها ــ الذكرى فقط . . . وأسماء منقوشة على الصخور الصماء ، تنبىء الأحقاب من بعدهم بتلك الضوضاء التى أثارها مرور الفاتحين فى هذا العالم !



الـكتابات القديمة
المنقوشة على الصخور فى نهر الـكلب بلبنان

فعلى تلك الصخرة التى وقف أمامها أنطونيو مع رفيقه المصرى ، صامتين ، مأخوذين ، نقش رمسيس الثانى ، فرعون مصر العظيم ، رسمه ولقبه واسمه ، قبل ذلك اليوم بألف وخمسمائة سنة ، عند ماتدفقت جيوشه الجرارة على الشرق ، وأخضعت شعوبه لسلطان الدولة المصرية .

حنى القائد الرومانى رأسه احتراماً وإجلالا أمام رسم ذلك الفاتح العظيم ، وتساءل قائلا :

— هل أترك فى هذه البلاد ، بعد رحيلى ، ذكرى بطل منصور أم قائد مهزوم ؟

وابتعد عن تلك الصخرة فاذا به أمام تابيــة فتالئة ، تحدثانه عن سلمانصر وسنحاريب ملكى الأشوريين ، وقد نقشا اسميهما أيضاً على تلك الصخور ، فى ذلك الوعر الذى مرّت فيــه جحافلهم ، قبل ذلك اليوم بسبعة قرون !

فحنى القائد الرومانى رأسه من جديد أمام البطلين العظيمين . . .

وقامت فيه الهواجس والذكريات . . .

ومرّت أمام عينيه تلك الصحائف التى خطها فى سجلّ التاريخ ، والأعمال التى قام بها ، والتى يجهل الخاتمة التى تسير إليها .

عادت به الذاكرة إلى ذلك اليوم الذى التقى فيــه للمرّة الأولى بالملكة الشابة الساحرة ، كليوبطرة . . .

واليوم الذى شــعر فيه بنيران الغرام تتأجج فى صدره ، فأعرض عن زوجتــه أوكتافيا ، أخت صديقه أوكتاف ، وألقى بنفســه بين ذراعى ملكة مصر ، وأصبح لهـا عبداً خاضعاً ذليلا . . .

واليوم الذى أعلن فيه على رءوس الملأ أنه يطلق زوجته ، ويعيدها إلى أهلها ، ويتخذ بدلا منها ، زوجة له ، تلك التى استولت على مشاعره ، وسلبت لبه ، وقيدت قلبه بسلاسل الحب . . .

كليو بطرة ملكة مصر



واليوم الذى وقف فيه أمام الجموع المحتشدة فى ملهى الاسكندرية ، ونادى بكليوبطرة ملكة على مصر وقبرص وأفريقيا وسوريا ، بالاشتراك مع « قيصرون » ابنها من « يوليوس قيصر » ونادى فى الوقت نفسه بولديه من كليوبطرة ملكين على أرمينيا ومادى وفينيقيا وليبيا وكيليكيا . . .

واليوم الذى أعلنت فيه روما أنها تطرد من حظيرتها ذلك الابن العاق ، والقائد الخائن ، وتعتبره عدواً أشد خطراً عليها من كل عدو ، وخصما يجب التخلص منه والقضاء عليه قبل كل خصم . . .

عادت الذاكرة بمارك أنطونيو إلى جميع تلك الحوادث الجسام ، فرأى نفسه وحيداً ، سائراً فى طريق مظلم ، تحف به المخاطر من كل صوب ، ولا تبدو لعينيه بارقة أمل فى النصر الذى كان يرجوه ويسعى إليه .

وبينما هو على تلك الحالة ، إذا بوقع أقدام يطرق أذنيه ، فالتفت إلى مبعث ذلك الصوت ، ورأى امرأة تصعد الجبل نحوه ، متكئة على عصاها ، تدفع الحصى أمامها بقدميها العاريتين .

وصلت إلى المكان الذى كان القائد الرومانى واقفاً فيه مع صديقه ، فرفعت نظرها إليهما ، وبعد سكوت قصير أرسلت فى الفضاء قهقهة عالية ، رددها الصدى فى الوادى من صخر إلى صخر . . .

ثم قالت :

— أنطونيو ! . . ما جاء بك إلى هـذا المكان الموحش ؟ لعلك تريد إزعاج الثعابين فى أوكارها ، والنسور فى أوكانها ، والثعالب فى جحورها ، بعد أن أزعجت روما وأثرت الحروب فى الشرق والغرب !

نظر القائد مندهشاً إلى تلك المرأة التى لايعرفها ، والتى نادته باسمه وخاطبته بتلك الجرأة الغريبة ، ولم يوجه إليها كلاماً ، بل التفت إلى رفيقه قائلاً :

— أتعرف هذه العجوز يا هيتيو ؟

فأجابه المصرى :

— كلا . . لا أعرفها !

لـكن المرأة صاحت فى وجهه :

— كيف لا تعرفنى أيها النمام المنافق . ؟ . أنسيت أم تناسيت ذلك العمل الشائن الذى أقدمت عليه ، عند ما أردت أن تتخلص من وحيدى ، فوشيت به أمام هـذا الرومانى فأمر بقتله ، وتم لك بتلك الوشاية الانتقام الذى سعيت إليه ؟

تضاعفت دهشة أنطونيو ، ولم يدرك من كلام المرأة حقيقة الأمر ، فسألها :

— من هو ابنك يا امرأة ؟ ومن أنت ؟ ومن جاء بك إلى هنا ؟ وأى لوم توجهين إلى صديقى ورفيقى هيتيو ؟

فأجابت العجوز :

— اصغ إلىّ يا أنطونيو : إننى لا أحمل موجدة عليك لأنك كنت مخدوعاً ، والمخدوع لايؤاخذ على عمل يأتيه ، أو ذنب يقترفه . لـكننى حانقة على هذا الذى تسميه صديقك ورفيقك . فاسمع ما أقصه عليك ، واحكم بيننا : إن المرأة التى تراها أمامك الآن عرّافة مصرية ، قضت أربعين سنة،متنقلة من هيكل إلى هيكل ، ومن معبد إلى معبد ، ومن بلدة إلى بلدة ، فى مصر وفينيقيا . وقد ذاع صيتها فى طول البلاد وعرضها ، وكان الناس يهرعون إليها من كل ناحيـة ، لـكى يستطلعوا بواسطتها ما خفى عنهـم من حوادث المـاضى والحاضر ، وما يخبئه لهـم الغيب فى المستقبل . وكان لى ولد وحيـد ، أحبه ، وأرعاه بعنايتى ، وأرشده إلى السبل السوية ، وأبثه المبادىء القويمة ، وأفضى إليه بأسرار العلوم التى ورثتها عن آبائى وأجدادى ، لـكى يصبح فى الغد عرّافاً مثلى ومثلهم ، ويسير على الطريق الذى ساروا عليه جميعاً . وقد حدث ذات يوم أن علق ولدى بحبّ فتاة طاهرة نبيلة ، فبادلته الحبّ ، وتعاهد الأثنان على الزواج . لـكنّ خصماً لم يحسب له ولدى حساباً قام يزاحمه فى حبه وينازعه حبيبته . وذلك الخصم هو هـذا الرجل الذى يصحبك يا أنطونيو. فانه كان يطمع فى أموال الفتاة وجاهها . فجعل يكيد لولدى فى الخفاء ، وينصب له الحبائل ويدس له الدسائس . . حتى تمّ له ما أراد من وقيعة وضرر . . .

فقاطعها أنطونيو سائلا رفيقه :

— أصحيح هذا يا هيتيو ؟

لم يجب الشاب . فقالت المرأة :

— إن سكوته أيها القائد لبرهان على صحة ما أقول . وهل فى استطاعته أن يكذبنى ، وأنا لا أفضى إليك إلا بالحقيقة ؟

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— حدث أن جاءك هـذا الرجل ، وكان يقيم فى قصرك بالاسكندرية ، ويطلعك على ما يجرى فى المجالس والأندية المصرية ، وقال لك ان مؤامرة دنيئة تدبر فى الخفاء لاغتيالك ، وان القائمين بها جماعة من المصريين الذين اشتراهم أعداؤك بالمال والوعود .

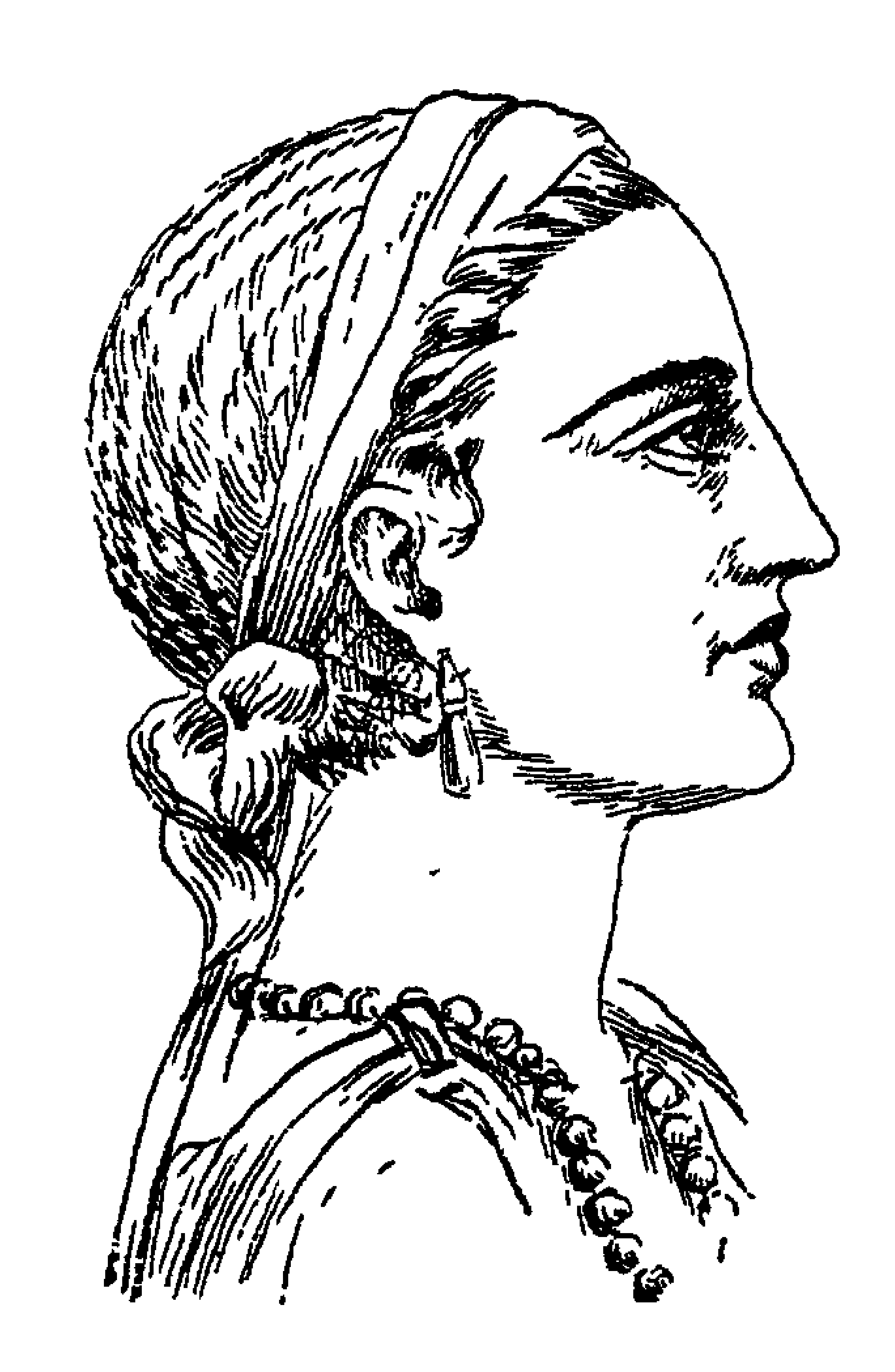
— هـذا صحيح . لـكن أولئك الذين دبروا تلك المـكيدة لم يقعوا فى قبضتى !

— نعم . لأن المـكيدة التى أطلعك عليها هـذا الخائن لم تكن غير وليدة مخيلته . فقد ادّعى ذلك الادّعاء ، وكذب عليك وخدعك ، وجعلك تعتقد أن شاباً من المقرّبين إلى الملكة ، القائمين بخدمتها ، على اتفاق مع المتآمرين .

— هـذا صحيح أيضاً . . . وقد أمرت باعدام ذلك الشاب ، فأعدم أمامى ، وعلى مرأى من الشعب .

— ذلك الشهيد هو ولدى أيها القائد ! ولدى الذى كان يصيح عبثاً

أنه برىء ، وأنه لم يرتكب جرماً يؤاخذ عليه ، ويستحق من أجله الاعدام . لكنك لم تصغ إليه ، ولم تعر كلامه اهتماماً ، لأن هيتيو هذا جعلك تعتقد أيضاً أن ذلك الفتى المسكين كان يتطلع إلى أمنية أخرى، ويعلل النفس بتحقيقها .



كليوبطرة

فانتفض أنطونيو وقال :

— لا تذكريني بذلك يا امرأة !

لكن العرّافة ظلت مستطردة فى حديثها :

— جعلك هذا الرجل تعتقد أن ولدى يحبّ الملكة ، وأن الملكة تعطف عليه ، وتبادله الحبّ !

— هذا صحيح !

— لكنه كان كاذباً في دعواه . فان ولدى لم يحبّ غير تلك الفتاة التى تعاهد معها على الزواج ، والتى أراد صديقك هذا أن ينتزعها منه . وقد أعمى الغرام وأعمت الغيرة بصرك و بصيرتك ، فلم تتحقق مما أفضى به إليك هذا النمام الواشى ، فأصدرت أمرك بقتل البرىء فقتل ! وقد غادرت البلاد منذ ذلك الوقت ، وحملتنى قدماى إلى هذا المكان ، حيث أقيم فى مغارة مظلمة ، مع الوحوش والطيور والحشرات! وإننى أجدها يا أنطونيو أقلّ قسوة من الانسان، وأبعد نظراً ، وأكثر عدلاً و إنصافاً ! والآن ، اسمع ما تقوله لك العرّافة التى قتلت ولدها انقياداً لوشاية الخونة المنافقين : ان الملكة كليو بطرة ليست بالمرأة التى تطن ! هى نطفة من نيران المكر والشرّ ! هى رسول الأرواح الخبيثة فى هذا العالم . ! . لقد كانت شؤماً على القائد بومبيوس . . . وشؤماً على قيصر العظيم . . . وشؤماً على أبويها . . . وشؤماً على بلادها التى زجتها فى غمرات الحروب . . . وستكون شؤماً عليك يا أنطونيو ! اعلم أنك لن تعرف الهناء بعد الآن ، ولن تذوق الرّاحة ، ولن يكلل النجاح مساعيك ، ولن يضحك النصر لأعلامك ، ولن ترى وطنك . ! ستموت ميتة شنيعة ، منبوذاً من أهلك وأصدقائك

وأبناء قومك ووطنك ، ومن المرأة التى تحبها والتى ضحيت بكل شىء فى سبيلها . ! . إننى أتنبأ لك بالمصائب والويلات ، لأنك أبعدت عن نفسك بيدك ذلك الطالع الحسن ، الذى جعل المستقبل يبتسم لك فى بادىء الأمر ، وانقدت لامرأة شرّيرة تنقاد من جهتها للملذات والشهوات ! فقل الوداع للوطن وللنصر وللنجاح وللرّاحة وللهناء ! وقل الوداع للحياة يا مارك أنطونيو !

حاول القائد أن يسكت المرأة . لكن لسانه أبى أن يطيعه ، فعقد عن النطق فجأة ، وخيل إليه أن تلك العجوز الشمطاء ، التى أمطرته ذلك الوابل من التنبؤات السيئة ، إنما هى رسولة الآلهة ، بعثت بها « عشتروت » الفينيقية من أعالى تلك الجبال أو من جوف ذلك اليمّ ، لكى تحذره من عاقبة الأعمال التى اندفع فيها ، لعله يستطيع أن يتخذ للغد حيطته ، ويعدّ للمستقبل عدّته . . .

وقبل أن يلمّ أنطونيو شتات أفكاره الشاردة ، ويعيد إلى نفسه الهدوء ، صاحت به المرأة من جديد قائلة :

— ستكفر عن ذنوبك وآثامك يا أنطونيو ، وتموت دون أن يرتفع صوت بالبكاء عليك ، أو تذرف على قبرك دمعة صديق ! أما رفيقك هذا فقد أزفت ساعته ، وسعى إلى حتفه بنفسه !

قالت هذا ، وانقضت على « هيتيو » المصرى وضربته بخنجر كانت تخبئه فى طيات ثوبها الخلق ، فسقط على الأرض ، وتفجرت

الدماء من صدره ، وقد اخترقه الخنجر ومزق القلب وقطع العروق . ! .

وهدأت ثورة العرّافة ، فألقت من يدها السلاح الملطخ بالدم ، والتفتت إلى أنطونيو الذى لم يتحرك للدفاع عن رفيقه ، وقالت :

— ما ظننت فى وقت من الأوقات أن الآلهة تسهر علىّ وتخدم انتقامى إلى هذا الحدّ . وما علمت أنها ستقود خطواتك إلى هذا المكان ، ومعك الرجل الذى طالما عللت النفس بقتله . ! . ان المجرم الأثيم يا أنطونيو لا بد أن يلاقي العقاب على ما اقترفت يداه . . . الوداع أيها القائد العاشق الأعمى . ! . تذكر دائماً ما قالته لك العرّافة المصرية فى جبال فينيقيا . . . واترك جثة هذا الخائن فى مكانها ، فانها لوليمة فاخرة أقيمها الليلة للضباع والذئاب !

وتناولت العرّافة عصاها ، وردت على وجهها طرف ردائها ، وراحت فى سبيلها ، تدوس الحصا بقدميها العاريتين ، صاعدة فى الجبل بين الصخور ، كأنه لم يحدث حادث ولم تقع مأساة ! . .

وظل مارك أنطونيو يتبعها بالنظر ، إلى أن توارت وراء الصخور ...

فعاد القائد الرومانى وحده إلى معسكر الجند ، وقد تقطب جبينه ، واكفهرّ وجهه ، وبدا عليه التعب . . .

* * *

تحققت نبوءة العرّافة المصرية ، فقد منى مارك أنطونيو بالخسائر المتوالية ، وانهزم جنوده فى كل مكان ، وانفضّ من حوله الأصدقاء

والأنصار ، ولم يجد عزاء عما حلّ به من كوارث إلافى أحضان الموت...

أراد أن ينتحر فخانته الشجاعة !

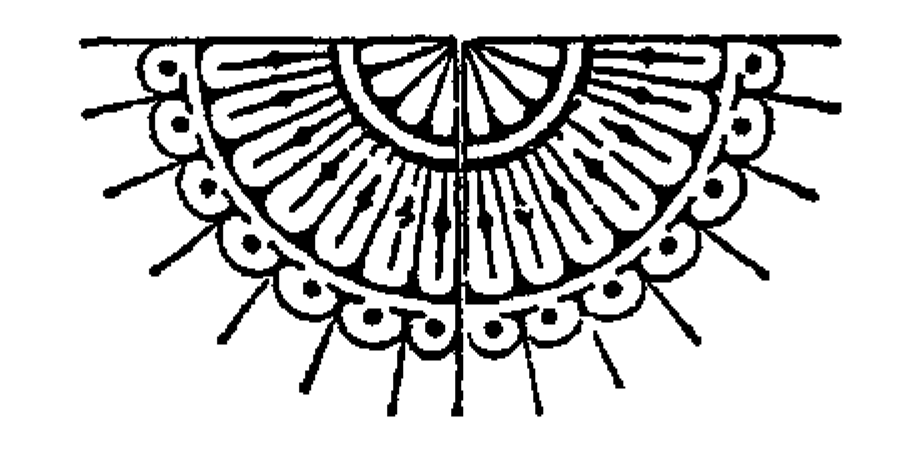
وأراد أن يلقى الموت فتحاشاه الموت فى الميادين !

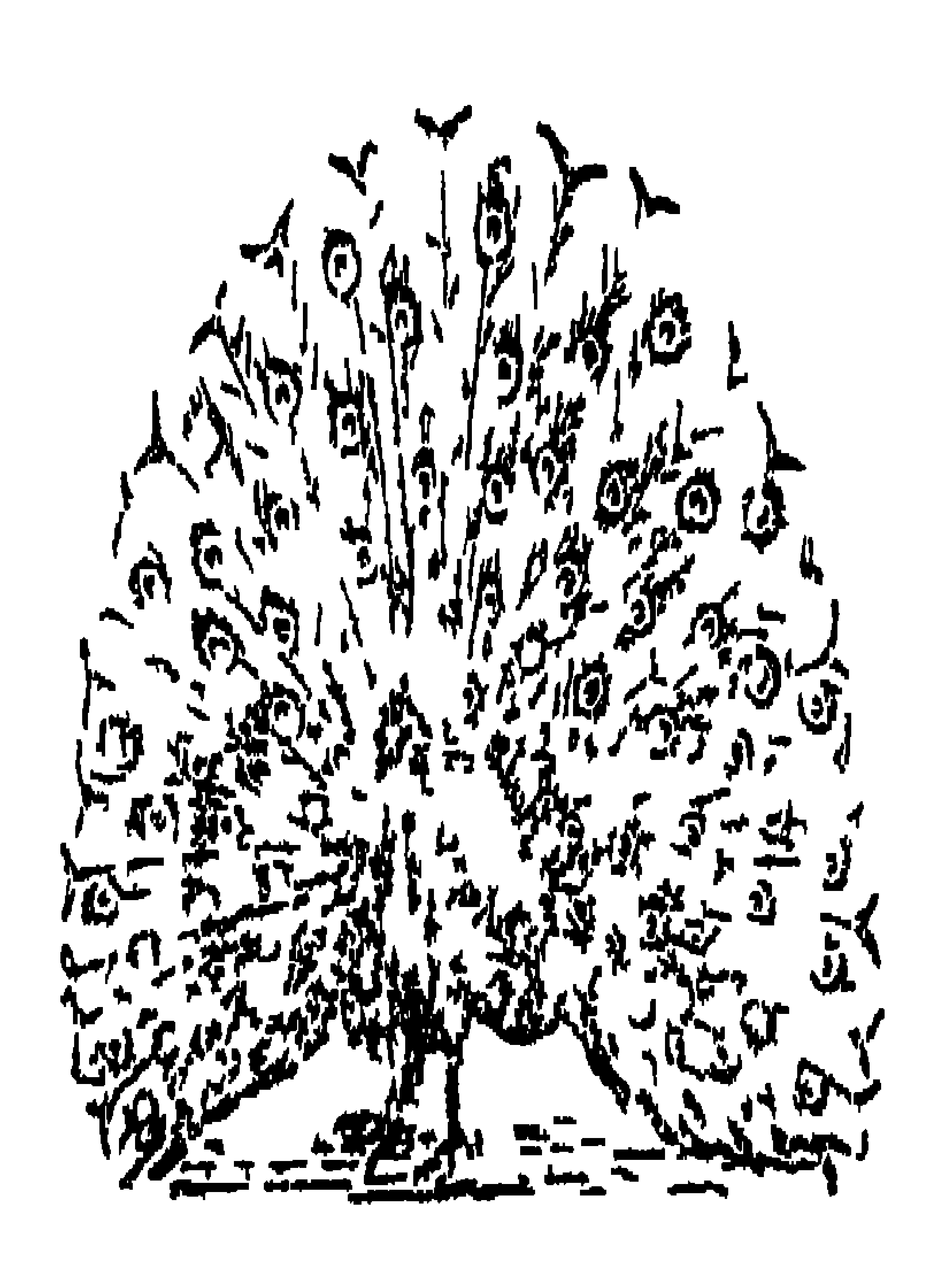
لـكنّ صديقاً أشفق عليه فطعنه فى صدره الطعنة القاضية. . .

فمـات بعيداً عن كليو بطرة ، وهو الذى كان يقول لها : « لست أرغب بعـد الآن إلا فى أمنية واحدة ، وهى أن أموت بين ذراعيك يا حبيبتى ! »

وماتت كليو بطرة أيضاً بعيدة عنه ، من لسعة الحية المسمومة ، وهى التى كانت تقول له: « لست أرغب بعد الآن إلا فىأمنية واحدة ، وهى أن نعيش طويلا ، وأن نموت بعـد ذلك ونحن فى فراشـنا ، متعانقين دون أن نشعر بعذاب ونحسّ بألم ! »

وكان ذلك فى سنة ٣٠ قبل الميلاد . . .





٧

زينب وعبد الملك

ابتعدت السفينة خلسة عن الشواطىء المصرية ، يسترها الظلام الحالك ، ومخرت المياه متجهة إلى عرض البحر ، حاملة مستقبل فرنسا وآمال نابوليون بونابرت .

نادى القائد ربان السفينة وقال له :

— لقد وضعت حياتى ومستقبل فرنسا بين يديك ، فاما أن تنسلّ بسفينتك بين مراكب الانجليز التى تجوب البحار فى طلبنا ، لكى تقطع علينا خط الرّجعة إلى بلادنا ، فتقدّم للوطن خدمة يسجلها لك التاريخ على صفحاته . وإما أن تقع بين أيديهم ، فتقضى علينا وعلى الوطن معاً !

فبسط الربان ذراعه مقسما وقال :

— سأفلت منهم يا جنرال ، أقسم لك بشرفى وأولادى !

— شكراً لك . ! .

وصافحه بونابرت ، ثم اتكأ على حاجز السفينة ، وشخص ببصره إلى النجم الساطع فى الفضاء اللانهائى ، ذلك النجم الذى كان الفاتح يسميه نجمه ، والذى اتخذه رمزاً لأمانيه ومطامعه !

* * *

مرّت ثلاثة أيام والسفينة تفلت كل يوم بأعجوبة من المراكب الانجليزية ، فنادى القائد ربان السفينة ثانية ، فى صباح اليوم الرابع ، وهنأه على براعته ومهارته ، وأكد له من جديد أنه يثق به ويضع حياته بين يديه .

وبينما بونابرت يخاطب الرّبان ، إذا ضجة تتصاعد من جوف السفينة ، فانتفض القائد وسأل ما الخبر ؟ وأسرع الرّبان إلى مصدر الجلبة ، ثم عاد يحيط به بحارة السفينة ، ومعهم شاب غريب ، أوثقت يداه وراء ظهره ، والدم يسيل بغزارة من جرح فى خدّه الأيمن .

وخاطب الرّبان القائد العام قائلاً :

— سيدى الجنرال . قبض البحارة على هذا الرجل متلبساً بجريمة شنعاء . فقد وثب على الجندى « فورتين » من رجال الحرس ، وطعنه بخنجره أربع طعنات فى صدره وكتفه ، فسقط المسكين صريعاً ، وأسرع البحارة إلى الاحاطة بالمجرم الأثيم ، الذى حاول أن يقاوم مهدّداً بالقتل كل من يقترب منه . لكنهم تمكنوا من انتزاع الخنجر من

يده ، فأصيب بجرح فى خدّه أثناء العراك ، وأظنه لا يفهم لغتنا ، ويتكلم العربية فقط .

اقترب القائد من الشاب الذى كان هادئاً ساكناً ، كمن يشعر بارتياح وطمأنينة ، بعد القيام بعمل كان يظنه واجباً عليه ، وخاطبه بالفرنسية فلم يجب ، فأمر بونابرت باحضار مترجم من رجال الحاشية ، ليعلم حقيقة الأمر ، وليكشف الستار عن سرّ ذلك القاتل الغريب .

* * *

جاء المترجم وألقى أسئلته على الرجل ، فلم يمانع فى الاجابة :

— ما اسمك ؟

— عبد الملك شهيب .

— من أىّ بلاد أنت ؟

— من مدينة غزة . لكننى استوطنت القاهرة منذ أربع سنوات .

— وما جاء بك إلى هنا ؟

— الأخذ بالثأر !

— ممن ؟

— من النذل الذى قتلته !

— وهل أساء إليك هذا الرجل ؟

— لو لم يسىء إلىّ لما تعقبته حتى قتلته !

— وماذا فعل ؟

فسكت الرجل واعترته رعشة شديدة . ثم نظر إلى الأرض واغرورقت عيناه بالدموع . لكن بونابرت أشار إلى المترجم بالاستمرار فى السؤال :

— قل لنا ماذا فعل ذلك الجندى حتى استبحت لنفسك حقّ الاقتصاص منه ؟



الجنرال كليبر الفرنسى
الذى قتله سليمان الحلبى

فرفع الرجل رأسه ، ونظر إلى من كانوا يحيطون به من قوّاد وجنود ، فقرأ على وجوههم ماتضمره له قلوبهم من شرّ و بغض و كره ،

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرّة وقال :

— لو ارتكب رجل منا نحو أحدكم جريمة كالتى ارتكبها ذلك اللعين نحوى ، لانتقمتم لابن وطنكم من البلاد كلها ، ولأمطرتم علينا وابل رصاصكم وقنابلكم ، أو أعملتم فينا السيوف والرماح ، واستبحتم لأنفسكم انتقاماً أروع من الانتقام الذى نفذته فى غريمى ! إنى عالم بمصيرى الذى ينتظرنى ، ولكن لا بدّ لى قبل أن أموت من صبّ لعناتى على هؤلاء الأقوام . . .

فقاطعه المترجم ساخطاً :

— لا تسترسل فى غضبك يا رجل ، واكتف بذكر الدواعى التى دفعتك إلى القتل .

— حسناً . . . كنت أسكن منزلاً صغيراً ، على مقربة من تلّ العقارب فى مصر ، مع أختى ، وهى أصغر منى سناً . وكنت أتغيب فى النهار ، وأعود إلى البيت بعد صلاة الغروب. ففى ذات ليلة عدت إلى منزلى ، فوجدت فيه الجندى الذى قتلته . . . ولا تسل عن الجرم الذى اقترفه . . . فانه فى نظر أبناء قومى ، أفظع جرم يرتكبه إنسان . . . يا ليته ترك أختى جثة هامدة . . . لكنت إذن طرحتها على قمة التل طعمة للجوارح ، بدلاً من الاحتفاظ بها ملطخة بالعار ، مدنسة بملامسة ذلك الحيوان النجس . ! . نعم . . . حاولت أن أقبض على عنقه ،

وأقتصّ منه فى ذلك المساء المشئوم .!. لـكن الجبان فرّ هارباً، وأفلت من يدى .

— وكيف علمت بمقرّه بعد ذلك ؟

— تركت أعمالى ، ووقفت نفسى منذ ذلك اليوم مراقباً للجنود فى روحاتهم وغدواتهم ، وأقسمت أمام الله وأمام أختى أن أنتقم من الفاسق الأثيم ، ولو بذلت حياتى فى سبيل ذلك الانتقام . ! . أما طريق الوصول إليه ، وصعودى خفية إلى هذه السفينة ، فهذا ما لا شأن لـكم به . . . لقد تمّ لى ما أردت ، فأخذت بثأرى ، وغسلت بدم المجرم العار الذى ألحقه بى و بأسرتى . ! . والآن ، ليفعل بى قائدكم ما يريد ، فلا يهمنى شىء ، ولا أطلب منكم رحمة ولا شفقة . . . القاتل يقتل . . . لا أجهل ذلك . . . وحياتى بين أيديكم ، فهى لـكم . . . خذوها إذا شئتم !

* * *

فى صباح يوم الأربعاء ١٨ يونيو سنة ١٨٠٠ ، أى فى التاسع والعشرين من شهر بريريال سـنة ٨ للجمهورية الفرنسية — الموافق للسادس والعشرين من شهرمحرم سنة ١٢١٥ هجرية ، أعدم عبد الملك شهيب ، رمياً بالرصاص ، فى ثغر طولون الفرنسى ، بتهمةالقتل بتعمد ..

وفى نفس ذلك اليوم ، نفذ حكم الاعدام فى كل من سليمان الحلبى ، قاتل الجنرال كليبر ، قائد القوات الفرنسية فى مصر ، وشركائه فى التآمر

على اغتيال ذلك القائد ، وهم : عبد القادر الغزى ، ومحمد الغزى ، وعبد الله الغزى ، والسيد احمد الوالى .



الشيخ سليمان الفيومى
وقد لعب دورا هاما فى عهد الاحتلال الفرنسى فى مصر

ولم يكن المتهم الأخير ـ السيد احمد الوالى ـ إلا ابن خال الشاب عبد الملك شهيب . فكأن الأقدار شاءت أن يعدم الاثنان فى يوم واحد، وأن تكون التهمة الموجهة إليهما واحدة ، وأن ينفذ الحكم فى السيد احمد الوالى فى تل" العقارب . . .

فهناك،فوق ذلك التل" المشرف على منزل عبد الملك وأخته المسكينة،

سقط رأس احمد الوالى تحت سيف الجلاد ، وهناك أحرقت جثته ، بينما كان ابن عمته عبد الملك يعدم رمياً بالرصاص ، فى مدينة طولون...

* * *

وظلت زينب — أخت عبد الملك وفريسة الجندى فورتين — مقيمة فى ذلك المنزل الملعون ، تندب حظها ، وتذرف الدموع السخينة على مقتل ابن خالها ، وتعلل النفس بلقاء أخيها عائداً من رحلته ، حاملاً إليها خبر انتقامه من مغتصب عفافها وسالب شرفها .

انتظرت طويلاً ولم يعد ذلك الأخ المحبوب ، فتسرّب القنوط إلى نفسها ، وفكرت فى الانتحار تخلصاً من حياتها التعسة

و بينما هى على هذه الحالة ، تتقاذفها الهواجس والشجون ، ينعشها الأمل تارة ، و يستولى عليها اليأس طوراً ، إذا بجندى فرنسى يقترب من المنزل ، و بصحبته ثلاثة رجال عرفت بينهم زينب الشيخ سليمان الفيومى صديق أخيها عبد الملك .

خفق قلب الفتاة وشعرت أن القادمين يحملون إليها خبراً ، فأسرعت إليهم ، وسألت الرجل الذى عرفت فيه صديق أخيها :

— عمن تبحثون ؟

— عنك يا زينب . . .

— ما وراءكم ؟

— ان هذا الجندى مكلف بإبلاغك خبراً مؤلماً ... ان أخاك ...

— عبد الملك . . ؟

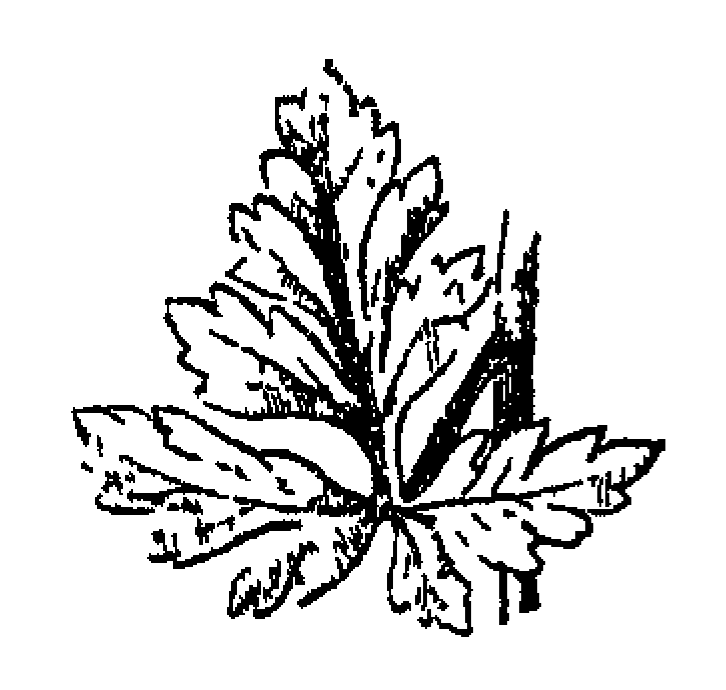
— عبد الملك . . . أعدم فى فرنسا !

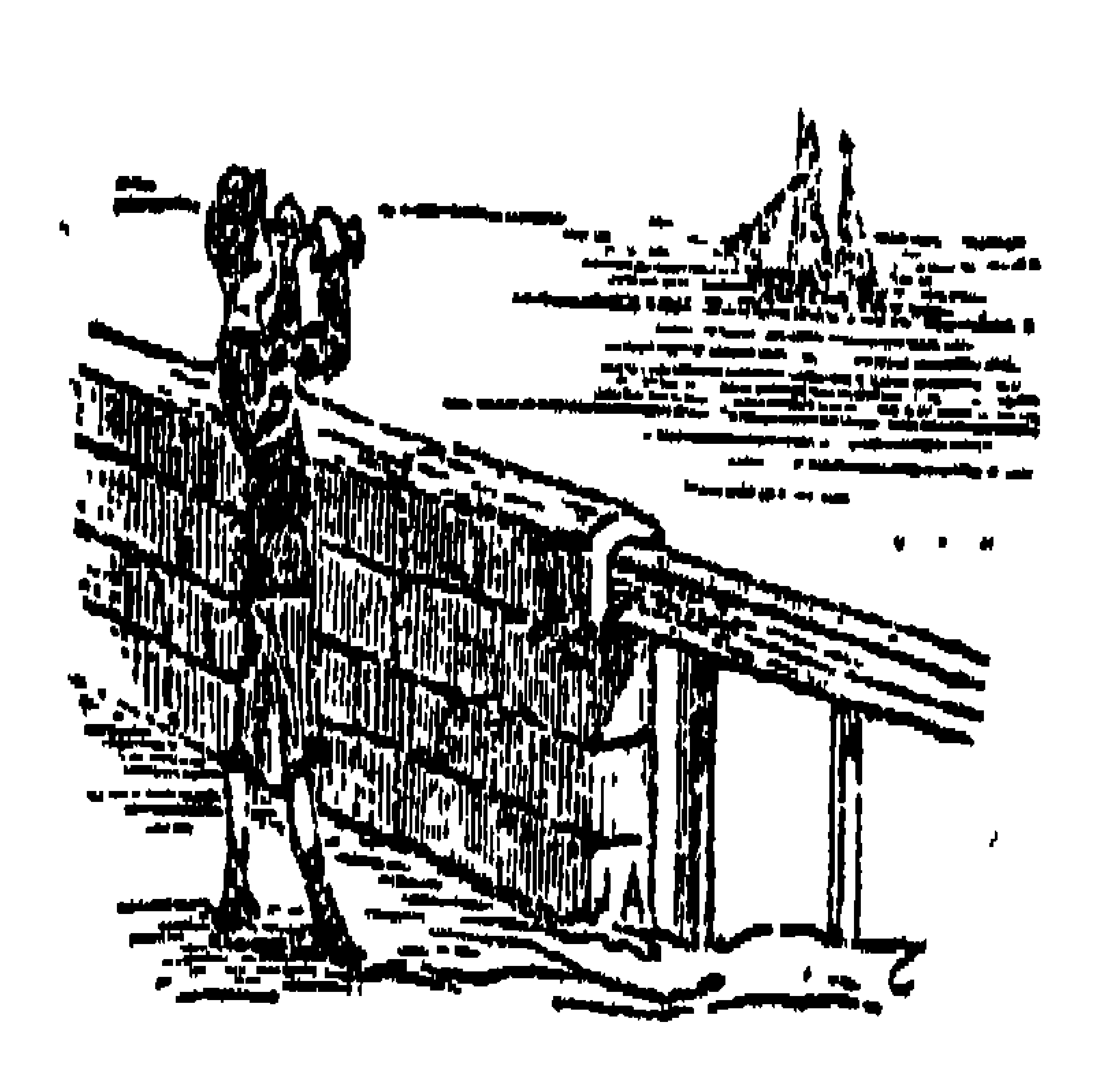
فصرخت الفتاة صرخة مفجعة ، وسقطت على الأرض مغشياً عليها . . .

* * *

وبعد يومين ، عثروا فى تلّ العقارب ، وفى نفس المكان الذى أحرق فيه أحمد الوالى ، على جثة فتاة ملقاة فى بقعة من الدم المتجمّد . وتبين من التحقيق أنها قطعت عرقاً فى مقدمة ذراعها ، فسالت دماؤها ، وفاضت روحها . . .

ودفنت زينب فى ذلك المنزل ، الذى شهد عارها ، وردّدت جدرانه صدى زفراتها ، وضمت أرضه رفاتها !





٨

من أبى الهول الى قوس النصر

— أماه ! . . أماه ! . .

— تشجع يا ولدى . فالموت كأس كلّ إنسان شاربه ، ان عاجلاً وان آجلاً ، فتذرّع بالصبر ، وتجلد أمام الشدائد . أما كانت أمك ، فى حياتها المضطربة ، مثالاً للتصبر والتجلد ؟

— ولكن أبى ؟ . . أين أبى ؟ . . من هو أبى ؟ أما آن الأوان لتمزيق ذلك الستر الذى يحجب عنى حقيقة أمرك ، ولمكاشفتى بالسرّ المدفون فى أعماق صدرك ؟ لقد طالما وعدتنى . . .

— وعدتك . . . وسأبرّ بوعدى . . . اسمع . . .

نهضت « عائشة » من فراشها ، وغالبت الألم ، وضمت ابنها « محمود » إلى صدرها ، وقصت عليه قصتها :

— ان الدم الذى يجرى فى عروقك يا بنىّ هو مزيج من الدم المصرى والدم الفرنسى . . .

— رباه ! . .

— لا تقاطعنى يا محمود ، ودعنى أقصّ عليك الفاجعة إلى النهاية ، ثم احكم بما تشاء ، وافعل ما يمليه عليك ضميرك ووجدانك . . . تعلم جيداً أن كثيرين من الضباط والجنود الفرنسيين ، الذين رافقوا القائد بونابرت إلى مصر ، وأقاموا فيها حكاماً وأسياداً ، قد حملتهم مصلحتهم الخاصة ومصلحة بلادهم على التظاهر باعتناق الاسلام ، لكى يكتسبوا بذلك عطف الشعب ، ويستميلوه إليهم ، ويحولوا دون نشوب ثورة تطردهم خارج مصر ، وتعيد هذه البلاد إلى أبنائها .

— اعلم ذلك ، واعلم أيضا أن كثيرين من المصريين قد أخذوا فى حبائلهم ، واعتقدوا فيهم الاخلاص فى اعتناق الاسلام ، فألقوا بناتهم بين أحضان أولئك الغزاة ، وكانت النتيجة . . .

— كانت النتيجة أن معظم من تظاهروا بالاسلام عادوا إلى وطنهم مع فلول الجيش الفرنسى كأنهم لم يرتبطوا برابطة ، ولم يقطعوا عهداً مع أحد فى هذه الديار ، فتركوا نساءهم ، وتركوا معهنّ ثمرات بطونهنّ ، وكانت أمك يا بنىّ إحدى تلك الضحايا البريئات !

— أماه ! . .

— نعم يا محمود . أنت ابن الضابط الفرنسى « مرسيه » ، الذى

اعتنق الاسلام وصاحب أبى « ابراهيم بك حامد » فرضى ذلك الأب المسكين المغرور، أن تصير ابنته زوجة للضابط « محمد مرسيه » فأذعنت للأمر ، وتزوجت ، و بعد سـنة من ذلك اليوم المشـئوم ، رأيت النور يابنى !

— و بعد ؟

— و بعد . . . دعنى أمرّ بسرعة على الحوادث المحزنة المبكية التى توالت علىّ : مات جدّك إبراهيم بك ، ودارت الدائرة على جيش الفرنسيين ، فرحلوا عن البلاد عائدين إلى أوطانهم ، وتركنى أبوك أندب حظى ، وأغسل وجهك الصغير بدموعى !

— يا للفظاعة ! . . لـكن ذلك الخائن . ؟ .

— إنه أبوك يا محمود !

— سأبحث عنه وأنتقم منه . . .

— لا . ابحث عنـه إذا شئت ، ولـكن ليس للانتقام منه . لو عثرت عليه أنا لأنزلت به العقاب الذى يستحقه . أما أنت فواجبك يقضى عليك بغير ذلك. المرأة تنتقم من الرجل الذى أغراها وخان عهدها. أما الابن فلا ينتقم من أبيه . لقد عشت شـقية تعسة ، وتجرّعت كؤوس البؤس حتى الثمالة ، لـكننى سعيدة بك يا ولدى . لقد بلغت السادسـة عشرة من سنيك ، وهأنا الآن ألفظ نفسى الأخير بين ذراعيك ، ملقية رأسى على كتفك ، وقد أنستنى هذه الساعة الأخيرة

جميع ما عانيته فى حياتى من آلام مبرحة . لتكن السعادة ملازمة لك يابنى بقدر ما كانت معرضة عن أمك !

— أماه ! . . أماه . . !

***

قضت عائشة نحبها . . .

أما محمود ، فسافر إلى باريس عاصمة الفرنسيين ، إذ قيل له ان مرسيه لايزال ضابطاً فى جيش الملك ، بعد أن خدم مدّة طويلة فى جيش الامبراطور .

تقرّب هناك إلى المعلم يعقوب القبطى ـ أو الجنرال يعقوب كما كانوا يسمونه ـ الذى رافق الفرنسيين إلى وطنهم ، وعلم بعد البحث أن أباه عين ملحقاً فى سفارة فرنسا بعاصمة النمسا ، فسافر إليها . . .

لكنّ أباه كان قد رحل عن فينا عائداً إلى باريس ، بينما كان محمود فى طريقه إلى النمسا !

ظلّ الشاب التائه أسبوعين فى فينا ، وقصّ قصته على الدوق دى رشتاد « النسر الصغير » ابن نابوليون الأول ، المنفى عن وطنه ...

كان الدوق الشاب بعيداً عن أبيه ، لايستطيع أن يذهب إليه ، فحسد محموداً المصرى على حريته . وقد قال له مرّة :

— إننى أقيم هنا فى قصر جدّى ، وفى كنف والدتى . لكننى أريد أن أرى أبى ، وأن أذرف دمعة واحدة وأنا ملتجىء إلى صدره !

هذا ماستحصل عليه أيها الغريب أما أنا ، فسأبقى فى سجنى المذهب ، فى قصر شنبرون !



النسر الصغير
ابن الامبراطور نابليون

فبكى محمود . وطبع قبلة على يد الأمير المريض !

☆ ☆

عاد إلى باريس . . . وهناك أخبره المعلم يعقوب القبطى أن الضابط

مرسيه سافر إلى تركيا فى مهمة سياسية ، وطلب إليه أن يقيم معه إلى أن يعود أبوه .

فقبل الشاب ضيافة مواطنه . . .

ومرّت السنون . . .

١٩ يوليو سنة ١٨٣٦ . . .

كان ذلك اليوم يوماً مشهوداً فى تاريخ فرنسا ، فتألبت الجماهير فى الشوارع والميادين ، للاشتراك فى الاحتفال برفع الستار عن « قوس النصر » ، الذى أمر نابوليون الأول بتشييده سنة ١٨٠٦ ، والذى لم يتمّ بناؤه إلا فى سنة ١٨٣٦ .

خرج محمود مع من خرجو لمشاهدة النصب العظيم، ووقف أمام ذلك القوس ، فهاجت فى صدره ذكريات الماضى ، وتصوّر أمام عينيه أبا الهول العظيم ، الرابض فى صحراء الجيزة ، وتخيل ماقصه عليه مواطنوه فى مصر من المعارك الهائلة التى دارت رحاها فى سفح الأهرام ، وتذكر أمه المسكينة ، التى خدعها ذلك الجندى الظافر ، ثم هجرها ، فانهمرت الدموع غزيرة من عينى محمود. وسمعه الناس يتمتم كلمات لم يفهمها أحد ... ذلك لأن الشاب كان يخاطب نفسه و يخاطبها بلغة بلاده وعشيرته !

— لقد ماتت أمى ودفنت معها حزنها . ومات يعقوب وكان صديقى الوحيد فى هذه الديار . ومات الدوق دى رشتاد منفياً وكان يعطف علىّ . أما أبى . . . أبى . . فكيف السبيل إلى الوصول إليه ؟

ولو صلت إليه فهل يحنّ قلبه عليّ ويضمنى إلى صدره ؟ .. لا لا . إنه سينبذنى كما نبذ أمى ! .

وفى وسط ذلك الازدحام الشديد، والهتاف المتواصل ، ودوىّ الطبول ، وأصوات الأبواق ، ارتفع صراخ من نوع آخر ، صراخ رعب ودهشة !

فأسرع الجنود المحافظون على النظام إلى موطن الجلبة ، فرأوا جماعة من المتفرجين يحيطون بجثة هامدة ، وقد سالت الدماء من جرح بليغ فى الصدر ، وتجمدت على نصل الخنجر الذى لجأ إليه محمود للقضاء على نفسه . . .

فحملوا جثته . . .

وظلّ القوم فى هرج ومرج . .





٩

على هيكل عشتروت

« أواه ! . . أواه ! . . أواه ! . . »

نهض الكاهن الأعظم « آرام » من فراسه مذعوراً على صوت ابنه ، وأسرع مهرولاً إلى حجرتها ، فاذا به أمام الفتاة وقد ألقت بنفسها على الأرض ، وجعلت تقبل بلاط الحجرة أمام تمثال عشتروت ، وتذرف الدموع وتقرع صدرها بيدها صائحة بأعلى صوتها :

— أواه . ! . أواه . ! . أواه . ! .

أخذ الكاهن ابنته المحبوبه بين ذراعيه ، وغمر رأسها بالقبلات ، وهي تصيح مرتعشة :

— رحماك يا ربة الحبّ والانتقام ! سأصنع ماتأمريني به !

جعل الكاهن يهدىء روع الفتاة سائلاً عما أصابها ، مستفهماً عن سبب ذعرها .

فقالت الفتاة « زامورات » لأبيها :

— أبتاه ! لقد أعددتنى زوجة لابن أخيك «حارام» النوتى ، ومنذ الساعة التى اتخذت فيها قرارك هذا لم يغمض لى جفن ولم أذق راحة ولم أهنأ بعيش ! أبتاه ! إننى لا أحبّ ابن عمى حارام ، ولا أريده زوجاً لى ، بل إن الآلهة التى نعبدها والتى تقوم أنت بخدمتها ، لن ترضى بهذا الزواج ولن تقرّه !

سكتت الفتاة لحظة ، وتنفست طويلاً ، ظناً منها أن الكاهن سيغضب وينزل بها نقمته . لكنه ظلّ صامتاً ينظر إليها بحنان ، فاستطردت قائلة :

— إنك خادم معبد عشتروت ورئيس كهنة فينيقيا فى معابد بيبلوس وهيا كلها ، وقد علمتنى أن أستشير ربتنا القديرة الجبارة فى كل أزمة نفسية تساورنى ، وكل ملمة تحدق بى !

وهنا قاطعها الكاهن قائلا :

— نعم يا ابنتى ! فان الربة عشتروت لخير مرشد نفزع إليه !

— أبتاه ! . . لقد عملت دائماً بوصيتك ، واتبعت نصائحك وإرشاداتك . وها قد مضت علىّ ثلاثة أيام بلياليها ، وأنا أرفع أكف الضراعة لعشتروت ، لكى يهبط على وحيها ، وتنزل على إرادتها ، وتغمرنى نعمتها ورحمتها !

فقاطع الكاهن ابنته ثانية سائلا :

— وهل أجابتك يا ابنتى ؟

— نعم. تجلت لى الربة المعبودة الليلة ، فى هالة من النور، تحف بها الكاهنات العذارى ، وسمعت صوتها يهيب بى قائلا : « زامورات ، لن تتخذى لك من أبناء قومك بعلا ، فاما أن تكونى للاسكندر المقدونى ، و إما أن تقدمى طهرك وعفافك ذبيحة على هيكلى فى صيدون الظافرة ! »

سكتت الفتاة ثانية ، ونظرت إلى أبيها ، فاذا به صامت لاينبس ! فقالت زامورات :

— هـذا ما قالته لى الربة عشتروت الليلة يا أبى . فهل تريدنى أن أكون لارادة عشتروت عاصية ، ومن واجب الطاعة لآلهتنا العظام مارقة !

أطرق الكاهن الأعظم لحظة ، ثمّ رفع رأسه وطبع قبلة حنان على جبين ابنته ، وقال :

— كلا يا ابنتى ! لن أريدك كما تقولين . فأنت منذ هذه اللحظة ملك للآلهة دون الناس. ادخلى المعبد ولاتخرجي منه إلاللقاء الاسكندر المقدونى ، الذى اختارته لك عشتروت زوجاً وسيداً . ! .

فقبلت الفتاة يد أبيها ، ثمّ استطردت قائلة :

— وقد ختمت الربة حديثها بهذه الكلمات يا أبى : « ستظلين فى هيكلى مقيمة ، إلى أن يأتيك الفاتح و يفك أسرك ، أو تموتى فى اليوم

الذى يقع فيه نظرك على جثة الاسكندر ، إذا قدرت الآلهة رحيله قبلك عن هذا العالم !

* * *

سنة ٣٣٢ قبل الميلاد . . .

عاد الاسكندر ، الفاتح المقدونى العظيم ، من ديار الهند إلى أرض مادى وفارس ، بعد أن أخضع لسلطانه الشعوب ، وشيد اثنى عشر هيكلا لآلهة اليونانيين ، وافتتح بحد السيف الممالك ، وانتزع التيجان عن هامات أصحابها . . .

وقرر أن يستريح الجيش الغازى سنة كاملة من التعب والعناء والحروب ، وجعل يرسم مع قواده المحنكين وأنصاره البواسل ، خطة العمل المقبل : لاخضاع البقية الباقية من الشرق، الذى كان يريده ملكا له دون سواه من الملوك والغزاة .

لكن العدوّ الوحيد الذى لم يكن فى الحسبان ، والذى لم يكن فى استطاعة الفاتح العظيم قهره ـ المرض ـ هاجم الاسكندر وطرحه على فراشه ضعيفاً ، لايقوى على صده ، ولا يعرف إلى دفعه سبيلا .

و بعد اثنى عشر يوما ، قضى الاسكندر نحبه ، بين أقطاب جيشه وأطبائه وحكمائه ومستشاريه ، وقد استولى عليهم الذهول، وانقضّ عليهم المصاب الفادح انقضاض الصاعقة .

وكان ذلك فى شهر يونيه من ذلك العام المشئوم !

مات الاسكندر المقدوني في الثالثة والثلاثين من عمره ، وكان جالساً على عرش أبيه فليبوس منذ ثلاث عشرة سنة .

وقبل أن تفارق روحه الجسد، صاعدة إلى عالم الخلود ومقرّ الآلهة ، جمع حوله الأخصاء والقربين ، وأفضى إليهم بإرادته الأخيرة :

« أريد أن تنقل جثتي إلى بيبلوس في فينيقيا ، وتغسل بماء نهر ادونيس المقدس ، وتعرض على أنظار الناس عشرة أيام في هياكل صيدون، ثم تنقل إلى مصر وتدفن في واحة آمون ، بجانب الاله ابي! »

*
* *

قضى أرباب الفنون والصنائع سنتين في أعداد الناووس والمركبة التي تنقله إلى مقره الأخير ، وتحرك الموكب في سنة ٣٣٤ قبل الميلاد ، سائراً من بابل إلى مصر ، بطريق فينيقيا و بلاد موآب .

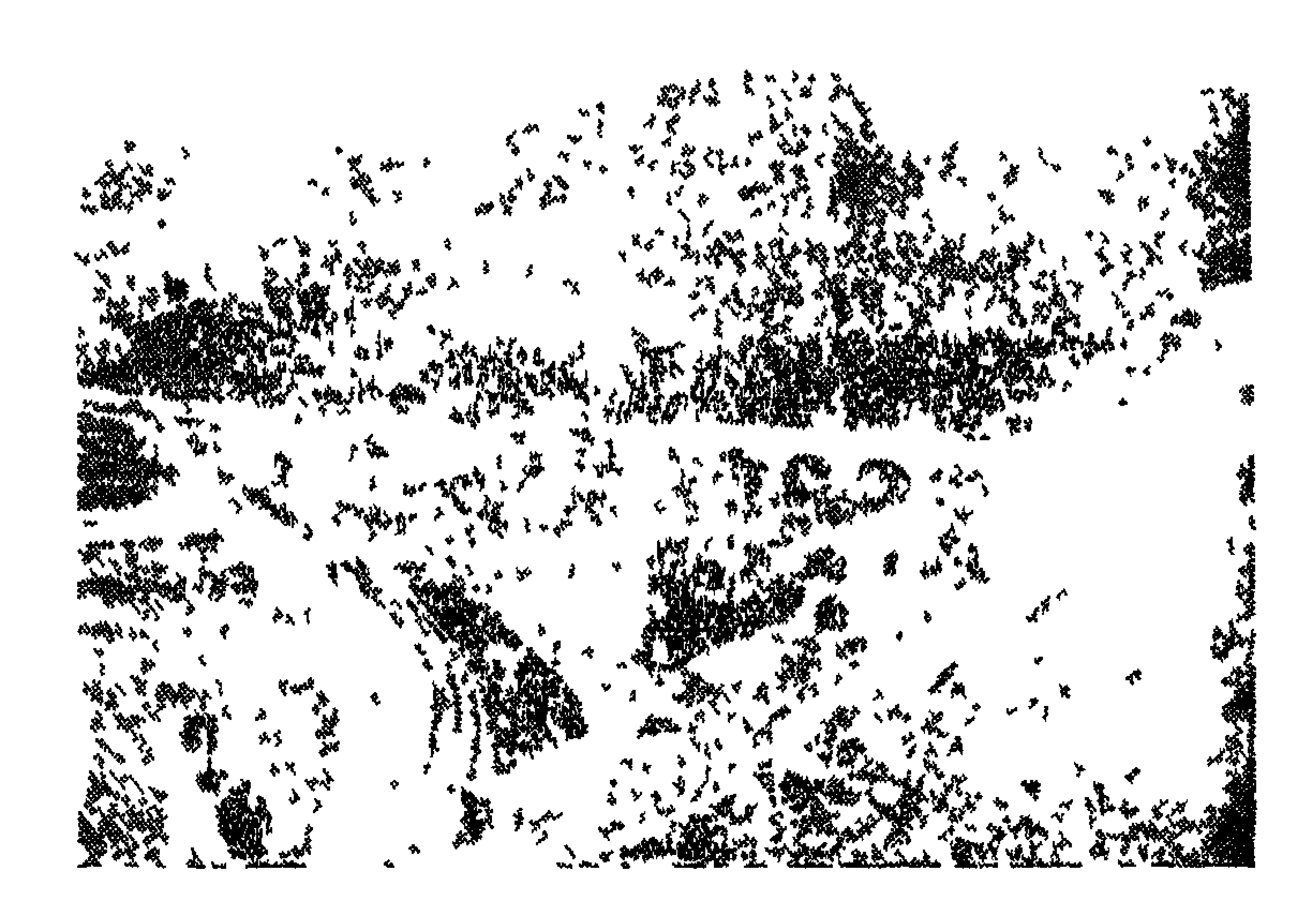
وكان يوماً مشهوداً ، ذلك اليوم الذي ارتفعت فيه أصوات الأبواق في فينيقيا ، تنبيء بأن جثة الاسكندر ، قاهر دارا وفاتح الهند ، قد اجتازت تخوم البلاد في مركبة يجرها أربعة وسبعون من الثيران القوية !

وتدفق السكان من الثغور والقرى والجبال ، لرؤية المشهد الرائع ، حاملين غصون الأرز مبللة بمياه نهري ادونيس وليقوس ، وجراراً مملوءة بتلك المياه ، وقد أخذت من منبع النهرين في بطن الجبل ، وأقاموا في طريقهم أعمدة من الصخور الصماء على قمم لبنان دلالة على حزنهم !

واجتازت المركبة الجبل في ظلال الأرز ، وغسلت الجثة في مياه النهر

المقدس ، وعرضت على الأنظار فى هيا كل عشتروت !

وكان بطليموس ملك مصر قد غادر وطنه على رأس جيش جرار ، لتسلم جثة الفاتح العظيم والسير بها إلى مدينة الاسكندر : الاسكندرية !



نهر الكلب بلبنان كما يبدو اليوم
وهو النهر الذى كان الأقدمون يسمونه « ليقوس »

وخرج كهنة الفينيقيين للقاء الموكب الحافل، فتجمعوا فى مدينة صور ، يحيط بهم عظماء البلاد وقوادها وزعماؤها و يتبعهم الشعب الحزين الباكى. وهجرت الكاهنات العذارى معابد تموز وعشتروت وملكارت .

وأسرعن مع الكهنة إلى تحية رفات الاسكندر . . .

وكانت زامورات بينهن ، تذرف الدموع وتصعد الزفرات !

*
* *

كان أمرها قد اشتهر بين الناس، فأطلق عليها أبوها الكاهن الأعظم اسم « حبيبة الاسكندر » فعرفت بهذه التسمية فى المعابد وخارجها . .

ظلت الفتاة خاضعة لإرادة عشتروت ، ربة الحب والانتقام ، التى حرمت عليها الزواج وأمرتها بان تحتفظ بنفسها للاسكندر المقدونى دون سواه من الرجال ، وألا تتخذ لها من بين أبناء قومها بعلا ، وأن تموت فى اليوم الذى يرحل فيه الفاتح عن هذا العالم ، إذا قدّرت الآلهة القوية الجبارة ذلك !

وكانت زامورات فى أثناء تلك المدة تصلى للآلهة ، وتحرق البخور على هيكل عشتروت ، وتخرج مع رفيقاتها الكاهنات العذارى إلى سفوح الجبال ، لجنى الأثمار ، وقطف الأزهار ، وجمع الرياحين لادونيس أو تموز كما كان الفينيقيون يسمونه ، فى الشهر الذى لايزال القوم إلى الآن يطلقون عليه اسم معبود بيبلوس « تموز » وهو الشهر السابع من السنة !

وكانت الفتاة ، قبل أن تجنح إلى فراشها وتلقى بنفسها فى أحضان إلهة الظلام ، تركع على ركبتيها ، وتقرع صدرها بيديها ، أمام تمثال الربة

عشتروت الرهيبة ، طالبة منها أن تقرب اليوم الذى تصبح فيه الفتاة زوجة للاسكندر، أو رهينة الموت على هيكل الالهة فى صيدون الظافرة !

وأجابتها عشتروت إلى سؤالها !

فها إن الاسكندر قد رحل إلى جوار أبيه آمون ، ونقلت جثته لكى تدفن فى أرض الفراعنة .

إذن ، ينبغى للفتاة، ابنة الكاهن الأعظم آرام ، حبيبة الاسكندر ، أن تلحق بحبيبها الذى لم يعرفها ، عملا بإرادة الالهة وتنفيذاً لمشيئتها . . .

وذلك فى اليوم الذى يقع فيه نظرها على جثة الفاتح ، العائد من فتوحاته نعش ذهبى تجره الثيران !

* * *

قال الكاهن الأعظم آرام لابنته :

— بنيتى ! أواثقة أنت من ذلك ؟ أتلك هى إرادة عشتروت التى لامرد لأمرها ؟ أم أنك واهمة ، فريسة حلم مزعج ووهم طائش ؟

فأجابت زامورات :

— أبتاه . ! . إن أمر الربة المعبودة كان واضحاً جلياً . وكانت إرادتها صريحة قاطعة. فالوداع إذن ! لقد وقع نظرى على جثة الاسكندر ، ورأيت النعش الذهبى الذى يضم رفاته الطاهرة ! تذرع بالشجاعة والصبر يا أبى ، ولا تترك للوهن والشك إلى نفسك منفذاً . أتكون كاهن عشتروت الأعظم ، وتتردد فى تنفيذ رغبة عشتروت ؟

قالت الفتاة ذلك ، وأخذت ذراع أبيها بيدها ، وصعدت معه درجات الهيكل ، حيث تقيم عشتروت وراء الحجب والمآزر المقدسة ...
وأشارت إلى الخنجر الذهبي ، المعدّ لنحر الذبائح على هيكل الآلهة . . .

لكن الكاهن تردّد وتراجع ، فما كان من الفتاة إلا أن تناولت بيدها ذلك الخنجر الذهبي ، وأمسكت به من نصله ، وقدمت قبضته المرصعة بالجواهر لأبيها الكاهن آرام .

وقالت زامورات ، بصوت متهدج :

— أسرع يا أبي ! ونفذ إرادة الآلهة !

وارتفعت فى أرجاء المعبد أصوات الكهنة والكاهنات ، تضرع إلى إلهة الدماء بأن تتقبّل الذبيحة الطاهرة ، وتبسط رواق رحمتها على المدن والحقول ، وتعيد إلى الموانىء سفن الفينيقيين من رحلاتها البعيدة ، وتأخذ بيد تجار اللؤلؤ والزجاج الضاربين فى طول الممالك وعرضها ، وفى مشارق الأرض ومغاربها ، وتردّ عن الأوطان غزو الغزاة وكيد الكائدين ، وتحلّ السعادة فى صدور الأفراد والجماعات ، وتبعث للعذارى بأزواج صالحين ، وللشبان الأقوياء بزوجات صالحات !

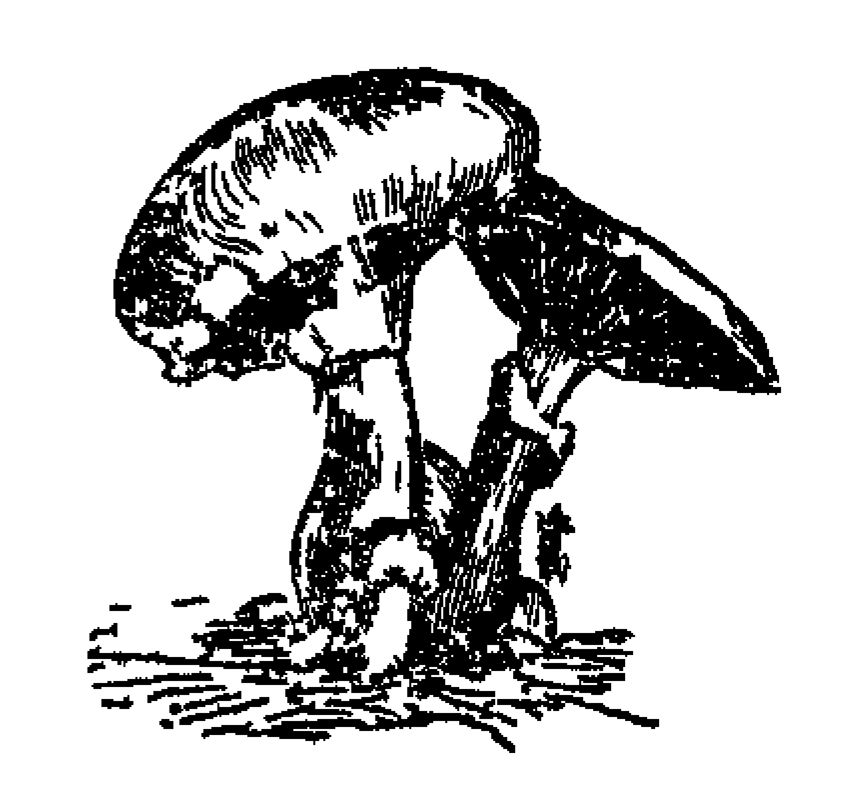
وفى وسط تلك الضوضاء رفع الكاهن الأعظم آرام ذراعه اليمنى ، فأخذت أعين الحاضرين وميض نصل يلمع فى قبضته . . .

لكنهم لم يسمعوا الصرخة المفجعة التى أرسلتها الفتاة زامورات

عند ما اخترق النصل الذهبي صدرها ، ومزّق ثديها ، واستقرّ فى قلبها ، لأن تلك الصرخة ضاعت بين أصوات المصلين وضجيج الهاتفين !

***

هكذا ماتت زامورات الفينيقية ، حبيبة الاسكندر ، بيد أبيها الكاهن الأعظم آرام ، فى هيكل عشتروت المعبودة الجبارة ، المتعطشة إلى الدماء ، فى مدينة صيدون الظافرة ، فى سنة ٣٣١ قبل الميلاد ، عملاً بارادة الآلهة وتنفيذاً لمشيئتها !



١٠

جلبا الافريقى

جلس « جلبا الافريقى » مع زوجته اليونانية الحسناء « نيرا » على شاطىء النهر ، فى ظلال شجرة كثيفة الأغصان ، خارج أسوار روما ، وجعلا يتجاذبان أطراف الحديث ، ويتبادلان نجوى الغرام ، ويتناولان قبلات الاخلاص الحارّة العذبة .

وقال جلبا لزوجته المحبوبة :

— أى نيرا ، عزيزتى التى أفديها بدمى . لنرفع الآن أكف الضراعة للآلهة القديرة ، طالبين منها أن ترعى حبنا بعنايتها ، وتدفع عنا الأذى ، وتجعلنا فى مأمن من كيد الكائدين وأعين الحساد الغادرين !

فأجابت نيرا ، مطوّقة بذراعيها عنق زوجها المحبوب :

— أى جلبا ، عزيزى ! إننى أفعل ذلك كل يوم ، عند ماتغادرنى إلى قصر الامبراطور للقيام بعملك . فانى أصلى دائماً وأبتهل إلى الآلهة

لكى تجعل جميع أيامك حافلة بالسعادة والهناء ، وتحفظ لك على الدوام عطف الامبراطور ورضاه . فلو حدث لك سوء أيها الحبيب لمت من الأسى !

فتعانق الزوجان طويلا ، وقال جلبا لنيرا الحسناء :

— إننى واثق من عطف الامبراطور نيرون علىّ يا حبيبتى . فقد كنت فى قصره عبداً رقيقاً ، لكننى أخلصت له الخدمة وأنقذت حياته فى الحروب ، فكافأنى بذلك العطف الذى يحسدنى عليه رجال القصر جميعاً ، وأعتقنى فأصبحت الآن حراً طليقاً ، ولا يسعنى إلا أن أحفظ للامبراطور جميل الذكرى ، لأنه حطم بيديه وبإرادته سلاسل الرقّ وقيود العبودية التى كانت تغلّ عنقى وتذله ! ولم أتقدّم إليك يا نيرا طالباً منك أن ترضى بى زوجاً لك إلا بعد أن أصبحت حراً، وزال عنى ذلك العار الشنيع ! لم أولد عبداً يانيرا. وإنما ولدت من أبوين حرين، كانا فى الصحارى الافريقية يبسطان سلطانهما على القبائل الضاربة فيها. ولكن روما بلغ بها الطمع إلى الاستيلاء على تلك المجاهل ، فهزمت جيوشها قبائل أبى فى الميادين ، وكنت فى العشرين من سنى حياتى ، فجىء بى إلى هذه المدينة الكبيرة ، وألحقت بالعبيد الراسفين فى قيود الذل ، فى قصر نيرون العظيم .

— إننى أعرف ذلك كله يا حبيبى ، ولا أعيّرك بأصلك ، فأنت

الشريف ابن الشريف ، وعواطفك النبيلة تدلّ على أنك بين الرجال أصيل وابن أصيل !

— كنت أتألم من العبودية يا نيرا ، إلى أن سنحت لى الظروف والفرص ، فأثبت للامبراطور أنني فى الحروب جندى شجاع ، وأن ذراعى أجدر بحمل السيف منها بتقديم أقداح الخمور للشاربين ، فى حفلات السمر واللهو التى يحييها الامبراطور فى قصره . فقد وثبت فى وسط القتال على جندى كان يهدد صدر نيرون بسنان رمحه ، وبضربة واحدة فصلت رأسه عن جسده ، وأنقذت حياة الرجل الذى أفقدنى أبى وأمى ووطنى وحرّيتى ! وقد أراد نيرون أن يكافئنى فأطلقنى من الأسر والعبودية . لكننى بقيت فى القصر مقيما، وقد عهد إلىّ الامبراطور بمراقبة حرسه الخاصّ ، والإشراف على الأعمال التى يقوم بها العبيد فى القصر الامبراطورى . فأنت الآن زوجة ضابط فى خدمة نيرون !

*
* *

كان جلبا الافريقى — كما كانوا يسمونه فى روما — فى الثلاثين من عمره ، عند ما تزوّج الفتاة نيرا اليونانية ، وكانت نيرا تقيم فى قصر القائد لوكولوس ، الذى تبناها عند مابلغه أنها فقدت أباها الذى كان يحبه ويخلص له الودّ ، ولم يتردد لوكولوس فى الموافقة على زواج الشابين

عند ماثبت له أن نيرون قد أطلق للعبد جلبا حرّيته ، فأصبح إنساناً كبقية البشر !

وكان ذلك سنة ٦٧ للميلاد ، أي فى السنة الثالثة عشرة لارتقاء نيرون أريكة الامبراطورية . فقد ظلّ الشاب الافريقى عشر سنوات كاملة يعيش عيشة العبيد فى القصر الامبراطورى ، ويعامل معاملتهم ، ويتحمل احتقار الناس وإهاناتهم !

وظنّ منذ ذلك الوقت الذى أصبح فيه حراً وزوج امرأة حرة ، أن أيام البؤس قد ولت ، وأن الغد يخبىء له السعادة ويضمر له الهناء .

لكن جلبا الافريقى كان مخطئاً . فان الأقدار كانت تحمل إليه فى طياتها آخر حلقة من مصائبه !

فقد ذهب جلبا ، بعد ذلك الحديث الذى دار بينه وبين زوجته ، إلى منزله حيث ودع نيرا الجميلة ، وأسرع إلى القصر الامبراطورى فمثل بين يدى نيرون ، وأفضى إليه بالخبر السارّ ، خبر زواجه باليونانية الحسناء !

وما انتهى جلبا من كلامه ، حتى تطاير الشرر من عينى نيرون ، وصاح به قائلا :

— أية امرأة تعنى ياجلبا ؟ أتحدثنى عن نيرا ، ربيبة لوكولوس القائد الشجاع المحنك ؟

— نعم يا مولاى ، هى بعينها !

فسكت نيرون لحظة ، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة ، لم يدرك جلبا الافريقى الطيب القلب معناها ، وقال :

— إننى مرتاح لذلك يا جلبا . فاحمل إلى زوجتك تحية الامبراطور الذى يحبك و يعطف عليك . وقد أجد فى مستقبل الأيام فرصة أثبت لك فيها أن عطفى يمتد أيضاً إلى زوجتك وأبنائك ، إذا رزقت فى الغد أبناء . . .

فانكب جلبا على يد الامبراطور العظيم يقبلها و يقول :

— إنه لشرف عظيم يا مولاى تغدقه علىّ . فحياتى ملك لك . وسأكون سعيداً بأن أضحيها فى سبيلك !

***

عاد جلبا إلى منزله ، مشياً على قدميه ، ولكنه قبل أن يصل إليه أدرك أن حادثاً قد حدث فى الحىّ الذى يقطن فيه ، وحدثته نفسه بأنه وزوجته ليسا غريبين عن ذلك الحادث . . .

سمع امرأة تنادى جارتها من نافذة بيتها ، وتقول لها إن الجنود اقتحموا المنزل فى الوقت الذى كان فيه الزوج غائباً ، واختطفوا الزوجة وحملوها فى مركبة وولوا هاربين .

وقالت الجارة إن زوجها قد قصّ عليها ما حدث ، وإن المرأة التى اختطفها الجند « يونانية » مشهورة بجمالها ، وإن زوجها من رجال القصر الامبراطورى !

لم يكن فى الحىّ من رجال القصر غير جلبا ، ولم يكن فيه رجل سواه ، زوجته « يونانية مشهورة بجمالها . . . »

صعق المسكين مما سمعه ، وأسرع فأدرك منزله وقد أحاط به الجيران وجعلوا يوجهون أسئلتهم إلى الخادمة العجوز ، مستفهمين منها عما حدث .

وشقّ جلبا صفوفهم كالمجنون ، فاذا به أمام الخادمة وقد مزقت ثوبها ، وأرخت شعرها ، وانطرحت على الأرض تبكى وتلطم خديها ، نادبة حظها وحظ سيدها .

وعلم منها أن عشرة جنود اقتحموا المنزل قبل قدومه بوقت وجيز ، وحملوا نيرا معهم ، غير مبالين بصياحها ، وذهبوا بها إلى جهة غير معلومة.

فثار ثائر جلبا الافريقى ، وأدرك فى تلك اللحظة معنى الابتسامة التى طافت على شفتى نيرون عند ماحدّثه عن زواجه بنيرا اليونانية الحسناء ، ولم يشك فى أن الامبراطور المتعطش إلى الدماء والاعراض ، قد دبر له هذه المكيدة ، وأنه هو المحرض على اختطاف زوجته ، وأن الجنود الذين اقتحموا منزله إنما يعملون لحساب نيرون .

صعد الدم إلى رأسه ، فالتفت إلى الذين كانوا حوله من سكان الحى وصاح قائلا :

— أيها الناس ! كونوا علىّ شهوداً ! أقسم بالنار التى يعبد أبناء قومى ألسنة لهيبها المتصاعدة ، أننى لن أعود إلى هذا المنزل حياً ! لقد

حرمنى نيرون أبى وأمى ووطنى وحرّيتى، ويريد الآن أن يحرمنى زوجتى بعـد أن يدنسها بعاره ، ولـكننى لن أسمح له بذلك ولن أترك جريمة كهذه تقترف ، وعاراً كهذا يلطخ اسمى ، وفى عروقى نقطة من الدماء تجرى ! إن لم يمت نيرون ، فستموت نيرا ويلحق بها جلبا الافريقى !

حاول الناس أن يهدئوا من ثورته ، لـكنه اقتحم صفوفهـم من جديد وشقّ لنفسه طريقاً بينهم ، وراح يعـدو إلى الأمام كمن به مسّ من الجنون !

* * *

وصل جلبا إلى رتاج القصر الخارجي واندفع إلى الداخل وهو يرغى ويزبد، ولم يعترضه أحد من الحرّاس لأنهم كانوا يعرفون مقامه ووظيفته فى البلاط ، وظلّ الرجل سائراً أمامه، مسرعاً إلى الجناح الذى كان يعرف أن زبانية الامبراطور يحملون إليـه النساء اللواتى يثرن شهوة ذلك النمر البشرى !

وعند ما وصل إلى باب البهو الـكبير ، المؤدّى إلى ذلك الجناح ، وقف مصعوقاً فى مكانه لهول المنظر الذى وقعت عليه عيناه .

رأى جلبا ــ ويا لهول ما رأى ! ــ رأى زوجته المحبوبة نيرا ، جثة هامدة ملقاة فى مدخل البهو الـكبير ، لا حراك فيها ، وقد علا وجهها شحوب الموت ، وأحاط بها جماعة من ضـباط القصر ، أى من زملائه فى الخدمة ، ورفاقه فى السهر على راحة الامبراطور !

وتقدّم منه أحدهم ، ووضع يده بلطف على كتفه، وقال له بصوت مضطرب ، والحزن باد على وجهه :

— جلبا . ! . إننا جميعاً نحمل لك فى صدورنا الودّ والاخلاص والمحبة ! إن مصيبتك عظيمة بفقد زوجتك . لـكنها مصيبة لم تلطخ بالعار ، ولم يلحق بك من أجلها شـنار ! لقد أراد الامبراطور بك و بزوجتك سوءاً ، لـكن زوجتك أنقذتك وأنقذت نفسها من العار ، فآثرت الرحيل عن هذا العالم طاهرة الذيل نقية الجسم مرتاحة الضمير . لقـد خنقت نفسها بشعر رأسها . ! . فاذا كنا نعزّيك أيها الصـديق لموت زوجتك ، فاننا فى آن واحد نهنئك على تلك الميتة الشريفة !

لم يردّ جلبا على هذا الخطاب ، بل ظلّ واقفاً فى مكانه ، صامتاً ، والدمع منحبس فى عينيه يخنق أنفاسه ، و يضاعف فى ألمه .

ثمّ تحرّك . . . ومشى . . . وألقى بنفسه على جثة المحبو بة المخلصة الطاهرة ، وحينذاك انهمرت الدموع من عينيه كالمطر المدرار ، وارتفعت زفراته فى ذلك البهو ، فاستدرّت دموع رفاقه وزملائه ، فوقفوا ينظرون إليه صامتين خاشعين !

و بينما هم كذلك ، إذا بصوت قاصف كالرّعد يدوى فى أرجاء المـكان صائحاً :

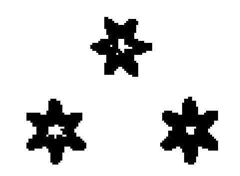
— اقتلوا الزوج ليلحق بزوجته اللعينة ! أين جلبا الافريقى ،

العبد الذى أعتقته وأطلقته من الأسر والرّق ، فجاء الآن يمانعني عرضه ويمسك عنى زوجته !

فنهض جلبا عند سماعه ذلك الصوت الداوى ، وصاح بالامبراطور قائلا :

ــ ألا لعنة الآلهة عليك يا أفظع الرجال وأقساهم ! أبعد أن قتلت أخاك وأمك وزوجتك ينتظر منك أن تكون أكثر رفقاً بزوجات رعاياك وأمهاتهم وأخواتهم ؟ سألحق بزوجتى يا نيرون ، واعلم أن الظلم عاقبته وخيمة ، وأن القاتل سوف يسقط ، إن عاجلا وان آجلا ، تحت طعنات القتلة المنتقمين !

واستلّ جلبا الافريقى خنجره ، وأغمد نصله فى صدره ، فسقط على جثة زوجته ، وامتزجت دماؤهما ، وراحا شهيدين ضحيتين !



و بعد سنة من ذلك اليوم ، ثارت الامبراطورية الرومانية على نيرون ، فختم ذلك الطاغية حياته منتحراً ، على مقربة من روما ، بعد أن فرّ منها، ورأى أعداءه يستولون عليها ، و ينادون فيها بغيره امبراطوراً على الرومانيين .

وكان ذلك فى سنة ٦٨ للميلاد .



١١

حارس نيرون

— النار . . . النار . . . النار . ! .

كلمة ردّدتها آلاف الأفواه ، فتصاعدت من كل ناحية فى روما ، وتناولها الصدى فنقلها من شارع إلى شارع ومن حىّ إلى حىّ ، وما هى إلا ثلاث ساعات حتى كانت المدينة تموج بجماهير الهار بين المذعورين ، كل يحاول أن يفوز بحياته ، بينما ألسنة النيران تندلع فى المنازل والهياكل ، وترتفع فى الفضاء ، وسط سحاب كثيف من الدخان القاتم . .

وعلا الصياح والبكاء والعويل ، وعمت المدينة قعقعة مخيفة ، وانهارت سقوف البيوت على سكانها ، وأعمدة المعابد على الكهنة والمصلين !

وخرج نيرون ، الامبراطور العظيم ، فى موكب حافل من حملة

المشاعل ، وحرّاس القصر ، وجعل يطوف فى روما و بيده قيثارته المحبوبة ، يعزف عليها ألحاناً شجية على ضوء النيران !

وكان ذلك فى سنة ٦٤ للميلاد ، وهى السنة الحادية عشرة لحكم نيرون .

وعاد الامبراطور إلى القصر ، بعد أن التهمت النيران المدينة الجميلة ، وألقى القيثارة من يده، وجلس على مقعد وثير حاكته له أيدى العاملات الفينيقيات من الأطلس الأحمر ، وقال لرجال حاشيته :

— لقد احترقت المدينة اليوم ، وسيحفظ التاريخ هـذا اليوم فى سجلاته ، لـكننى سأشيد على أنقاض روما المحترقة مدينة جديدة ، تنسيكم ما كانت عليه المدينة القديمة من عظمة وجمال !

***

فنيرون يعرف الآن فى التاريخ بأنه حارق روما ، والتاريخ يظهره بمظهر الطاغية الجبار العنيد ، المتعطش دائماً إلى الدماء ، الغارق فيها إلى رأسه .

ولا شك فى أن شخصية ذلك الامبراطور من أغرب الشخصيات التى حدثنا عنها المؤرّخون ، إن لم تـكن أغرب شخصية عرفها الناس إلى الآن .

كان نيرون مجموعة رجال فى رجل واحد ، وفى أعماله من المتناقضات مايجعل العقل يقف أمامه حائراً ، لايدرى أىّ حكم يصدر عليه .

كان محباً ومبغضاً ، ومحبو باً وبغيضاً . وكان رقيق الشعور وقاسى الفؤاد . وكان مصلحاً ومخرباً ، وشاعراً وعدوّ الشعراء ، وموسيقياً يضطهد الموسيقيين ، وقد أعدم منهم كثيرين . وكان يعمل لمجد روما ومن ناحية أخرى يسعى إلى تدميرها وتخريبها .

ذلك هو نيرون الذى كان يعزف على القيثارة و ينشد الأناشيد بينما عاصمة ملكه تذهب طعمة للنيران .

ذلك هو الامبراطور الذى كانت حياته سلسلة فظائع ومنكرات ، والذى لم يصنع الخير فى مدى تلك الحياة غير مرّة واحدة كما سترى .

***

جلس نيرون على مقعده الوثير ، ودعا رجاله إلى الجلوس حوله ، و بعد أن اكتمل عقدهم ، نادى الامبراطور عبيده وخدمه ، وأمرهم بأن يديروا كؤوس الخمر على الحاضرين .

وكان بين الخدم رجل يونانى هرب من دار سيده فى أثينا ، واحتمى بقصر الامبراطور الرومانى ، فجعله حارساً على مستودع الخمور ورئيساً على العبيد الذين يخدمون الضيوف فى الأعياد والحفلات والولائم .

واسم ذلك الرجل ديوموس . . .

نادى نيرون عبيده قائلا :

— صبوا الخمر فى الكؤوس وأديروها على الحاضرين ، فان هذا

اليوم من أبهج أيام ملكى ، ويجب أن نسكر بنشوة الخمر بعد أن سكرنا بمنظر النيران !

وأديرت الكؤوس حسب رغبة الامبراطور ، لكن ديوموس كان فى ذلك الوقت خارج القاعة التى أقيمت فيها الحفلة ، فالتفت نيرون بعد أن لعبت الخمر فى رأسه وصاح :

— لا أرى ديوموس بينكم ! فأين هو ؟

— فى أقبية القصر أيها المولى ، يراقب العبيد وهم يحملون الخمر إلى هنا . . .

فغضب الامبراطور ، والتفت إلى قوّاد جيشه الواقفين بالباب وقال:

— لقد أمرت ديوموس بأن يصبّ لى الخمر فى الولائم بيده . فماذا حدث اليوم ؟ ولماذا يختبىء ذلك اليونانى اللعين ! علىّ به فى الحال !

فجىء بديوموس ، وألقى اليونانى المسكين نفسه على قدمى نيرون ، وطلب العفو قائلا إنه لم يبطىء فى المجىء لخدمة الامبراطور إلا لأن وجوده كان ضرورياً فى أقبية القصر .

لكن نيرون لم يصغ إليه ، بل رفع صولجانه بيده وضرب به رأس اليونانى ضربة شديدة أسالت منه الدماء وألقته على الأرض فاقد الرشد .

وأمر نيرون بأن يشدّ وثاقه ويطرح جانباً إلى أن تنتهى الوليمة .

وبعد أن شرب الجميع وأصبحوا فى حالة سكر شديد ، صاح نيرون :

— عليّ باليونانى ديوموس !

ونادى السياف وأمره بأن يقطع يدى اليونانى المسكين ، فنفذ السياف الأمر بين صياح المدعوين وقهقهتهم وهتافهم !

***

— أتتألم كثيراً يا أخى ؟

— نعم ! ولهذا السبب رجوتك أن تجهز عليّ لكى تريحنى من هذا العذاب الشديد !

— لكننى لن أجيبك إلى رغبتك ، بل أعتقد أن واجبى يقضى عليّ بعكس ذلك ، وكما أن الحرّ للحرّ فى الملمات ، فان العبد للعبد أيضاً ، والخادم للخادم ، فى السرّاء والضرّاء .

رفض زميل ديوموس ، العبد الافريقى « جازيبا » أن يجهز على اليونانى الذى قطعت يداه بأمر نيرون ، فنقله إلى ناحية نائية من القصر ، وجعل يعالج جراحه ، ويعيد الثقة والأمل إلى نفسه ، وما مضت أسابيع معدودة على ذلك اليوم ، حتى كان ديوموس قد شفى من جراحه واستعاد قواه ، وعقد النية على البقاء حياً ، وعلى الاستعاضة عن يديه بقدميه !

وجعل يدرب نفسه على الأعمال « اليدوية » جميعها ، ويستخدم « قدميه » للقيام بها وبعد شهور أصبح ديوموس قادراً على تناول

طعامه وشرابه ، ومساعدة رفيقه وصديقه ومنقذه ، فى الأعمال التى كان يقوم بها فى قصر الامبراطور .

وشاءت الظروف أن تضع وجهاً لوجه مرّة أخرى الجلاد وضحيته !



الامبراطور الرومانى نيرون

فان الامبراطور نيرون كان يطوف من وقت إلى آخر فى أنحاء القصر، لتفقد أحواله بنفسه دون أن يعلم به أحد . وحدث ذات يوم أن كان ماراً فى الجناح المخصص للخدم والعبيد ، فوقع نظره على ديوموس وهو ينظف آنية الطعام بقدميه بمهارة فائقة .

وقف نيرون أمام ذلك الرجل مندهشاً مستغرباً ، وكان قد نسى خادمه المسكين وما صنعه به فى تلك الوليمة ، فعاد أدراجه إلى مخدعه ،

وأرسل فى طلب رئيس الحراس ، وسأله من يكون ذلك الخادم الذى يستخدم قدميه بدلا من يديه ؟

فقال رئيس الحراس :

— هو خادمكم ديوموس اليونانى يا مولاى . فقد أمرتم بقطع يديه على مرأى من المعدوين ، بعد حريق روما ، فأنقذه رفاقه من الموت ، وهو لايزال إلى الآن يقوم بوظيفته فى القصر بأمانة و إخلاص .

فبدا التأثر على وجه نيرون ، وأرسل فى طلب ديوموس اليونانى فجىء به ، وعند ما مثل بين يدى الامبراطور ، قال نيرون :

— لقد أسأت إليك يا أخى إساءة عظيمة . فأرجو منك أن تغفر لى تلك الإساءة .

وتلك هى المرّة الأولى التى وقف فيها نيرون مستغفراً طالباً الصفح !

فانطرح الرجل على الأرض وجعل يقبل قدم الامبراطور قائلا :

— إننى ملك لك يا مولاى فاصنع بى ما تشاء !

— أنت منذ الآن حارس من حراس هـذا القصر . فقف بالباب وكن حراً طليقا !

وعرف ديوموس منذ ذلك اليوم باسم « حارس نيرون » وقد أغدق عليه الامبراطور العطايا والهبات ، وقربه إليه ، وأمر عبيده بأن يقوموا بخدمته ، و بألا يرفض له طلب فى القصر الامبراطورى .

* * *

عاش ديوموس « حارس نيرون » بعد ذلك فى القصر معزّزاً مكرّماً ، وجعل يدرّب قدميه على أعمال دقيقة ، كالرسم والتطريز ونحت التماثيل وصناعة الأسلحة والخزف . واشتهر فى روما ، وصنع تمثالا لنيرون وضعه الامبراطور فى حجرة نومه ، وظلّ فيها إلى أن حطمه أعداء نيرون بعد موته ، فى سنة ٦٨ للميلاد .

ولم يطرد ديوموس من القصر بعد موت سيده ، بل بقى فيه حراً طليقاً ، يقيم فى غرفة خاصة ، وتحت تصرّفه ثلاثة من العبيد يقومون بخدمته .

ومات فى سنة ٧٧ للميلاد ، تاركا بعده شهرة واسعة ، وآثاراً فنية قيمة ، ودوّن اُسمه فى التاريخ بجانب اسم سيده ، الذى كان فى آن معاً سبب شقائه ونعيمه ، والذى لولاه لما أصبح ديوموس ذلك الفنان الذى صنع التماثيل . وأدهش الناس ببراعته ونبوغه ، والذى أثبت أن الهمة القعساء تذلل الصعاب أياً كانت ، وأن الرجل إذا اعتصم بالصبر والارادة الثابتة ، تمكن من الاستعاضة عن يديه بقدميه !



١٢

جنكيز خان ينتقم

وصل الفاتح التترى المخيف جنكيز خان بجيوشه الجرّارة إلى مدينة « بخارا » وأقام عليها الحصار من الجهات الأربع ، وأوفد إلى أعيانها رسولا يقول :

— إن مولاى جنكيز خان «سيف الله المسلط على رءوس البشر» يقول لكم : « لقد ابتلاكم الله به لأنكم أفسدتم وتماديتم فى الضلال ، وماجاء إليكم إلا لكى يطهر الأرض من الفسق والفجور ويحارب الشرّ بالشرّ . فابعثوا إليه مفاتيح مدينتكم ، وأقسموا له يمين الطاعة والخضوع لئلا يحلّ بكم ماحلّ بغيركم من الناس ! »

وكان فى المدينة عشرون ألفاً من الجنود المسلمين عقدوا النية على المقاومة والدفاع ، وصد الغزاة الفاتحين ، ودفع البلاء المستطير عن أنفسهم وأبنائهم وذويهم .

فطردوا الرسول واستعدّوا للقتال ، وعلت فى فضاء بخارا المنيعة أصوات المقاتلين، وتصاعد تهليلهم وتكبيرهم ، منبعثاً من أعماق الصدور :
« الله أكبر ! الله أكبر ! »

ودوّن السلطان محمد ورجاله الأشاوس المغاوير ، فى ذلك اليوم العظيم ، صفحة من أمجد الصفحات فى تاريخ الإسلام . . . . فقاتلوا المهاجمين قتال الأبطال ، واستبسلوا فى دفاعهم مستميتين . .

لكن المثل يقول ـ من قديم الزمان ـ إن الكثرة تغلب الشجاعة و إن عشرة أطفال عزل يقهرون كمياً شاكى السلاح !

تغلبت الكثرة على الشجاعة فى تلك المعركة الدموية ، فدخل جنكيز خان المدينة فائزاً منصوراً ، وأمر جنوده بذبح السكان شيوخاً ونساء وكهولا وأطفالا . . .

لكنه حذرهم من قتل الشبان وطلب إليهم أن يأتوا بهم إلى معسكره مصفدين بالأغلال .

تلك كانت خطته فى جمع العساكر لجيشه العظيم ، فإنه كان يذبح سكان البلاد التى يجتاحها ولا يعفو إلا عن الشبان لكى ينضموا إلى رجاله و يلحقوا بجيشه الظافر .

وهذا ما أمر زبانيته بصنعه فى بخارا ، فاضرمت فيها النيران ، وسالت الدماء ، وغادرها الفاتح التترى خراباً يباباً ، سائقاً معه ماتبقى من سكانها ، أى خمسة آلاف من الشبان الأشداء !

وكان ذلك فى سنة ٦١٧ هجرية ، الموافقة لسنة ١٢٢٠ للميلاد . . .

وفى الساعة التى كان جنكيز خان يستعدّ فيها للرحيل ، بعد أن شاهد من أعلى الربوات المحيطة بالمدينة ، الدخان يتصاعد من خرائبها وأطلالها ، اقترب منه قائد من قواده وقال :

— مولاى ملك الملوك ! لقد أمرتنا بذبح النساء جميعاً ، لكننى عفوت عن إحداهن وجئت بها إليك ، لأننى أعتقد أنك لاترضى لها بالموت كغيرها ، وأنك ستأمر بتعذيبها والتنكيل بها .

فالتفت إليه جنكيز خان مقطب الجبين وقال بصوت أجش :

— من هى تلك المرأة وماذا صنعت ؟

فأجاب القائد :

— أما من تكون فهذا ما أجهله . لكننى أعلم أنها قاتلت رجالنا قتال اللبؤة الهائجة الثائرة ! فقد كانت تلك المرأة معتصمة مع زوجها فى منزل قديم متهدم ، فتمكنت من قتل ثلاثين من جنودك يا مولاى قبل أن تصل إليها أيدينا ، وقد ذبحنا بعلها على مرأى منها وسقناها إليك صاغرة ذليلة !

— علىّ بها !

⁂

جاءوا بالمرأة ، وما وقع عليها نظر جنكيز خان حتى انتفض فى مكانه صائحاً :

— هالون ! هالون ! ألا لعنة الله عليك يا ابنة اللئام ! إنك تنفذين هنا ما أقسمت به هناك ، وتبرين باليمين التى قطعتها على نفسك فى بلادنا !

ثم اقترب من المرأة التى ظلت جامدة فى مكانها ، لاتنطق بكلمة . فصفعها بيديه على خديها ، وقال :

— سوف أنزل بك العقاب الذى تستحقينه !

***

وعادت الذاكرة بالفاتح التترى إلى أيام الصبا وعهد الشباب ، ومرّت فى مخيلته حياته الماضية .

كان أبوه أميراً على قبيلة من قبائل التتار فى شمال الصين ، فمات عنه وهو صغير ، وتحالف عليه أهله وذووه وأمراء القبائل الأخر ، لكى ينتزعوا منه السلطة ويوردوه موارد الهلاك . لكن أمه أنقذته من دسائسهم ، وابتعدت به عن تلك الديار ، واحتمت بصديق قديم كان من قبل حليف زوجها ، وهو أيضاً من أمراء القبائل الرحل ، الضارب فى تلك الصحارى والجبال .

شبّ جنكيز خان وترعرع فى كنف الأمير ، الذى أحبه وأعجب بشجاعته وإقدامه وصفاته الحربية . فزوّجه ابنته « الأميرة خاتون » وأصبح يعتمد عليه فى الحروب والغزوات أكثر مما يعتمد على ابنه لضعف الخائر العزيمة .



جنكيز خان

فدبّ الحسد فى قلب الابن ، وجعل يوغر صدر أبيه على جنكيز خان ، الشاب الغريب ، الذى يرمى إلى الاستئثار بالسلطة ، والذى قد ينتهى به الأمر إلى دسّ السمّ للأمير لكى يخلو له الجوّ ، ويصبح سيد القبيلة وقائدها الأوحد .

نجحت الدسيسة وأعرض الأمير عن صديقه وزوج ابنته ، وأطلق يد ابنه النمام ، وعهد إليه بأن يقتل جنكيز خان عند ما يجد إلى ذلك

سبيلا . لكن زوجة الشابّ فطنت إلى المكيدة ، وأطلعت زوجها عليها ، فعزم جنكيز خان على التخلص من الأمير وابنه قبل أن يتمكنا من إلحاق الأذى به .

وفى ذات يوم ، نادى المنادى فى مرابع الحىّ أن الأمير قد قتل ، وأن النصل الذى أغمد فى صدره وانتزع الحياة من بين جنبيه لايزال باقياً فى صدر ولده ، وقد مزّقه واستقرّ فى القلب ! وكان ذلك فى سنة ٦٠٣ هجرية ، الموافقة سنة ١٢٠٦ للميلاد .

فبكت القبيلة أميرها وابن أميرها . ونادت بجنكيز ، الشاب الشجاع ، زوج الأميرة خاتون ، أميراً بدل الأمير القتيل !

و بينما كان رجال الحىّ يشربون عصير التمر و يرقصون حول النيران الموقدة ، إذا بامرأة تشقّ الصفوف ، وقد مزقت ثوبها ، وحلت شعرها وأهرقت عليه السمن والزيت ، ووقفت فى وسط تلك الجموع المحتشدة ، و بسطت يديها فوق النيران صائحة :

— يا لكم من جبناء ! إن قاتل أميركم وابنه ، هو هذا الذى تنادون به اليوم سيداً عليكم وقائداً لكم . . . هو جنكيز خان اللقيط اللعين ! لقد خنتم العهد الذى قطعتموه لأسرة أميركم ، لكننى على ذلك العهد باقية ، وسوف تجدنى ياجنكيز يوماً من الأيام فى طريقك ، وأقسم لك أمام هذه النيران المشتعلة أن حقدى سيظلّ فى الصدر مضطرماً مثلها ، وأننى سأنتقم منك وآخذ بثأر القتيلين !

قالت المرأة هـذا ، وانصرفت بين صياح النساء وأهازيج الرجال ، فسأل جنكيز خان :

— من تكون هذه المعتوهة ؟

فأجابوه :

— هى هالون أيها المولى ، عشيقة الأمير الشاب الذى وجدناه ميتاً بجانب أبيـه ، وكان عازماً على اتخاذها زوجة له ، والمناداة بها فيما بعـد أميرة على القبيلة عند مايصبح هو أميراً عليها !

* * *

تلك هى المرأة التى ساقها جنود جنكيز خان إليه ، أمام أسوار بخارا ، بينما كانت النيران تلتهم البقية الباقية من المدينة التعسة .

كانت المرأة قد غادرت بلادها وراحت تهيم على وجهها من قطر إلى قطر ، ومن مدينة إلى أخرى ، حتى انتهى بها المطاف إلى بخارا ، حيث وجدت نفسها وحيدة معدمة ، غير قادرة على متابعة السير .

أضافها هناك رجل عربى يدعى عبد الله الموصلى ، و بعد أن أقامت فى بيته بضعة أيام ، طلب منها أن تستقرّ فى بخارا وتصبح حليلته ، لأنه لم يكن متزوجاً . فرضيت هالون بما كتب لها على صفحة القدر ، و بقيت فى البيت الذى وجدت فيه تلك الضيافة وذلك الـكرم .

ورزقت من عبـد الله الموصلى ثلاثة أبناء أرضعتهم كره التتار مع اللبن ، وأقسمت أن تجعل منهم ثلاثة جنود لمحاربة جنكيز وأبناء قومه .

لـكن الدائرة دارت عليها ، وسبقها جنكيز إلى الانتقام ، فهاجم بخارا واستولى عليها بعد ذلك القتال العنيف .

وقد دافعت هالون عن بيتها ، مع زوجها عبد الله ، فقتلت من التتار ثلاثين رجلا قبل أن يتمكنوا من اقتحام الباب وذبح الزوج وإضرام النار فى أرجاء المكان . ! .

*
* *

وأصدر جنكيز خان أمره إلى جنوده بأن يحفروا فى الأرض حفرة ويدفنوا فيها هالون زوجة عبد الله الموصلى وأبناءها الثلاثة، عقاباً لها على ما أبدته من شجاعة فى الدفاع عن حماها والذود عن حياضها .

وأراد أخو الشرّ أن تدفن المرأة حية مع أبنائها أمام عينيه !

و بعد أن تم له ما أراد ، أمر باحضار مضربه المتنقل، الذى كان يجره ثلاثون من الثيران ، فدخل إليه ، وأشار إلى رجاله بالرحيل . . .

وغادر المدينة هادى البال مرتاح الضمير ، وشدّ رجاله الرحال إلى غزوات جديدة ، إلى مدن تحرق ، وأسوار تدك ، وقصور تنهب . . .

إلى محاربة الشرّ بالشرّ كما كان ذلك التترى الهمجى يقول . .

إلى القتل والسلب والسبى . . .

إلى اقامة حكم التتار وملكهم على صروح من الجماجم وأنهار من الدماء !

١٣

ملكة قبرص

التقيت ذات يوم بصديق قبرصى ، ولد فى مصر ويقيم فيها ويحسن لغة أبنائها ، فأمسك بيدى وقال :

— قرأت لك مرّة قصة تاريخية عن أميرة من أميرات العهد الصليبي تدعى « اليونورا » وقد ذكرتنى تلك القصة بأميرة تحمل أيضاً هذا الاسم ، جلست على عرش قبرص فى عهد كانت فيه جزيرتنا متمتعة باستقلالها ، باسطة نفوذها على سواحل البحر المتوسط . فلماذا لا تكتب قصة تلك الملكة القبرصية وتطلع قراءك عليها ؟

فقلت له :

— أعرف أن إحدى ملكات قبرص فى الجيل الرابع عشر كانت تدعى « اليونورا » ولكنى لا أعرف عنها ما يستحقّ الذكر ، ويدعو إلى سرد قصتها فى سلسلة مباحثى فى « تاريخ ما أهمله التاريخ » فهل

تعرف شيئاً عنها ، أو تحتفظ ببعض المصادر التى يمكن الاعتماد عليها ؟

فأجاب قائلا :

— اتبعنى وسأضع بين يديك مايفيدك و يرضيك .

فتبعته . و بعد أن استقرّ بنا المقام فى مكتبه ، أخرج من أحد الأدراج كتيباً يونانياً وقال :

— هذه قصة ملكة قبرص اليونورا فهل تريد نقلها إلى العربية ؟

فأجبت مرحباً باقتراحه :

— نعم . على شرط أن تترجم لى مايحويه هذا الكتيب فأنشر ملخصه فى قصة عن « ملكتكم » اليونورا . . .

وهذا ملخص ماجاء فى ذلك الكتيب اليونانى :

فى سنة ١٣٥٩ للميلاد ، عمت الأفراح مدينة نيقوسيا القبرصية ، لمناسبة الاحتفال بزواج الملك بطرس الأول ، من أسرة لوسينيان ، والأميرة اليونورا داراجون التى كانت تعد أجمل امرأة فى الجزيرة كلها !

وتدفقت جماهير الشعب من جميع أنحاء المدينة على الميدان الكبير ، أمام كنيسة القديسة صوفيا ، لمشاهدة الموكب الفخم الذى سار من القصر الملكى الى الكنيسة ، مخترقاً شوارع المدينة بين الهتاف والتصفيق والدعاء الحارّ .

وكانت الملكة تحب الملك حباً جماً ، وكان الملك أيضاً يحبها ، ولكنه من ناحية أخرى كان ضعيف القلب أمام النساء ، يلقى بنفسه بين

أذرعتهن كلما سنحت له فرصة وأحياناً دون أن تسنح له !

وأدركت الملكة بعد فوات الوقت أن زوجها طائش ، وأنها لن تستطيع الاحتفاظ باخلاصه لها و بقائه على حبها دون سواها من النساء .

وما لبثت أن فطنت ـ وكانت ذكية جداً ـ إلى علاقة أثيمة تربط زوجها بسيدة من سيدات البلاط تدعى « جان لالامان » وخيل للملكة أنها استولت على فؤاد زوجها الملك ، وأوقعته فى حبائل حبها .

وجعلت الملكة اليونورا تتحين الفرصة للايقاع بتلك المرأة الخائنة ، والانتقام منها ، دون أن يشعر أحد بذلك ، ودون أن يدرك الملك أن زوجته عالمة بأمره ، مطلعة على سره .

واضطر الملك بطرس الأول ذات يوم إلى الإبحار من قبرص قاصداً ديار الغرب ، لقضاء بعض شئون مملكته ، ومفاوضة الملوك والأمراء فى أمر الدفاع عن قبرص تجاه أعدائها الكثيرين ، و بنوع خاص تجاه الأتراك الذين استفحل أمرهم فى ذلك الوقت ، وجعلوا يهددون سواحل البحر المتوسط وجزره .

بقيت الملكة اليونورا وحدها فى الجزيرة بعد سفر زوجها ، فاغتنمت الفرصة وجاءت بغريمتها جان لالامان ، وجعلت تذيقها العذاب أشكالا وألواناً . وكانت الملكة اليونورا ، مع جمالها البارع ، حاذقة متفننة فى المكر وأساليب التعذيب !

وحدث فى أثناء ذلك للملكة حادث غريب ، حادث لم تتمكن الملكة من تفسيره . ففى الوقت الذى كانت اليونورا فيه تنتقم من غريمتها جان لالامان لأنها انتزعت منها زوجها ، وتعاقبها على ما أحدثته فى نفسها من ألم وعذاب ، فى ذلك الوقت نفسه ، شعرت نحو شاب من شبان البلاط بعاطفة لا تختلف فى شىء عن العاطفة التى كان زوجها يشعر بها نحو سواها من النساء !

نعم . أحبت الملكة شاباً يدعى جان دى مورفو ، وهى التى كانت تقضى الليالى باكية منتحبة ، لأن زوجها أحبّ امرأة غيرها !

وفطن أعداؤها وأنصار غريمتها جان لالامان إلى ذلك ، فأوفدوا رسلهم إلى الملك بطرس الأول ، يطلعونه على ما حدث فى غيابه ، ويخبرونه بخيانة زوجته وخروجها عن جادة الصواب والواجب الزوجى !

فعاد الملك بطرس الأول من بلاد الغرب إلى جزيرته ، وقلبه مفعم غيظاً وأسى ، وقد وطد العزم على الانتقام من الزوجة الخائنة !

لكن المرأة عرفت كيف تخدعه ، وتخفى عنه حقيقة الواقع ، وتظهر أعداءها بمظهر الكاذبين المنافقين . فاقتنع الملك بطرس الأول ، ولكنه حنق على شعبه وعلى الذين أبلغوه ذلك الخبر « الكاذب » وجعل ينزل بهم أنواع العذاب والإرهاق ، وأمعن فى اضطهادهم إلى حدّ أثار حفيظتهم وحقدهم عليه ، فتآمروا فيما بينهم على قتله والتخلص منه .

وخابروا بذلك أخاه الأمير « جان » الذى كان مقيما فى إنطاكية

بسوريا ، واتفقوا معه على أن يكون نائباً للملك وقيما على الأمير بطرس الصغير ، ابن الملك بطرس الأول ، الذى كان فى الخامسة من عمره ، ويحمل اسم أبيه « بطرس لوسينيان »

وفى ذات يوم ، دخل المتآمرون على الملك وهو نائم فى حجرته ، فذبحوه ورفعوا على القصر الراية السوداء ، ونادوا بولى العهد الصغير بطرس ملكا على قبرص ، وأقاموا عمه جان الانطاكى قيما ووصياً عليه !

*
* *

كانت اليونورا قد عللت النفس فى بادىء الأمر بأن يقع الاختيار عليها وصية على ابنها ، فعند ماخاب أملها ، وتلاشت أحلامها ، تضاعف غضبها على أولئك الأشراف الذين تآمروا عليها أولا ، ثم على زوجها فقتلوه ، وجعلت تبحث عن وسيلة للقضاء عليهم وعلى الأمير جان ، نائب الملك .

ووقعت فى أثناء ذلك حرب بين جمهورية جنوى ومملكة قبرص ، فاحتل جنود جنوى مدينة نيقوسيا حيث وقع الملك الصغير بطرس أسيراً، واحتفظ به الأعداء رهينة فى القصر الملكى، وفرت الملكة ونائب الملك وأنصارهما إلى جهات أخرى من الجزيرة ، حيث جعلوا يعدون العدة لاسترجاع المدينة الكبيرة من أيدى جنود جنوى .

جمعت الملكة الأشراف والزعماء فى بيتها ، وطلبت أن يتقدم واحد منهم للذهاب إلى نيقوسيا سراً ، وإضرام نار الثورة فيها بين أنصار

أسرة لوسينيان ، لإنقاذ الملك الصغير وإعادته إلى أمه .

فلم يتقدّم أحد من الأشراف للقيام بتلك المهمة الخطرة . . .

فصاحت الملكة بهم :

— أجميعكم جبناء ؟ أليس فيكم من يقدّم على التضحية فى سبيل العرش والملك ؟

وهنا ارتفع صوت ضعيف قائلا :

— أنا لها يا مولاتى . مرينى بما تريدين القيام به !

كان المتكلم فتى فى العشرين من عمره ، جميل الطلعة ، برّاق العينين . فسألته الملكة :

— من أنت ؟

— ديمترى دانيلوس يا مولاتى . فتى فقير لا يملك غير حياته ، وهو يضعها فى كفة الأقدار قياماً بواجبه نحو وطنه والأسرة المالكة !

* * *

ذهب الفتى ديمترى دانيلوس ، متخفياً فى زى فلاح وعلى كتفه جرة مملوءة لبناً ، إلى مدينة نيقوسيا . وجعل يتردد عليها باستمرار ، وينقل الأخبار والأوامر بين المقرّ الملكى وأنصار الأسرة فى المدينة . حتى إذا ما أعدّ كل شىء لإثارة الفتنة المنتظرة، هبّ سكان المدينة دفعة واحدة وهاجموا معسكر الجنويين وأنقذوا ملكهم الصغير وحملوه إلى أمه !

وفى مساء ذلك اليوم دعى ديمترى دانيلوس للمثول بين يدى الملكة .

وعند ماوقع نظرها عليه ، هطلت الدموع من عينيها وفتحت ذراعيها قائلة له :

— تعال يا بنيّ ! لقد أنقذت حياة الملك وأنقذت أسرة لوسينيان وأنقذت الوطن . فلك الشكر من الملك والأسرة والوطن !

والتفّ الشعب حول الملكة ، وأعرض عن الأمير جان الانطاكى نائب الملك ، الذى عجز عن استرجاع المدينة من الجنويين ، فرأت الملكة أن الوقت قد حان للانتقام منه ، وأرسلت إليه ذات يوم جماعة من أنصارها ومريديها ففتكوا به ، وحملوا إلى الملكة رأسه على طبق من الفضة !

ودخلت الملكة على ابنها بطرس الصغير وبيدها رأس عمه يقطر دماً ، وقالت :

— بنيّ ! لقد قتلت عمك هذا لأنه تآمر مع أعدائنا على قتل أبيك والاستئثار بالسلطة !

فنظر الملك الطفل إلى رأس عمه الدامى ، وانتفض فى مكانه فزعاً صارخاً :

— أماه ! ما أفظع هذا . ! .

لكن الملكة لم تؤثر فيها صرخة ابنها ، فألقت بالرأس على الأرض ووضعت قدمها عليه قائلة :

— هذا جزاء الخونة الذين يقفون فى سبيلى !

* * *

كان يجب على الملكة اليونورا أن تقف عند هذا الحدّ ، وأن تسهر بعد ذلك اليوم على ابنها ، وتحسن السياسة مع الأشراف والأعوان والقوّاد ، للاحتفاظ بعرشها ، وصيانة ملكها .

لكنها كانت بعيدة المطامع كثيرة المطالب ، فأرادت أن تكون فى الجزيرة حاكمة بأمرها ، لايعترضها معترض، ولايقف فى وجهها مرشد ، فساءت أحوال المملكة ، وعمّ الاستياء جميع طبقات الشعب ، فأوفد القبرصيون إلى الملك بطرس مندوباً من قبلهم ، يطالب منه إما التنازل عن العرش لسواه ، وإما إبعاد أمه الملكة عن الجزيرة !

فاضطرّ الملك الصغير إلى إجابة الشعب إلى طلبه ، وأصدر أمره بالقبض على أمه ، ونقلها إلى سفينة أقلعت بها ليلا بعيداً عن سواحل الجزيرة ، إلى وطنها الأول ، الى بلاد الأراجون القصية . . .

وقفت الملكة اليونورا فى تلك الليلة التى احتجبت فيها النجوم وراء السحب الكثيفة ، على ظهر السفينة التى أقلعت بها عن بلاد كانت فيها الآمرة الحاكمة ، وجعلت تندب حظها ، وتفكر فيما آل اليه أمرها ، وتذكر تلك الحوادث التى تخللت حياتها . . . وتبكى بكاء مرّا !

رأت زوجها يخونها . . .

ورأت نفسها تخون زوجها . . .

ورأت الأشراف يتآمرون عليها وعلى زوجها ويخونون الاثنين معاً . . .

ورأت الأمير الانطاكى ، شقيق زوجها ، يخون أسرته ويكيد لها فى الخفاء . . .

ورأت ابنها يخونها ويأمر بإبعادها عن عرش زوجها . . .

رأت الخيانة مجسمة فى كل من حاط بها — وفى نفسها .

ولم تظهر من خلال ذلك كله غير صورة واحدة نقية طاهرة ، صورة ذلك الشاب الفقير النبيل ، ديمترى دانيلوس ، الذى لم يكن ممن ينتمون الى الأسر الشريفة ، والذى كان يحمل بين جنبيه عواطف تفوق سمواً عواطف النبلاء والأشراف والملوك !

وبكت أيضاً — وابتعد بحارة السفينة عن تلك الملكة الحزينة الكئيبة الباكية ، احتراماً لها وعطفاً عليها !

وفى اليوم التالى ، بحث البحارة عن الملكة اليونورا فلم يقفوا لها على أثر . . .

***

هذا ما جاء فى الكتيب اليونانى عن الملكة اليونورا ، التى أحبت وملكت فلم تحسن التصرّف فى حبها وملكها — وكانت نهايتها المحزنة أن راحت طعاماً للأسماك فى خضم البحار !



١٤

توبة الأمبراطورة

دخلت الوصيفة على الامبراطورة « تيودورة » وانحنت الى الأرض ثمّ تقدمت وهمست فى أذن مولاتها هذا الاسم : « ميخائيل ! »

فرفعت تيودورة رأسها ، وسألت :

— الـكبير أم الصغير ؟

فأجابت الوصيفة :

— الـكبير يا مولاتى . . ويبدو عليه القلق والاضطراب .

— ليدخل . . .

خرجت الوصيفة فنهضت تيودورة من مكانها وقادت الفهد الأليف الذى كان نائماً على قدميها إلى حجرة مجاورة ، ثمّ عادت إلى الوسائد الملقاة أمام النافذة المطلة على البحر ، واستلقت عليها . . .

ودخل فى تلك اللحظة شاب فى الثلاثين من العمر ، طويل القامة ،

أزرق العينين ، أشقر الشعر . .

جثا « ميخائيل » على ركبتيه ووضع قبلة حارة على اليد التى بسطتها له الامبراطورة .

لكنها ما ابثت أن فتحت له ذراعيها ، فألقى بنفسه فى أحضانها ، وغمر وجهها وعنقها وصدرها بالقبلات الغرامية الملتهبة .

ثم أجهش فجأة بالبكاء ، وقال :

— أيمكن هذا . ؟ . أصحيح أنك تعرضين عنى ، وترغبين إلىّ فى أن أبتعد عن هذا القصر ولا أعود إليه بعد الآن ؟ ماذا طرأ على حبنا ، وأية عاطفة حلت فى قلبك محلّ ذلك الغرام ؟

فأخذت تيودورة رأس الشاب بين يديها ، وقالت :

— ميخائيل . . اصغ إلىّ : لقد أحببتك ولا أزال أحبك . . . ياحبيبى ! لكن فى الحياة ظروف وحالات ينبغى للانسان أن يحترمها ويحسب لها حساباً ... لقد أحببتك قبل أن أدخل هذا القصر ، وأعتلى عرش بيزانطة ، وأصبح أمبراطورة وزوجة امبراطور ! وحافظت على ذلك الحبّ فيما بعد ، ومهدت لك السبل لكى تأتى خلسة إلى مخدعى الامبراطورى ، وتقضى معى الأيام والليالى . . . إلى أن حدث حادث قد تكون عاقبته وخيمة علينا . . .

— أى حادث هذا ؟



تيودوره على عرشها

— جاءنى أخوك منذ أيام ، وطلب المثول بين يدى ، فأذنت له بذلك ، ظناً منى أن القادم هو أنت بنفسك ، لأن أخاك يدعى مثلك ميخائيل . .

— وماذا كان يطلب ؟

— جاءنى يعرض علىّ حبه . . . مثلك أيضاً ؟

— الخائن . ! . وما ذا قلت له ؟

— طردته من القصر طرداً . فخرج من عنـدى غاضباً مهدداً .
قائلا إنه سيشيع فى المدينة خبرعلاقاتنا الغرامية ، و يطلع عليها الامبراطور
قبل الرعية !

— ياله من مجنون أعمى !

— فبعد هذا الحادث، ينبغى أن تنقطع عن المجىء إلى هذاالقصر ،
إلا إذا . . . إذا . . .

— إذا . ؟ .

— إلا إذا عدل أخوك عن عزمه . . أو زال من عالم الوجود !

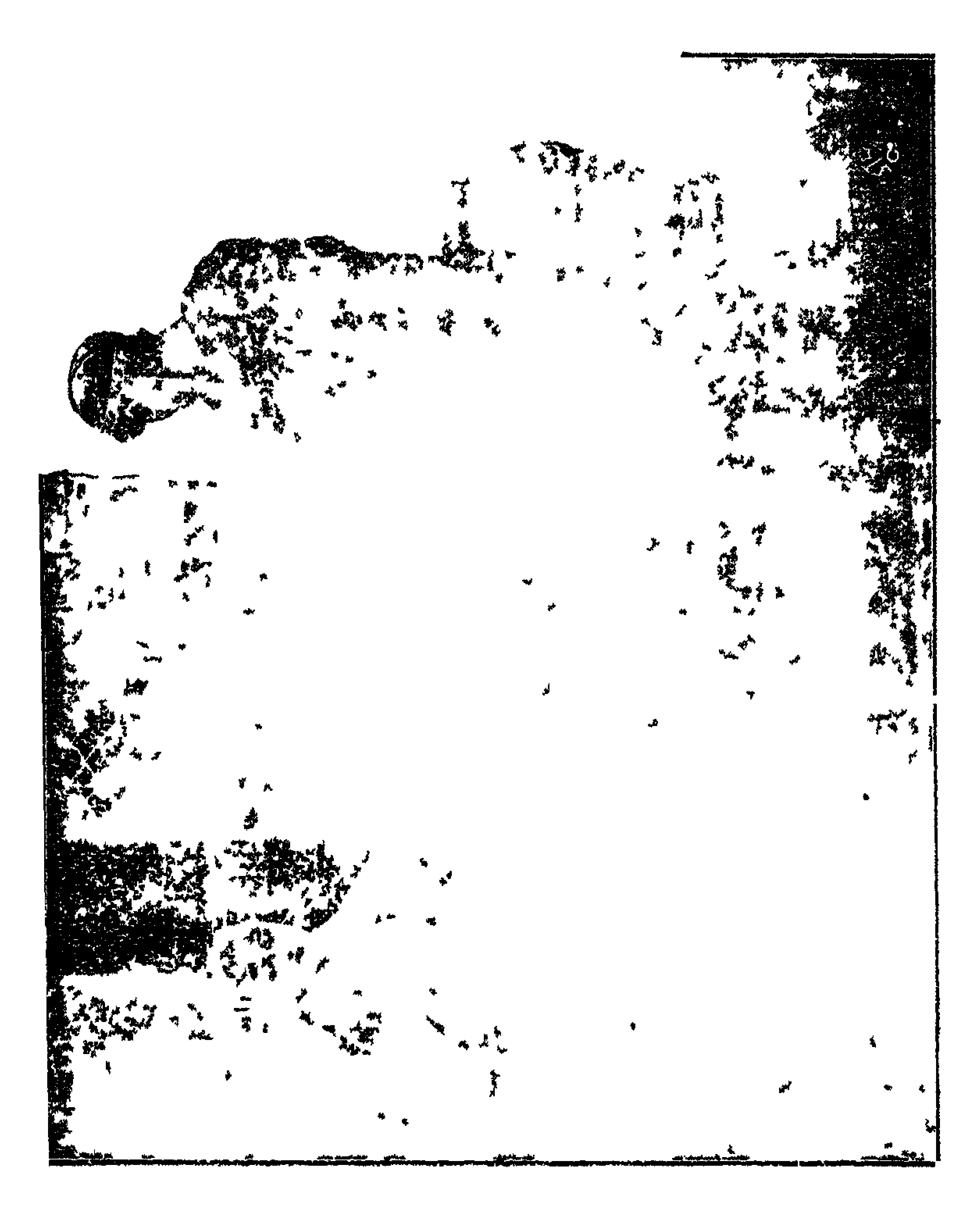
— سأقتله الليلة . ! .

وغادر « ميخائيل الـكبير » كما سمته تيودورة حجرة الامبراطورة
العاشقة ، وهو يردد قائلا : « سأقتله الليلة ! »

***

بدأت تيودورة حياتها راقصة فى ملعب ، وهى ابنة « أكاسيوس »
مروّض الوحوش . أما أمها فان اسمها مجهول وسيظل إلى الأبد مجهولا .
مات أبوها وهى صبية ، فضاقت الدنيا فى وجهها . و بحثت عن الرزق
وسعت إليه فى مختلف الأنحاء و بشتى الأساليب ، وكانت تلتقطه حيثما
تجده ، فى القصور والأكواخ والشوارع والحانات والمواخير .

أما الحبّ فانها لم تعرفه ، ولم تدع له سبيلا للتسلط على قلبها ، بل



الامبراطورة تيودوره تغزل الصوف

كانت تتاجر بمحاسنها وجمالها كما يتاجر البائع بالسلع ، فتعطيها لمن يدفع أكثر من سواه !

ورزقت ابنـة جميلة كأمها ، فخشيت تيودورة على الطفلة فى ذلك الوسط الموبوء الذى كانت تعيش فيه ، فابتعدت عن الملاهى والملاعب ودور التمثيل والرقص ، وجعلت منذ ذلك الوقت تشـتغل فى صنع الأحذية والأزياء النسائية . . .

وترددت على بيتها نساء الطبقة الشريفة فى بيزانطة ، ووقع عليها ذات يوم نظر الأمير يوستينيانوس ، ولىّ عهد الامبراطورية الشرقية .

فأحبها ، وهام بها ، ونسى من أجلها ما عداها من النساء ، وهجر الفتاة التى كان أبوه قد أعدها زوجة له ، وأراد أن يتزوج تلك البائعة ، تيودورة الجميلة .

لـكن ماضى المرأة ، وسيرتها ، والمهنة التى كانت تحترفها ، والاسم الملطخ بالعار الذى تحمله ، كلّ ذلك حال دون رغبة الأمير وأمنيته ، لأن قوانين الدولة تحرم على أمراء البيت المالك أن يختاروا زوجاتهم من غير البيئة التى ينتمون إليها .

لـكن يوستينيانوس لم يكن من أولئك الرجال الذين تتولاهم الحيرة فى مثل هذه الظروف .

سنّ قوانين جديدة محلّ القوانين القديمة ، وأجاز للأمراء أن يتزوّجوا من يشاءون من النساء ، حتى ولو كنّ من الممثلات أو الراقصات أو البغيات !

وما جلس يوستينيانوس على عرش بيزانطة إلا وتيودورة بجانبه ، وعلى رأسها تاج الامبراطورية !

* * *

ظلت « الامبراطورة » تحن إلى حياة « الراقصة » وظلت تيودورة زوجة يوستينيانوس الامبراطور تذكر بالحسرة والألم تلك الحرية التى كانت تتمتع بها تيودورة البغى ، فقامت فى نفسها ، وهى جالسة على العرش ، رغبة شديدة فى العودة إلى سيرتها الأولى ، إلى التهتك ، إلى اشباع شهواتها ، والتمرغ فى أحضان الحب المحرّم كسابق عهدها به .

فأرسلت فى طلب عشاقها الأقدمين ، الواحد بعد الآخر ؛ وأدخلتهم خلسة إلى قصرها ، فتحوّل مخدع الامبراطورة إلى مفسقة يلتقى فيها طلاب الهوى ، وعشاق الجمال . ورواد الملذات !

وكان « ميخائيل » أحد أولئك المغرمين المعجبين بتيودورة ، ومن أسعدهم حظاً لديها ، وكان أخوه الصغير أيضاً من المترددين على القصر . لكن الامبراطورة كانت تحذر كلا من الأثنين من أن يذكر للآخر شيئاً عن علاقاته بها . . .

وحدث ذات يوم أن علم الأخ الصغير أن أخاه الكبير يتمتع لدى الامبراطورة المتهتكة بحظوة أوسع من حظوته ، فجاءها مرغياً مزبداً ، وهددها بافشاء سرّها إذا لم تطرد أخاه وتقفل فى وجهه أبوابها .

فخشيت تيودورة سوء العاقبة ، على أثر ذلك الحادث ، وراحت

تغرى الأخ وتحرضه على أخيه ، لكى ينقذها منـه و يحول دون وقوع الفضيحة فى البلاط .

***

و بعد يومين كانت تيودورة جالسـة مع فهدها الأليف ، أمام تلك النافذة التى كانت تحب الجلوس أمامها ، وإذا بالوصيفة ، المطلعة على جميع أسرارها ، تدخل عليها وتهمس فى أذنها مرّة أخرى ذلك الاسم : « ميخائيل ! »

ضحكت الامبراطورة فى هذه المرّة ، وقالت :

— الكبير ؟ . . إنى فى انتظاره . . . ليدخل !

فدخل العاشق ، كالح الوجه ، مقطب الجبين ، وقال :

— قضى الأمر . . . والاسماك تلتهم جثته منذ الأمس !

فنهضت تيودورة من مكانها ، واقتربت من العاشـق القاتل ، وأمسكت بيديه . وحدقت فيه البصر ، وقالت :

— أقتلته ؟ . . حقاً ؟

— نعم ، وألقيت جثته فى البحر !

فطوّقت تيودورة عنقه بذراعيها ، وقدّمت له شفتيها ، فالتصقت عليهما شفتان تنبعث منهما حرارة النار !

وكانت قبلة لم يذق عاشق مثلها !

وبينما الاثنان مستلقيان على الوسائد الحريرية أمام النافذة المطلة على البحر ، يتـداعبان ويتحادثان ، حانت من المرأة التفاتة نحو يد عشيقها ، فخيل إليها أن لطخة حمراء لاتزال باقية على كفه !



الامبراطورة تيودورة

فنظرت إلى اليد الأخرى ، و إلى وجهه ، و إلى عنقه . . . فخيل إليها أيضاً أن بقعاً حمراء تلطخ اليذ والوجه والعنق ، وأن الدم الذى سفكه هذا العاشق القاتل ـ دم أخيه البرىء ـ لاتزال آثاره باقية ، مطبوعة ، تشهد على المجرم الأثيم وتتهم من حرضه على القتل !

كانت تيودورة قد ارتكبت قبل ذلك اليوم جرائم كثيرة ، وانغمست فى الدماء واللذات المنكرة ، لكنها لم تشعر مرّة واحدة بأن هناك ضميراً يؤنب المذنب على ذنبه .

أما اليوم فان ضميرها قد صحا من سباته ، وهى تشعر وتحسّ بوخزه المؤلم !

فاستعرضت أمامها ذلك الماضى المثقل بالآثام والمنكرات والخيانات . وهالها ما أقدمت عليه فى حياتها من أعمال مخزية معيبة ، وسمعت صوتاً داخلياً يهيب بها :

ـــ كفى شروراً أيتها المرأة الدموية الفاجرة ! لقد آن الأوان للتوبة فكفرى عن ذنوبك وآثامك إن الله يغفر للتائبين !

* * *

ظلّ العمال يشتغلون ستة شهور كاملة فى بناء تلك الدار الواسعة الأرجاء ، القائمة على ضفاف البوسفور ، التى أعدتها الامبراطورة تيودورة ملجأ لخمسمئة من النساء الساقطات ، اللواتى حملتهن على التوبة والندم ، فعدلن عن سلوكهن الشائن ، ومفاسدهن السابقة ، وأقمن فى تلك الدار ،

فى رعاية الامبراطورة والامبراطور .

نبذت تيودورة ماضيها ، بعد ذلك الحادث المشئوم ، الذى راح فيه أخ شهيد الحب الأثيم ، قتيلا بيد أخيه ، ولم يكفها ذلك بل جعلت تدعو البغيات والممثلات والراقصات إلى نهج منهجها ، وسلوك السبيل السوىّ الذى سلكته .

وكان « ميخائيل » العاشق القاتل ساعدها الأيمن ورفيقها فى ذلك الجهاد المشكور ، بعد أن تاب مثلها ، وعزم من جهته على أن يكفر عن سيئاته الماضية .

وبعد أن شيدت تيودورة تلك الدار الفخمة ، على ضفاف البوسفور ، وجمعت فيها خمسمائة من الممثلات والراقصات والنسوة المتهتكات ، أقامت صديقها « ميخائيل » مراقباً على الدار ، من قبلها ومن قبل الامبراطور يوستينيانوس زوجها .

وذهبت إلى أبعد من ذلك ، فجعلت تبحث لأولئك النسوة التائبات عن أزواج بين خدم القصر وجنود الحرس ، وترغم كلّ من أراد الزواج من أتباعها على اختيار رفيقة حياته من ساكنات « دار التوبة » كما كانت تسميها !

وقد جلس الامبراطور يوستينيانوس على عرش بيزانطة ثمانية وثلاثين عاماً ، من سنة ٥٢٧ إلى سنة ٥٦٥ للميلاد ، وكان فى خلالها من الملوك المنصفين العادلين .

لـكنه ظلّ جاهلا ذلك الحادث الذى حمل زوجته على تشييد تلك الدار ـ دار التوبة ـ كما ظلّ جاهلا لـكثير من الأسرار التى تضمها جدران قصره .

وبعـد موت تيودورة ، بكاها « ميخائيل » عشـيقها وصديقها ورفيقها فى جميع أطوار حياتها ، وأفشى ذلك السرّ الرهيب وقصّ على الناس قصته ومقتل أخيه وتوبة الامبراطورة !



١٥

السلطان فى القفص

« . . . اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزّ من تشاء ، وتذلّ من تشاء . . . »

الحياة تجديد ، وسنة العمران تقتضى الهدم والبناء . .

انهزمت جيوش ، وانقرضت أمم ، واضمحلت دول ، وقامت على أنقاضها دولة الأتراك الفتية . . .

١٣٧٨ . . .

تدفقت جحافل السلطان مراد الأول تدفق السيل المزبد الجارف ، فأغرقت فى خضمها سهول الأناضول ، واكتسحت مدنه العامرة ، ودكت جباله وحصونه ، وجعل الغزاة الطافرون يتطلعون إلى القسطنطينية ، ويطمعون فى الاستيلاء عليها والقضاء على دولة الأروام فيها .

وكان يرافق السلطان فى روحاته وغدواته ، ابنه البكر الشجاع ، الأمير بايزيد ، زعيم الفرسان وقائدهم فى حومات القتال .

وقعت عليه أنظار « هيلانه » الجميلة ابنة القائد الرومى «ميليناس» فى أثناء مفاوضة بين الرجلين ، على أثر انتصار جديد أحرزه بايزيد على أعدائه ، فعلق به قلبها ، وهامت تلك الفتاة الشقراء بحبّ ذلك الفارس الأسمر .

هجر النوم جفنيها ، وساورتها الأحلام ، وغلت فى جسمها البض الفتى مراجل الشهوة ، فلم تعد تطيق صبراً على حمى الغرام .

العقبات كثيرة فى سبيل إرضاء تلك الشهوة ، و إجابة دعاء ذلك الغرام . لكن الحبّ أعمى ، والمرأة إذا أحبت لا تحكم العقل ولا تقدر العواقب !

وفى ليلة ليلاء ، تحت ستار ظلام مدلهمّ حالك ، هجرت هيلانه أهلها ، ورحلت عن ديارها ، ولحقت بالفتى الاسيوى الذى تسلط على شعورها وملك قيادها ! .

*
* *

١٣٨٩ . . .

التحمت جيوش الأتراك وجيوش الأفرنج فى معركة دموية فى سهول «قاصوى» فسقط مراد الأول فى الميدان ، وتناوله المنجل الحاصد سنبلة بين السنابل !

وكان بايزيد على رأس فرسانه ، فالتفّ الجيش حوله ، ونادى به الجنود سلطانا خلفاً لأبيه، وهتفوا باسمه بين صليل السيوف وقرع الطبول.

وتضاعف نفوذ هيلانه الفاتنة !

بعد أن كانت خليلة الأمير سراً ، صارت عشيقة السلطان جهراً .

وكانت الفتاة من أمة جبلت نساؤها على المكر والخداع ، ومهرن فى طرح الشباك للصيد فى الماء العكر ، ونبغن فى حبك خيوط المكائد والدسائس .

اختلت هيلانه ذات يوم بعشيقها، ودار بين الاثنين حديث مقتضب:

— رأيت أمس حلماً مريعاً . . . أخشى أن يتحقق . . . وأرتعد خوفاً عليك يا حببى !

— أىّ حلم هذا ؟

— رأيت أخاك « يعقوب » يثب عليك وأنت راقد فى فراشك، فيطعنك بخنجره ، لكى يخلو له الجوّ من بعدك ، ويتبوأ العرش الذى أنت جالس عليه !

— أضغاث أحلام !

— لا تقل هذا . . . فما أكثر الأحلام التى تحققها الأيام !

— وما ذا تريدين أن أصنع ؟

— أن تبطش بهذا المزاحم المزعج ، قبل أن يبطش بك !



السلطان بايزيد

وفى مساء ذلك اليوم ، مات الأمير يعقوب ، شقيق السلطان بايزيد ، خنقاً فى حجرته . ! .

* * *

وبعد أيام دار بين العشيقين حديث آخر :

— حلمت أمس حلماً يخيفنى أكثر من الحلم السابق .

— قصيه علىّ .

— رأيت « مانويل » ابن الملك « جان باليولوج » سيد الأروام وحاكم القسطنطينية ، يقودك مكبلا بالحديد إلى داخل أسواره ، ويلقيك حياً طعاماً للكلاب !

— وماذا يتحتم عليّ ؟

— أن تختطف هذا الأمير من قصر أبيه ، وتحتفظ به رهينة بين يديك !

— وكيف السبيل إلى ذلك ؟

— دعى أفعل . . . سأجيئك به إلى مضربك صاغراً ذليلا !

كانت هيلانه تحب مانويل ، لكنه أعرض عنها ، فسعت إلى الانتقام منه ، واغتنمت تلك الفرصة السانحة .

دخلت مدينة الأروام ، ولفقت لهم حديثاً كله كذب فى كذب ، حملت الأمير مانويل على الخروج بشرذمة من رجاله ، فوقع الجميع فى كمين أقامه الأتراك ، وجيء بالشابّ أسيراً مقيداً إلى مضرب بايزيد .

فاضطرّ ملك الاروام إلى دفع جزية وافتداء ولده بأموال كثيرة .

* * *

١٣٩٦ . .

سحق السلطان بايزيد جيوش الافرنج سحقاً فى واقعة نيكو بوليس ، وعاد إلى وضع الحصار على القسطنطينية ، مقسما ألا يذوق راحة إلا بعد أن يقتحم أسوارها .

لكنّ عدواً جديداً لم يكن بايزيد يحسب له حساباً ، ظهر فجأة وراء جيوش الأتراك المظفرة ، وهدّد مملكتهم بما كانوا يهددون به الممالك .

ذلك العدوّ هو تيمورلنك الفاتح التترى ، الذى خضعت له شعوب

الشرق قاصيها ودانيها ، والذى قيل له إن هناك ، فى بطاح الأناضول ، سلطاناً يدعى أنه أشجع الشجعان ، وأفرس الفرسان ، فجدّ ساعياً إليـه طالباً منازلته فى الميدان .

فطن بايزيد إلى الخطر الداهم ، فجمع أخصاءه وأمراء جيشه ، وأصدر إليهم أوامره برفع الحصار عن مدينـة الأروام ، وحصر جهودهم فى صدّ الغزاة ، وطردهم عن أطراف الأناضول .

* * *

١٤٠٢ . . .

أنقره ! . . مدينة الذكريات . . . قلب الاناضول النابض . . . ميدان الحوادث الجليلة ، والمعارك الفاصلة ! . .

فى ذلك السهل المنبسط ، بين تلك الآكام والانجاد ، أعدّ بايزيد نفسه للقتال ، وربض منتظراً قدوم المهاجمين .

فوفد عليه تيمور لنك بأربعماية ألف فارس يشرعون الرماح ، وستمائة ألف راجل يشدّون إلى الأقواس النبال .

ودارت الدائرة على الأتراك ، فوقع السلطان أسيراً ، وتشتت رجاله لايلوون على شىء . . .

وسالت الدماء ، وارتفع العويل ، وتصـعدت من الصـدور الزفرات . . .

***

جيء بالمغلوب إلى الغالب، فأكرمه وأجلسه إلى جانبه ، وسأله :

— ماذا كنت تصنع بي لو ظفرت بجيشي ورأيتني الآن أسيراً بين يديك ؟

فأجاب بايزيد :

— كنت أحبسك في قفص من حديد ، وأطوف بك في مملكتي . . .

فقال تيمورلنك :

— وهذا ما سأصنعه بك ، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا !

وعاد الفاتح إلى بلاده ، ومعه السلطان في قفص !

***

١٤٠٣ . . .

مضت سنة وبايزيد في سجنه الحديدي ، يبكي ملكه الضائع ، وحريته المسلوبة ، والغيظ يتأكل أحشاءه . . .

سامه عدوّه القاسي أنواع الذل والهوان ، وطاف به في أنحاء مملكته ، وعرضه على أنظار رعيته ، وسمح للناس أن يبصقوا في وجهه ، وأن يوجهوا إليه ما شاءوا من الإهانات .



تيمورلنك

وفى ذات يوم ، دخل على تيمورلنك حاجب ، وقال :

— مولاى . بالباب فتى يطلب المثول بين يديك ، ويقول إنه غريب عن هذه الديار ، وإن لديه مايفضى به إليك سراً .

فأمر تيمورلنك بادخال ذلك الغريب . . .

وإذا بفتى أمرد ، بهىّ الطلعة ، يتقدم نحوه خاشعا ، و يلقى بنفسه على قدميه باكياً منتحباً :

— من أنت وماذا تريد ؟

— أنا . . .

تردّد الفتى لحظة ، ثم نزع ثوبه عن صدره وقال :

— لست كما تظن أيها المولى ، إنما الماثل أمامك فتاة مسكينة ، جاءت تطلب منك رجاء هو آخر رجاء لها فى الحياة . . .

فانتفض تيمورلنك وقال :

— افصحى . . .

— أنا حبيبة السلطان بايزيد ، أسيرك المحبوس فى قفص . . . جئت لأشاهد حبيبى للمرة الأخيرة . . .

فنهض تيمورلنك ، واقترب من الفتاه الشجاعة ، وقد أكبر إقدامها ، وقال :

— لا أرفض إجابة رجائك . . . إليك ما تطلبين . . .

ونادى حاجبه ، وأمره بالسير مع الفتاة إلى حبيبها فى قفصه . . .

* * *

وصلت هيلانه أمام ذلك الذى أحبته وخانت عشيرتها من أجله ، فأجهشت بالبكاء وأبكت الأسير معها . . .

ثم رفعت رأسها ، وقد لمع فى عينيها بريق لم يعهده بايزيد فيهما من قبل ، وقالت له بصوت ثابت ، ولهجة صارمة :

— بايزيد . وصلت إلينا أخبارك ، وعلمنا بما ألحقه بك هؤلاء البرابرة من صنوف العذاب . . . وهاقد جئتك اليوم حاملة إليك رجاء عشيقة لاتطيق العيش بعيدة عنك . بايزيد، لا أمل فى إنقاذك من مخالب هؤلاء الوحوش . فضع حداً للعار الذى تعيش فيه . اقطع حبل حياتك بيدك ، مادام عدوّك لايمنّ عليك بالموت الذى يخلصك من هذا العذاب ... إننى أنتظر ... وسأموت معك ، هنا ، على مرأى منك ...

فلم يدعها بايزيد تسترسل فى كلامها ، بل قاطعها قائلا :

— صدقت ياهيلانه . الموت خير من الحياة الذليلة . الوداع ياحبيبتى . . . الوداع ! . .

ووثب السلطان الأسير على حديد قفصه ، فضرب رأسه عليه ضربة فجت جمجمته ، وسقط يتخبط فى دمه !

فصاحت هيلانه صيحة مفجعة ، وتناولت خنجرها وأغمدته بين ثدييها . . .

* * *

وأمر تيمورلنك بدفن الجثتين فى لحد واحد . . .

فتعانق الحبيبان عناقهما الأخير ، بين أحضان الثرى وفى سكون الموت !

١٦

فتاة أركول

جلس القوّاد فى مضرب بونابرت ، القائد الشابّ ، فى السهل المنبسط على مقربة من قرية ريڤولى الإيطالية . وجعل كلّ منهم يقوم بالعمل الذى عهد به إليه : هـذا يرسم خريطة نقلا عن مذكرات بونابرت ، وذاك يعيد النظر فى حساب فرقته . وكان القائد العام يوجب إتقان جميع الأعمال ، الأمر الذى أكلأ أعين الضباط والمتعهدين حذراً واحتراساً .

١٧٩٧ . . . سنة خطها جيش الثورة الفرنسية بأحرف من نار على صفحات التاريخ .

كان الجيش الذى سيرته الجمهورية لغزو إيطاليا فى حالة يرثى لها ، وكان الجنود بعيدين عن وطنهم ، معتصمين فى جبال « الأبنان » بين الصخور والآكام ، وليس لديهم من الطعام إلا مايسدّ به الرمق ،

ومن الملابس إلا مايستر عورتهم ، ومن السلاح بنادق قديمة وثلاثون مدفعاً ، وعددهم لا يربو على الثلاثين ألفاً .

وكان أمامهم ستون ألفاً من النمساويين ومئتا مدفع . . .

فثبتوا لهم رغم ذلك، منتظرين انقاذهم من هذا المأزق الصعب بتعيين قائد كفء ، يعيد لهم عزهم ومجدهم العتيد ، حتى أرسلت لهم الجمهورية بونابرت ، وهو لم يتجاوز بعد الخامسة والعشرين من العمر .

جاءهم هذا القائد الشاب، فلاقوه جميعهم بفتور ووجوه عابسة، وهزأوا به عند ما رأوه نحيل الجسم ، لايستطيع الثبات على متن جواده .

ولكن ماعتم أن تجلت لأعينهم مواهب القائد العظيم تجلى الشمس الباهرة ، فأخذ بعزيمة ماضية ، وإرادة نافذة ، وجهاد مستمرّ ، فى إصلاح ما أفسدته الأيام ، وتنظيم ما أخلت به الظروف والاحوال .

عالج الرجل نفوس جنوده اليائسة ، ملتمساً إلى قلوبهم مسالك الأمل والرجاء ، مطلقاً أعنة خيالهم إلى مستقبل مجيد زاهر ، يمنيهم بطيب الامانى وحلو الهناء ، حتى اكتسب أفئدتهم ، وملك قيادهم ، فصرفهم إلى ملتمسه و بغيته فى مقاتلة الأعداء ، فاندفعوا خفافاً سراعاً شجعاناً ، لاتأخذهم مخافة ، أو ينالهم جبن ، أو يلوى بهم روع ، ملئت بمقاتليهم الارجاء أو أمطرتهم بهم السماء . . .

هكذا كانوا فى الشهر الأول من سنة ١٧٩٧ ، بفضل ذلك القائد العظيم ، يتنقلون من ميدان إلى آخر ، لاتفتر لهم عزمة ، أو تقعد بهم

سآمة ، يهبطون وهداً . ويصعدون نجداً ، مقاتلين مجاهدين ، وأعلام النصر خفاقة فوق رءوسهم .

كانت جحافلهم تجتاز ظافرة تلك الربوع التى شاهدت انتصارات روما ، وتلك الجبال والأودية التى طالما رددت صدى هتاف الفيالق الرومانية ، وأشجار الغار التى أدلت إلى القياصرة أوراقها أكاليل ، تطوق أغصانها جباههم المرتفعة عظمة وجلالا .

اندفع جيش الثورة على المدن الإيطالية ، يقوده الشاب الثائر بونابرت ، فلم يحل دونه حيش حائل إلا ومزقه تمزيقاً ، وكانت السيدات يتقدمن ويمسكن بأعنة الخيول ، فتضمد على صدورهن جراح الجنود الدامية .

هنالك ، فى إحدى تلك المعارك الهائلة ، وجد الكابتن « دوروك » الفتاة « مارى » البائعة فى الجيش ، فأحبها وأحبته ، وتعاهد العاشقان على الزواج عند ماتضع الحرب أوزارها .

*
* *

كان القواد منصرفين فى مضرب القائد ، كل إلى عمله ، وإذا بصوت رخيم ينادى ، بل يهمس من الخارج :

— كابتن دوروك . . . كابتن دوروك . . .

رفع الضابط رأسه وأجاب :

— من المنادى ؟

فضحك أحد الضباط وقال له مازحاً :

— سرعان مانسيتها . . . ألا تعرف صوت حبيبتك ؟

ولكن الصوت أعاد الكرّة :

— أنا يادوروك . . . أنا مارى !

— مارى ؟ تعالى . . . أدخلى . . .

نهض دوروك مسرعاً إلى الباب ، فرفع السدافة ، وظهرت الفتاة بثوبها العسكرى . . .

— أوحيد أنت هنا ؟

ولما وقع نظرها على القوّاد الآخرين ، تردّدت فى الدخول قائلة لخطيبها :

— ظننتك منفرداً !

لكنه أمسك بها ، ونهض الباقون وقد أنهكهم التعب ، فأحاطوا بالفتاة ، وأخذ كل منهم يقنعها بالبقاء :

— أدخلى ياسيدتى . . . ابقى فلا شاغل عنك . . . لن يعود القائد العام قبل نصف ساعة . . .

زال حينئذ اضطراب الفتاة فدخلت ، وقدّم لها أحدهم مقعداً خشبياً فجلست ، لكنها أرسلت أنة ألم ، ووضعت يدها على كتفها ، فانتفض دوروك وسألها :

— مابك ؟ أمريضة أنت ؟

فأجابته والألم باد على وجهها :

— كلا . . . لكن جرحى القديم قد انتقض علىّ ، فذهبت إلى طبيب الفرقة للمداواة ، وها أنا عائدة من خيمته .

فسألها الضابط « لافاليت » وكان حديث العهد فى الجيش :

— أجريحة أنت ياسيدتى ؟

فردّ عليه دوروك قائلا :

— نعم هى جريحة ... وعلى أثر إصابتها بذلك الجرح عرفتها واتخذتها خطيبة لى .

فنهض لافاليت ، وكان لايزال جالساً إلى مكتبه ، وصافح الفتاة مصافحة الزميل للزميل ، والجندى للجندى :

— والآن ، لى رجاء أفضى به إليك ياسيدتى . إننى حديث العهد فى هذا الجيش، ولم يذكر اسمك أمامى قبل الآن. فأرجو أن تقصى علينا قصتك ، وتخبرينا خبرك ، فى تلك الموقعة التى أصبت فيها بهذا الجرح .

فترددت الفتاة ، لكن القوّاد ألحوا عليها ، وأدعم دوروك طلبهم برجائه ، فنهضت « مارى تاردى » وقد أنستها ذكرى تلك الموقعة الهائلة ما تقاسيه من ألم مبرّح ، وقصت على أولئك الأبطال ما حدث لها فى معركة « أركول » :

— كان الجيش يحاول اجتياز جسر أركول بقيادة بونابرت ،

والنمساويون يعاونونه إياه ، مستعينين عليه بما حضرهم من آلات الدفاع وأدوات الهلاك ، فقصفت فينا رعود مدافعهم ، وانقضت علينا صواعق قنابلهم ، وأمطرتنا شظايا رصاصهم وحديدهم ، وكنا نحن النساء اللاحقات بالجيش قد انتحينا ناحية من ميدان القتال ، ننظر إلى الجنود فى هجومهم ووثباتهم ، ونشاهد جمالهم وعظمتهم فى ثوراتهم وغضباتهم ، وإن هى إلا ساعة ، وقد شغل عنا الجميع وأصبحنا فى عزلة عنهم ، حتى طلعت علينا شرذمة من النمساويين تريد مفاجأة رجالنا من الوراء والإحاطة بهم ، فصحت بصويحباتى ، وكنت أولى من أخذتهم عينى مناديةً : يا للأعداء ! فأسرعن إلى التقاط بنادقهن ، وانتظمن صفاً متساوياً مرصوصاً قبالة المهاجمين ، وتماسكن لهم سداً منيعاً . . .

فصفق القوّاد استحساناً وإعجاباً ، واستطردت مارى فى حديثها :

— وواصلناهم برصاصنا الفتاك ، يتناولهم كالمنجل الحاصد ، حتى أزحنا أحياءهم عن مراكزهم ورددناهم إلى مقرهم خائبين . وكان الخبر قد بلغ الجيش فأسرع دوروك إلينا برجاله . . . وكنت قد أصبت فى أثناء القتال بجرح بليغ فى كتفى . . .

وهنا توقفت مارى عن الكلام ، فالتفت دوروك إلى أصحابه وقال :

— وصلنا إليهن فرأينا يارفاق عشرة من نسائنا يطاردن المئات من رجالهم ، وشاهدنا فيهن عظمة أمهاتنا وفيهم جبن آبائهم ، وكانت

عزيزتى مارى فى مقدّمتهنّ على تلك الرابية ، كما كان بونابرت فى مقدّمتنا على جسر أركول . . . فى تلك الظروف رأيت مارى للمرّة الأولى ، وفى تلك المعركة الدموية التى انتهت بانتصارنا انتصاراً باهراً ، وبهزيمة الأعداء هزيمة شنيعة ، وضعت على جبين هـذه الفتاة القبلة الأولى . ومنذ ذلك الحين أطلق عليها الجيش لقب « فتاة أركول » وبونابرت نفسه لايناديها باسم غير هذا .

فهنأ القواد رفيقهم وخطيبته ، وهتفوا هتافاً عالياً لمـارى الشـجاعة الباسلة ـ « فتاة أركول » .

* * *

انتهت معركة « ريڤولى » بانتصار جديد أضافته جيوش الثورة إلى انتصاراتها السابقة ، ووقف القائد نابوليون بونابرت فوق رابية تشرف على ميدان القتال ، وجعل القوّاد يفدون عليه مهنئين ، والجنود يمرّون أمامه منشدين الأناشيد .

وبينما هو كذلك ، يحيط به الضبـاط من أركان حربه ، وإذا بجنديين يحملان جثة ملفوفة فى علم ممزق ، يمرّان على مقربة منه ، فناداهم سائلا :

— من الجريح ؟

فأجابه أحدهما :

— هو قتيل يا جنرال !

— من هو ؟

— فتاة أركول !

فادلهمّ وجه القائد ، والتفت إلى أركان حربه باحثاً عن دوروك ، فرآه واقفاً فى مكانه لا يبدى حراكا ، وقد وقع عليه هذا النبأ المقتضب وقع الصاعقة . فتقدم إليه بونابرت ، وأخذ بيده ، وأشار إلى الجنديين بأن يقتربا بجثة الفتاة ، فوضعها أمام قوّاده ، وحياها التحية العسكرية ، وقال :

— دعوها هنا ، لأنها فتاة شجاعة ، ويجب أن تشهد ميتةً الانتصار الذى لم تشهده حية !

وكان قوّاد الجيش قد أحاطوا برئيسهم ، فوقف فيهم خطيباً ، أمام تلك الجثة الهامدة، وفاه بهذه الكلمات التى دوّنها التاريخ فى صفحاته ، وتناقلتها الألسنة من بعده جيلا عن جيل :

« أيها الجنود . لقد اندفعتم من أعالى جبال الأنان كالسيل المتدفق الجارف ، فعلوتم الحواجز الحائلة ، وجزتم العقبات المعترضة لكم فى منطلق السيل ، لا توقفكم قوّة ، أو توهن عزائمكم مشقة ، وقد كانت المصاعب جمة ، فلم تخنعكم إلى يأس أو جبن أو إحجام ، بل حزتم النصر بلا مدافع ، وعبرتم النهر بلا مجاز ، وطويتم المفاوز الشاسعة بلا أحذية ولا نعال، وضربتم المضارب فى العراء تحت مجرة من الأمطار ، وفى مهبّ

من الرياح ، ووسط تلال من الثلج . . . فان ما تحملتموه من العذاب والآلام لايستطيعه إلا جنود الحرية ورافعو لوائها . . . »

* * *

ودفنت ماري تاردي في ساحة القتال، وهي ابنة الجندي جان تاردي، الذي لحق بنابليون بونابرت إلى مصر ، وقتل في الثالث والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ في ثورة القاهرة .





١٧

خليلة الشاعر

منذ سنة ١٠٢٥ للميلاد ، خضع سكان سلوفاكيا للشعب المجرى وظلوا مستعبدين إلى سنة ١٩١٨ .

ومنذ سنة ١٥٤٥ للميلاد ، خضع التشك ، سكان بوهيميا ، لسلطان النمسا وظلوا مستعبدين إلى سنة ١٩١٨ .

لكن الشعبين لم يداخلهما اليأس ، ولم يتسرب إليهما القنوط ، بل ظلا فى جهاد مستمر ، مدى الأعوام والأجيال ، إلى أن كتب لهما النصر ، وتحققت تلك الأمانى القومية التى علل الشعبان النفس بها : الحرية والاستقلال وتحطيم الاغلال !

دالت دول وقامت دول . واندثرت شعوب وعدت إلى الحياة شعوب . وما أن وضعت الحرب العظمى أوزارها ، حتى رأينا دولة السلوفاكيين والتشك تستعيد كيانها القومى بين الأمم ، وتختار لنفسها

النظام الجمهورى ، وتنتخب رئيساً لها رجلا من عامة الشعب قضى حياته مجاهداً فى سبيل قومه ووطنه : توماس مازاريك !

وأطلق السلوفاكيون والتشك على جمهوريتهم الفتية اسم «تشكوسلوفاكيا» وجعلوا مازاريك رئيساً عليهم مدى الحياة. وأعادوا إلى « براج » عاصمتهم القديمة التاريخية مجدها السالف وعزّها الماضى . ومشوا جنباً إلى جنب مع الأمم القوية العظيمة ، فى مدارج الرقى والحضارة، وقد صهرتهم الحوادث وعركتهم الاضطهادات التى عانوا آلامها ، من عهد أباطرة هابسبورج الأولين ، إلى عهد فرنسوا جوزيف العجوز وشارل الخامس الفتى .

* * *

وتاريخ سلوفاكيا و بوهيميا ـ أو تشكوسلوفاكيا كما يسمونها الآن ـ سلسلة رائعة دامية من الثورات والاحن والقلاقل والمذابح .

والباحث فى سجلات تاريخ القوم المفعم بعظائم الأمور وجلائل الأعمال ، يعثر على القصة الآتية ، التى تنمّ عن ما جبل عليه ذلك الشعب الأبىّ من الأنفة والشمم :

أصدر الأمير فردريك ، حاكم بوهيميا وطاغيتها المستبد ، أمره بالقاء القبض على « زاتك » الشاعر الشابّ ، المندفع فى تيار الوطنية اندفاع أضرابه الشبان فيه ، بسبب نشيد وضعه ذلك الشاعر ، وأهاب فيه ببنى قومه أن هبوا من رقادكم أيها النيام ، فقد آن الأوان لخلع نير العبودية

عن أعناقكم ، ونزع أصفاد الذلّ من معاصمكم ، والتطلع إلى الشمس الوهاجة ، التى تشرق على وطنكم كما تشرق على النمسا ، والتى يحقّ لكم أن تحتلوا مكانكم تحت نورها ، شاء مستعبدوكم أم أبوا . . !

ردّد البوهيميون أنشودة الشاعر فى كلّ حدب وصوب ، ولعلعت أنغامها فى فضاء ذلك الوطن التعس المعذب كالبروق الخاطفة ، فهبّ الشعب كبيره وصغيره ، فى المدن والقرى والجبال والحقول ، هبة الرجل الواحد ، وهاجت جموعه العاصمة القديمة « براج » ذات التاريخ العريق والمجد الأثيل ، وانتزعت أيدى الثائرين تمثال الأمبراطور النمسوى عن قاعدته ، وألقته فى الشارع ، ولوّثته بالوحول والقاذورات !

لكن النمسويين كانوا على أهبة وعدة لإخماد نار الثورة فى البلاد ، لأنهم كانوا يعلمون مبلغ كره القوم لهم ، ويبثون فى المدن والأقاليم حاميات كثيرة العدد ، متوفرة العدد ، استعداداً للطوارىء وخوفاً من المفاجآت .

وأخمدت تلك الثورة كما أخمدت غيرها من قبل ، بالحديد والنار !

وغصت السجون بالمقبوض عليهم من وجوه القوم وقادة الرأى فيهم ، وجاور الأبرياء منهم المذنبين .

وكان الشاعر زاتك أوّل من ساقه الجند إلى الحاكم العام النمسوى ، الأمير فردريك ، القاسى الفؤاد .

وما وقع نظر الأمير على الشاعر ، حتى هاجت فى صدره كوامن

الحقد . . . وعقارب الغيرة !

ذلك لأن الشاعر زاتك كان أشـدّ أعداء الامبراطورية خطراً ، وأبعد الوطنيين البوهيميين حماساً .

وكان يحبّ المرأة التى كان الأمير نفسـه يحبها أيضاً ، وكانت تلك المرأة الجميلة الفاتنـة تميل إلى ابن جنسها زاتك ، وتفضـله على الحاكم الأجنبى الدخيل .

نظر فردريك إلى الشاعر الثائر ، وتطاير الشرر من عينيه ، وصاح به قائلا :

— ستلاقي جزاءك يا ابن اللئام فى قلعة سبلبرج، حيث أمرنا باعتقالك مدى الحياة !

— وأمر زبانيته بأن يبقوا الشاعر الأسير فى قصره إلى أن يبت فى أمره .

وما كاد الجنود يخرجون بالأسير، حتى دخل حاجب ، وقال لمولاه إن امرأة باكية تصيح أمام باب القصر طالبة المثول بين يديه .

أذن فردريك بادخالهـا فدخلت ، وإذا به أمام المرأة التى يحبها ـ « زوفكا » الحسـناء البارعة الجمال ـ خليلة الشاعر زاتك ، وعدوّة النمسـويين ، وصديقة جميع العاملين لخير بوهيميا ولإنقاذ التشـك من نير الأجانب .

ألقت المرأة نفسها على الأرض ، وأكبت على قدمى الحاكم النمسوى ،

تقبلهما ، وتسكب عليهما الدموع ، وتصعد الزفرات قائلة :

— الرحمة ! الرحمة يامولاى ! اشفق عليه ! أعف عنه !

فنهض الأمير من مكانه ، وأخذ المرأة بذراعها ، وهمس فى أذنها :

— إنك تحبينه كثيراً . . . تحبينه إلى حدّ ما كنت أتصوّره وأتخيله يازوفكا . . . انهضى . . انهضى وخففى من روعك !

نهضت المرأة وجعلت تحدق البصر فى الحاكم الغريب ، وقد هالها مجرّد التفكير فى أن حبيبها سيطرح فى سجن القلعة ؛ فى سبلبرج ، ذلك القبر الذى يدخل إليه المعتقلون ولكنهم لا يخرجون منه أبداً !

وقال الأمير النمسوى :

— إن الشاعر زاتك عدو خطر . وطالما حذرته من الاسترسال فى غوايته والامعان فى ضلاله . لكنه لم يصغ إلىّ ولم يرعو ، فلا سبيل معه إلى الرحمة والشفقة ! أعلم ياسيدتى أنك خليلته ، وأنك تحبينه . وكل ما أستطيع صنعه ، هو أن أسمح لك برؤيته للمرّة الأخيرة ، قبل إرساله تحت الحفظ إلى قلعة سبلبرج ، مقرّه إلى الأبد !

وأمر الحاكم بادخال الشاعر فجىء به ، وكان رافع الرأس ، شامخ الأنف ، برّاق العينين ، موثق اليدين . . .

وخيل إلى زوفكا ، الحبيبة الحزينة ، أن نظرها لم يقع قبل ذلك اليوم على رجل أجمل من هذا !

ودار بين العدوين ، الأمير والشاعر ، الحديث الآتى :

— هل أنت واضع النشيد الذى يردّده التشك ، فى هذه المقاطعة النمسوية ، ويتغنون به فى كلّ مكان ؟

— نعم . أنا واضع النشيد الذى يردّده التشك فى وطنهم المستعبد ، ويتغنون به فى ربوعهم الخضراء ، وجبالهم الشامخة !

— وإلى من أردت أن تسىء فى نشيدك هذا ؟

— إلى النمسا، وإليك يافردريك، ياممثل الطغاة ومندوب السفاحين!

— أتعترف بذنبك ؟

— أعترف بما صنعت . ولك أن تسمى ذنباً جهاد فرد فى سبيل حرية وطنه واستقلاله !

— إنك لوقح !

— الوقح من يعتدى على حقوق الغير !

— سأخفض رأسك وكبرياءك !

— أما رأسى فيمكنك أن تخفضه أمام سيف الجلاد . وأما كبريائى فلن تستطيع قوّة فى العالم أن تخفضها !

— لقد أردت أن تجعل الأمير فردريك سخرية بين أبناء جلدتك . والأمير فردريك بدوره سيجعلك يازاتك سخرية بين الناس أجمعين . وسوف نرى ونضحك كثيراً !

وأشار الأمير إلى اثنين من رجاله ، فتقدما ، وأمسك كلّ منهما بذراع الشاعر ، وساقاه أمامهما إلى حجرة مجاورة .

وأرادت زوفكا أن تلحق بحبيبها ، فحال الجنود بينها وبين رغبتها .

فوقفت فى مكانها ، مصغية ، مرتجفة ، شاحبة !

ساد فى المكان سكون كسكون القبور ، ثم سمع صرير مزعج ، ووصلت إلى أذن المرأة، من خلال الجدران ، تنهدات وزفرات ، وخيل إليها أنها أمام قبر يتصاعد منه أنين عميق . . .

ومرّت الدقائق كأنها أجيال !

وفتح الباب من جديد ، ودفع الجنود إلى داخل القاعة شخصاً ممزّق الثياب ، ملطخاً بالدم ، مجدوع الأنف ، مقطوع الأذن !

ورفعت زوفكا يديها إلى وجهها ، كيلا يقع نظرها على ذلك المشهد الهائل ، وصاحت صيحة عالية ، وارتفعت فى آن واحد ، فى جوّ ذلك المكان ، قهقهة الأمير وحاشيته !

زاتك ، الشاعر الجميل ، أصبح الآن خرقة آدمية بالية ، تسيل منها الدماء ، وتشمئزّ من النظر إليها العيون !

وقال الأمير :

— سيهزأ منك الناس كما أردت أن يهزءوا منى !

ثم التفت إلى المرأة وصاح :

— هذا هو حبيبك أيتها الحسناء . ! . انظرى إليه، وليتبعه حبك إلى حيث يذهب !

وشعرت زوفكا بعواطف متباينة متضاربة تتلاطم فى صدرها :

أتلقى بنفسها بين ذراعى حبيبها المهشم الممزق ؟ أم تشيح عنه بوجهها ؟

وبينما المرأة تتخبط فى حيرتها ، ارتفع من جديد صوت الأمير فردريك صائحاً :

— والآن . . . احملوا هذا المهرج البشع إلى سجون سبلبرج !

فردت عليه صيحة مفجعة ، صيحة لاتنطلق إلا من حنجرة الحيوان المفترس، الذى يحيط به الصيادون من كل جانب ، صيحة هائلة مخيفة !

أرسل زاتك المسكين تلك الصيحة ، وأراد أن يقترب من حبيبته وخليلته . . .

لكنها أعرضت عنه ؛ ورفعت عينيها إلى الأمير الجميل ، الممتلىء صحة وعافية ، الجالس على مقعده الوثير ؛ وارتسمت على ثغرها ابتسامة حلوة ؛ ابتسامة الرضى والارتياح !

* * *

ثمانية أيام مرّت على الشاعر زاتك فى سجنه المظلم ، فى تلك البئر المحفورة فى الصخر ، التى يلقى فيها الأسرى المساكين ، ولا يرون النور إلا من كوة صغيرة فى سقف البئر العميقة .

ثمانية أيام مضت عليه، وهو لايفكر فى آلامه وما قاساه من عذاب ، أكثر مما يفكر فى تلك المرأة الخائنة ، التى لم تنتظر خروجه ، بل ألقت بنفسها بين أحضان عدوّه: وصفعته تلك الصفعة المؤلمة ، أمام ذلك الجمع من القوّاد والجنود ؟

وكان الشاعر يردد قول القائلين : ان المرأة لا يؤمن شرّها !

وسمع فجأة حركة فى سقف البئر !

رفع نظره ، فأخذت عيناه نوراً ضئيلا من خلال الثقب الصغير .

وارتفع غطاء البئر ، فعمّ النور ذلك المكان الذى لم تر أرضه النور منذ سنوات .

وظهررجل ، وظهرت بجانبه امرأة ، وتكلم الرجل ، وتكلمت المرأة، فعرف زائك صوته وصوتها !

الأمير الغريب والحبيبة الخائنة !

كانت تقول له :

— انظر يا معبودى العزيز . انظر إلى عدوّك فى قبره . لقد قضيت عليه وأنا أحبك من أجل هذا . . يامعبودى العزيز !

هذا الصوت صوتها ! يا للمخلوقة القذرة ! إنها تعانق الأمير ! لقد جاءت تهزأ بالسجين المعذب المسكين ! جاءت تعطيه برهاناً جديداً ، حسياً ، ملموساً ، على خيانتها وفسقها !

لم يتمالك الشاعر نفسه ، فصاح من أعماق قبره :

— عليك اللعنة ياابنة حواء . ! . عليك ألف لعنة أيتها الفاجرة ! عليك لعنة الله ولعنة الوطن معاً . ! .

ولكن . . ماذا حدث ؟

صرخة مرتفعة . . . استغاثة خوف و يأس . . . شيء يهوى من أعلى البئر إلى أسفله . . . جسم يسقط بجانب السجين الهائج !

وصوت زوفكا يصيح :

— آه .!. زاتك ، حبيبى زاتك ! مارأيك فى هذا . ؟. أما أحسنت فى انتقامى لك ؟ خذه . ! . خذه . ! . الطاغية بين يديك الآن . ! . ألقيت به فى البئر ، فاخمد أنفاسه إذا كان لايزال على قيد الحياة ! اقتله . ! . انتقم لنفسك كما انتقمت لك من عدوك !

نظر زاتك إلى الجسم الملقى بجانبه ، فاذا به أمام الأمير فردريك ، الحاكم النمسوى الغليظ الكبد ، الذى عذبه ، وسجنه ، وأغرق وطنه فى بحر من الدماء !

فاقترب السجين من الطاغية ، وجثا على ركبتيه ، وقال بهدوء :

— انظر . . . انظر يافردريك ماذا صنعت بى ! لكنك الآن فى قبضتى ، وسأنتقم منك لنفسى ولجميع الضحايا الذين سفكت دماءهم الذكية . . سأقتلك . . ستموت خنقاً بيدى !

وقالت زوفكا :

— أسرع . . أسرع قبل أن يصل أحد إلى هنا . ! .

فقبض زاتك بيديه على عنق عدوه الأمير النمسوى السفاح ، وهم بخنقه . . .

لـكن الأمير رفع رأسـه قليلا ، وتنهد ، وقال بصـوت خافت ضعيف :

— أتألم . ! . أتألم . ! . ماء . . . أريد جرعة ماء . ! .

وردّدت زوفـكا بالحاح :

— أسرع . . أسرع . . أسمع أصواتاً تقترب . . أسرع فى القضاء عليه قبل أن يدركنا الحرس !

وردّد الأمير بصوته الخافت ، الضعيف :

— جرعة ماء . ! . جرعة ماء . ! . أتألم . ! .

وشعر زاتك ، الشاعر المهشم المعذّب ، بأن قواه تخونه ، و بأن يديه لن تستطيعا خنق عدوّ ضعيف أعزل يتألم !

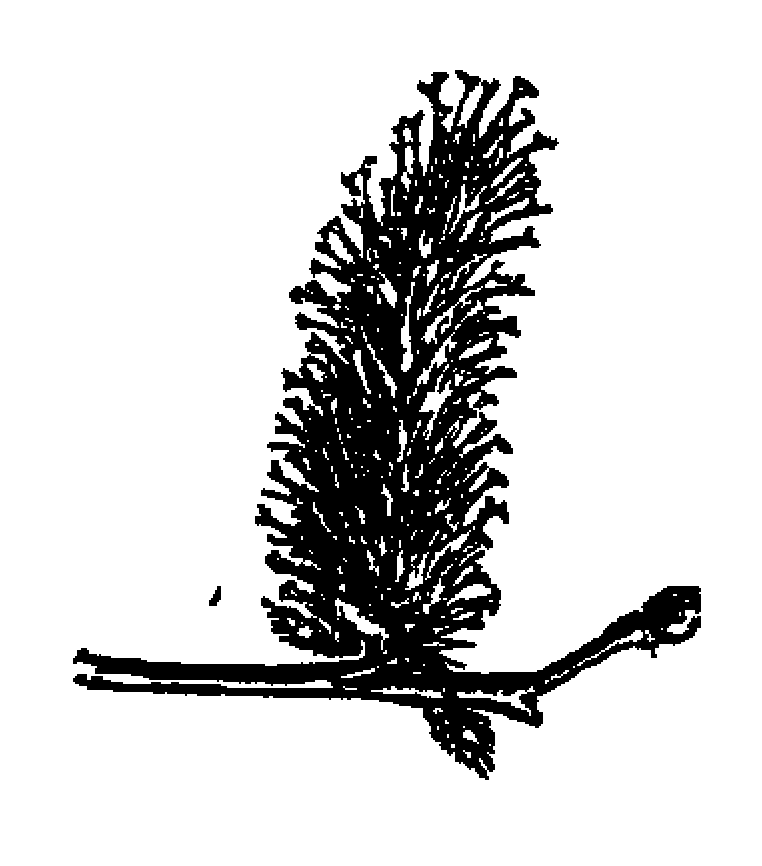
فنهض على قدميـه ، وذهب إلى ركن من أركان البئر ، كان يضع فيه إبريق المـاء ، وأسرع إلى جلاده النمسوى ، وجثا ثانية على ركبتيه ، وأخذ رأس الأمير فردريك بيسراه ، وصبّ له المـاء فى فمه بيمناه !

هـذا مافعله الشاعر زاتك ، ابن بوهيميا المستعبدة بالأمس ، الحرّة اليوم ، بالحاكم النمسوى فردريك دى هابسبورج !

وهكذا انتقمت خليلة الشاعر لحبيبها من الأمير الأجنبىّ الطامع فيها !

٢١٢

وهذا مايقصه عليك الرواة فى تشكوسلو فاكيا ، إذا ما طلبت إليهم أن يحدثوك عن شاعرهم الوطنى القومى ، زاتك النبيل الأبىّ ، الذى صفح عن رجل أراد قتله ، وأنقذ حياة جلاده !



١٨
ابنــة الحداد

أقام اللورد هاملتون ، سفير بريطانيا العظمى فى نابولى ، حفلة استقبال باهرة ، إكراماً لقائد الأسطول الأميرال نلسون ، الذى نزل ضيفاً على السفارة الانجليزية ، فى طريقه إلى لندن ، بعد أن طارد السفن الحربية الفرنسية فى البحر الأبيض، وشرّد بعضها وأغرق البعض الآخر.

غصت قاعات السفارة بمئات المدعوين من رجال السياسة والجيش والعلم ، وبدت « اللادى هاملتون » زوجة السفير ، فى أبهى حلة من الجمال والتأنق وما وقع عليها نظر القائد البحرى الكبير ، ولمست يداه يديها ، حتى أخذ بسحر عينيها . وشعر بأن سهاماً حادّة تنطلق من بين تلك الأجفان ، وتخترق صدره ، وتنفذ إلى قلبه ، وإن ذلك القلب الذى لم يعرف الخوف ، ولم يخفق لحبّ ، قد أصبح منذ تلك اللحظة لزوجة السير جون هاملتون الفاتنة عبداً أسيراً .

هام نلسون بحبّ « اللادى هاملتون » هياماً جنونياً . وأوشك فى كثير من الأحيان أن ينسى واجبه من أجلها . ومرّت الشهور والأعوام ، وهو يذهب لقضاء مهمة ، أو لإحراز فوز جديد يضيفه إلى انتصاراته السابقة ، ثمّ يعود إلى المرأة التى ملكت قياده وتسلطت على فؤاده . فيقضى بين ذراعيها ساعات ، كان ذلك الجندى العظيم يعتبرها ألذّ ساعات حياته وأحلاها .

وعلم اروج بالعلاقة الأثيمة التى تربط زوجته الجميلة بذلك القائد الشابّ ، الذى يفوقه قوّة ونشاطاً وشهرة وجمالا . لكنه لم يتعرض للعشيقين ، ولم يؤنب زوجته على سلوكها المعيب وخيانتها الفاضحة ، بل لزم الصمت ورضى بالأمر الواقع ، فدوّن التاريخ فى صفحاته ذلك الحادث الغريب العجيب : زوجة رجل تعيش مع عشيقها فى منزل زوجها ، وبمعرفته ورضاه !

* * *

مرّت سنوات على ذلك اليوم الذى عرف فيه نلسون عشيقته الحسناء ، ولم يحدث فى خلال تلك السنوات ما يعكر صفو هنائهما وسعادتهما . فان القائد كان مخلصاً فى حبه ، وكانت اللادى مخلصة فى حبها ، وكان زوجها مخلصاً فى بقائه على الحياد !

وفى ليلة من ليالى الشتاء ، اختلى نلسون بحبيبته فى حجرتها ، وبعد أن ارتشف الاثنان كأس الغرام مترعة ، وسكرا بنشوتها ، قال

الأميرال ، وهو يداعب شعر اللادى ، وقد استرسلت غدائره على كتفها العارى :



اللادى هاملتون

— لى رجاء أريد أن أفضى به إليك أيتها الحبيبة العزيزة . فهل تعديننى بأنك ستطلعينى من جهتك على الحقيقة كلها ؟

فأجابت المرأة . وقد طوّقت عنق الرجل بذراعيها :

— وهل فى استطاعتى أن أرفض لك طلباً أيها الحبيب العزيز ؟

فطبع نلسون على ثغر اللادى قبلة حارّة وقال :

— لقد أوعيت الألسنة فى التحدث عنك ، وإذاعة الأخبار المتناقضة المتباينة عن ماضى حياتك ، فهل لك أن تطلعينى على تلك

الحياة وأطوارها ؟ وتخبريني بما تخللها من حوادث أيا كانت ؟ إنني أتركك من وقت إلى آخر للذهاب بعيداً على ظهر سفينتي الحربية ، دون أن أعلم إذا كنت سأعود إليك أم لا ، وإذا كان يجب عليّ أن أقول لك « إلى اللقاء » أم « الوداع ! » فأريد ياحبيبتي أن ألمّ بأسرار حياتك جميعها ، وأن لايفوتني شيء من ماضيك . فهل لك أن تطلعيني على ما أرغب فى الاطلاع عليه ؟

* * *

فقصت اللادى هاملتون قصتها على الأميرال نلسون . قالت :

« كان أبى حدّاداً فى قرية صغيرة بانجلترا . وقد مات تاركاً أمى فى حالة من الفقر تدعو إلى اليأس . لكنها كانت شجاعة قوية البنية ، فجعلت تشتغل وتبحث لى أيضاً عن عمل أعمله من جهتى ، لكى نتمكن من القيام بنفقات معيشتنا ، فدخلت فى خدمة أسرة انجليزية نبيلة ، ثمّ انتقلت إلى غيرها فغيرها فغيرها، وذقت فى كل منها ما لابدّ أن تذوقه فتاة خادمة ، أفرغت فيها الطبيعة محاسن كثيرة . فقد حام حولى فتيان تلك الأسر الشريفة كما يحوم الذباب حول الحلوى ، وشعرت بأن شرفى وعفافى فى خطر عظيم .

« أفضيت إلى أمى بمخاوفى . فوافقتنى على وجوب الانتقال من الأقاليم إلى العاصمة ، حيث يتسع ميدان الرزق . وتتعدّد أبوابه ، فسافرنا إلى لندن .

« كنا نظن أننا نتقى شراً ، فوقعنا فى أسوأ منه !

« أدخلتنى والدتى فى خدمة رجل من الموسيقيين ، ثم فى خدمة آخر يشتغل بتموين السفن ، ففى خدمة طبيب لم يلبث أن طردنى من بيته ، لأنه فاجأنى مرّة أمام المرآة ، أعجب بنفسى ، وأتهادى أمام صورتى ، وقد ارتديت ثياب زوجته ، وحليت عنقى وصدرى وذراعى بجواهرها !

«ومنذ ذلك الوقت ، بدأت أشعر بميل غريب إلى التأنق والتبرج ، واستولت علىّ فكرة لازمتنى سنوات عديدة ، وهى أن أستخدم جمالى للحصول على الثروة والخروج من الفاقة التى كنت أعانيها .

« و بعد خروجى من منزل ذلك الطبيب بأسابيع ، خدمت فى منزل ضابط من ضباط البحرية ، ثم انتقلت إلى عيادة طبيب آخر يدعى « جراهام » من أولئك الذين يعالجون المرضى بالتنويم ، ومخاطبة الأرواح ، وكتابة الطلاسم . وهناك ، فى تلك العيادة المظلمة ، كنت أقوم بما يطلب منى الطبيب القيام به ، فأنام عند ما يأمرنى بالنوم ، وأصحو عند ما يريد ذلك ، فذاعت شهرتى فى المدينة ، وأصبح اسم « ايما » على جميع الألسنة .

« وعرفنى فى تلك العيادة كثيرون من الأشراف والنبلاء والعظماء ، وأحاطونى بأنواع التكريم والاغراء والاغواء . هذا يعرض علىّ مالا ، وذلك يعرض علىّ جاهاً ، وذلك يعرض علىّ اسماً مشهوراً ، فعثرت

قدماى للمرّة الأولى ، وزلت بى الخطى . فجنحت عن السبيل السوى ، ووقعت فى الهوّة التى كان لا بدّ لى من الوقوع فيها . وأناوحيدة فى ذلك الوسط الموبوء ، لا مرشد لى ولا معين ولا نصير !



اللادى هاملتون

« أحبى رجل من الأسراف يدعى « لورد جريفيل » ولعلك تعرفه ، فخرجت من خدمة الطبيب جراهام ، وأقمت مدة من الزمن فى قصر اللورد ، وأصبحت خليلته ، و بقيت على تلك الحالة أكثر من سنة

« لكن اللورد كان يطمع فى التمتع بمحاسنى ولا يحبنى . وعند ما أشبع حواسه من جمالى ، ألقانى بين يدى صديقه الرسام « رومنيه » الذى صنع لك رسماً بديعاً منذ سنوات !

« اتخذنى الرّسام رومنيه نموذجاً ومثالا ، و بلغ إعجابه بى مبلغاً عظيما ، وما لبث هو أيضاً أن كاشفنى بغرامه كالآخرين . لكننى أعرضت عنه ، وأوشكت أن أترك العمل عنده ، لولم يقسم لى أنه لن يعود إلى مكاشفتى بعواطفه ، ولن يحدثنى عن شىء لا علاقة له بالرسم والرسوم .

« وأقام رومنيه ذات يوم معرضاً جمع فيه أبدع ما صنعه فى حياته الفنية من صور ريتية . ورسوم خالدة . فتوافد عظماء البلاد على ذلك المعرض ، وكنت أستقبل الزائرين وأرحب بهم ، فعرفنى السير جون هاملتون . . ولا أظننى فى حاجة إلى أن أقول لك من هو السير هاملتون ! فاننا نحونه الآن ، نخونه منذ سنوات وهو عالم بالخيانة راض بها ساكت عنها !

« كان هاملتون فى ذلك الوقت حديث العهد فى سفارة انجلترا بنابولى ، فدعانى إلى زيارته فيها ، مع والدتى ، وسافرنا إليها بعد رحيله عن انجلترا بعشرة أيام .

« وهناك ، أقمت فى دار السفارة معزّزة مكرّمة ، وكان السير العاشق يضع تحت قدمى ثروته وسلطته ونفوذه واسمه ومنصبه ، فأحيا الحفلات وأقام الولائم . وتمكنت بواسطته من الوصول إلى الملكة مارى كارولين ، ملكة نابولى ، فلقيت حظوة لديها ، وأصبحت صديقة لها . وما مضت شهور معدودة على إقامتى فى نابولى ، حتى أحرزت شهرة واسعة ، أثارت صدى حسد الكثيرات من نساء الأشراف والسفراء

« وعرفت شاعر ألمانيا « غوث » العظيم ، الذى أفاخر بأنه كان من المعجبين بى ، وقد كتب عنى قطعة خالدة سوف تتناقلها الأحقاب جيلا بعد جيل !

«لكن إقامتى فى دار السفارة الانجليزية كانت موضوع قيل وقال ، لأن الناس كانوا ينظرون إلىّ نظرهم إلى خليلة السفير التى لاتربطها به رابطة شرعية قانونيـة ، فأدرك هاملتون ، وأدركت معه أن بقاء الحالة على ما كانت عليه، فيه خطر على سمعة السفير ومنصبه ، فعزمنا على أن نعقد زواجنا ، وأفضى السير هاملتون إلى الملكة مارى كارولين و إلى أهله وذويه برغبته تلك .

« وكان ما كان من صراخ وهياج واعتراض واحتجاج ، وحاول الجميع أن يمنعوا ذلك الزواج ، وانطلقت الألسنة تعدد مساوىء حياتى وتكشف عن ماضى ، وترمى السير هاملتون بالجنون والخروج على تقاليد الأشراف .

«لكنه لم يأبه لأقاويل الناس ، ولم يحسب لأحد حساباً ، بل ظلّ متمسكا برغبته ، وفى اليوم السادس من سبتمبر سنة ١٧٩١ عقد زواجنا فى لندن ، وأصبحت « ايما » ابنـة الحداد الوضيعة الخاملة ، سـفيرة بريطانيا العظمى فى مملكة نابولى !

« ومنذ ذلك الوقت ، تغيرت الأحوال بتغير الظروف ، وشعرت بأن مركزى الاجتماعى يجب أن يظلّ مصاناً من العبث ، وصرت لزوجى

مطيعة مخلصة ، ولبلادى خادمة أمينة . و إذا كنت قد أتيت فى حياتى أعمالا يأباها الشرف وتمجها الأنظمة القائمة ، فاننى قد أعقبتها بأعمال أخرى يجب أن تحسب لى ، وأن يذكرها المؤرّخون ، عند مايعدّدون مناقب الأفراد الذين خدموا وطنهم ووضعوا فى سبيله نفوذهم . و إذا كانت انجلترا قد استطاعت أن تحرز فى ميدان السياسة ، فى نابولى وغيرها من الأقطار المرتبطة بها ، انتصارات تتبعها انتصارات ، فانما الفضل فى ذلك عائد إلى الأشخاص الذين كانوا يمثلونها ، و يعملون لحسابها ، وأنا منهم ! وهذا الجمال الفتان ، الذى أسر قلوب الرجال فى انجلترا ونابولى وغيرها ، هذا الجمال الفتان ، الذى أصبح الآن ملكا للاميرال نلسون العظيم ، قد خدم الوطن الذى انتمى إليه ، بقدر ما خدمه نبوغ السياسيين و إقدام القوّاد !

« وقد عرفتك على أثر زواجى أيها الحبيب ! فوهبتك قلبى ، ووهبتك جسمى ، ووهبتك حياتى . و إذا كنت الآن أعلل النفس بأمنية ما ، فانمـا أعللها ببقائك حيا تخلص لى الحبّ ، وتخلص لوطنك الخدمة !

« لقد حـدت مراراً عن جادة الصواب ، وانغمست فى الملذّات ، وأطلقت لشهواتى العنان ، وصنعت ما تصنعه النساء المتهتكات . لكننى عدلت بعد ذلك عن سيرتى الأولى ، فأنا جديرة بحبك واحترامك !



الأميرال نلسون

« هذه قصتي ، أفضيت بها إليك كاملة غير ناقصة ، دون أن أخفى عنك شيئاً من خباياها ، أو أكتم عنك سراً من أسرارها ! »

* * *

ظلت اللادى هاملتون عشيقة لذلك القائد العظيم إلى أن مات زوجها فى سنة ١٨٠٠ ، فرزقت من « هوراس » نلسون بطفلة أطلقت عليها اسم « هوراسيا ». وفى سنة ١٨٠٥ قتل الأميرال فى واقعة « الطرف الأغرّ » الشهيرة ، ففقدت « إيما هاملتون » بموته كلّ أمل وكل عزاء . . .

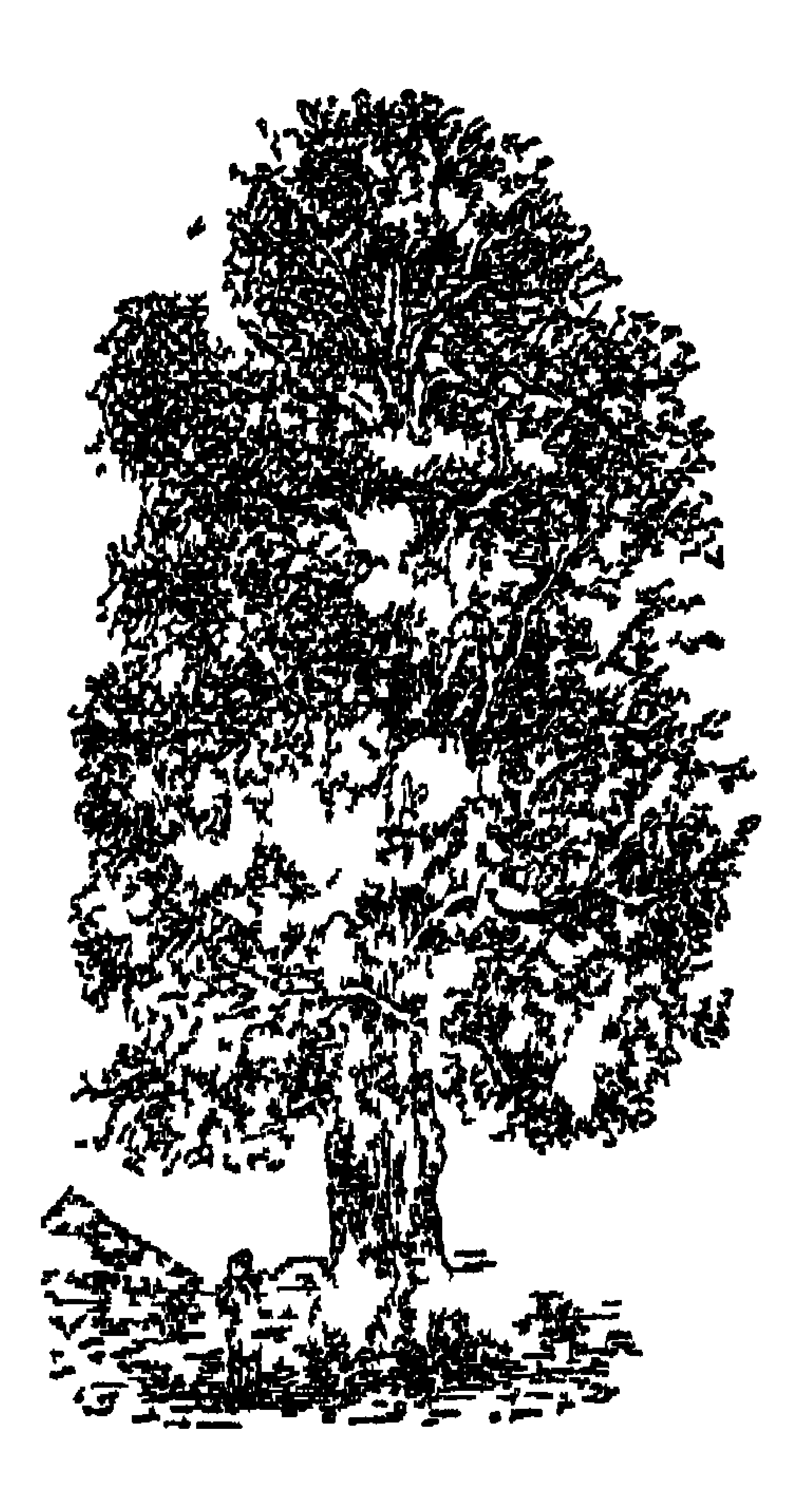
وهجرت لندن إلى قرية صغيرة فى الأقاليم ، وكانت قد أضاعت ثروتها ، فتبعها الدائنون ، وضيقوا عليها الخناق ، وجعلوا حياتها أشبه بالجحيم . . .

لم تطق صبراً على الذلّ والفقر بعد العزّ والغنى ، فماتت معدمة لاتملك من حطام الدنيا شيئاً ، وراحت ضحية المرابين الذين جرّدوها من كلّ شىء ، عند ما أصبحت وحيدة مهيضة الجناح ، بعد أن كانوا يتمرّغون على قدميها ، وهى عزيزة الجانب واسعة الجاه !

ودفنت ، بناء على رغبتها ، بين زوجها اللورد وعشيقها الأميرال .

أما ابنتها هوراسيا ، فقد عنيت شقيقات نلسون بتربيتها وتعليمها . وعند ما بلغت سن الزواج ، اقترنت بأحد نبلاء الانجليز ، الذى نسى أو تناسى أن الزوجة التى وقع عليها اختياره هى ثمرة غرام فاسد !





١٩

شهيد الوفاء

دافع الفرنسيون عن القرية دفاع الأبطال الأمجاد ، وسقطوا جميعهم فى ساحة القتال صرعى أو جرحى ، واستولى الألمانيون على ماتبقى من منازل القرية وأسواقها ، وقد دمرتها المدافع وأكلتها النيران .

وكان بين الجرحى شابّ فى الثانية والثلاثين من عمره ، أصيب برصاصة فى فخذه الأيمن ، فسقط فى ساحة الكنيسة ، حيث أغمى عليه.

ولما أفاق من غشوته ، وجد نفسه فى أحد المستشفيات ، وراء صفوف المقاتلين ، و بجانبه راهبة تواسيه ، وطبيب يضمد جراحه .

نظر إليهما الشاب نظرة ملؤها الشكر والعرفان بالجميل ، وحاول أن يتحرّك ، لكن ألمه كان شديداً فأرسل أنة عميقة ، واستلقى من جديد على فراشه .

اقتربت منه الراهبة وقالت بصوت حنون :

— أتتألم كثيراً يا بنىّ ؟

فرفع الشاب الجريح بصره وأجاب بصوت ضعيف :

— كثيراً يا أختى ! . . كثيراً . . . كنت أوثر الموت فى ساحة القتال على البقاء حياً . . . هكذا . . . جريحاً . . . دامى الجسد والنفس . . .

فقاطعته الراهبة الممرّضة :

— لا تيأس يا ولدى ! فسوف تشفى من جرحك هذا ، وتعود إلى القتال إذا شئت .

— إذا شئت ؟ . . هذا ما أرغب فيه . . . فقد حرمت من لذّة الانتقام لصديقى . . . ولم أبرّ بالعهد الذى قطعته على نفسى . . .

— وأىّ عهد قطعت على نفسك ؟

— أن أنفذ وصية الضابط « دومارسيه »

— من مدينة مرسيليا ؟

— أجل . . . أتعرفينه ؟

— أعرفه جيداً . . . فقد أصيب بجرح منذ ثلاثة أشهر . . . وساعدنى الحظ فكنت الممرّضة التى اعتنت به ، وانتشلته من مخالب الموت .

— لقد أنقذ والده والدى ، وتبناه ورباه فى منزله . . . لكن هذه القصة لاتهمك . . .

— بل تهمنى . . . قصها علىّ . . .

فسكت الشاب واغرورقت عيناه بالدموع . . . ثمّ قال :

— اصغى إلىّ يا أختى . . . وإذا ما قضيت نحبى فى هذا المستشفى، ولم أعد إلى مرسيليا حيث تنتظر زوجة دومارسيه رفيق حياتها ووالد بنيها . . . فرجائى الوحيد إليك أن تحملى إليها خبر موته . . . وموتى . . .

— تكلم يا بنىّ .

— اعلمى أوّلا أننى لست من أبناء هذه البلاد . . .

— كيف ذلك ؟ . .

— أنا مصرىّ الأصل ، فرنسىّ المولد والتربية . . . كان جدّى من المماليك الذين استعان بهم القائد بونابرت فى حروبه وفتوحاته ، وكان يدعى « أحمد الفارسى » . . . جاء مع بونابرت إلى هذه الديار ، عند ما عاد إليها ذلك الفاتح العظيم ، وظلّ فى خدمته منذ ذلك الوقت إلى أن وافاه الأجل .

— وأبوك ؟ . .

— ترك جدى ولداً وحيداً يدعى مصطفى ، فأخذه الضابط جول

دومارسيه إلى بيته ، حيث عاش اليتيم مع أبناء الضابط الفرنسى ، كأنه واحد منهم .

— وجول دومارسيه . . .

— هو والد الضابط « إدريان دومارسيه » صديقى هذا . . .

— وهل اعتنق أبوك الدين المسيحى ؟

— كلا . . . بل ظلّ يدين بالإسلام وقد تزوج بابنة عمّ منقذه جول دومارسيه . . . ورزق منها ولداً واحداً . . .

— هو أنت ؟

— هو أنا . . أجل . . .

— وهل مات والدك ؟

— منذ عشرين سنة ، وكنت حينذاك فى الخامسة من العمر .

— ومنذ ذلك الوقت ؟

— منذ ذلك الوقت ، عشت مع أدريان دومارسيه وإخوته . . . ثمّ انتقلت معه إلى منزله عند ما اتخذ له زوجة ورزق أبناء . . . وكانوا يعدوننى واحداً منهم . . .

— ألم تتزوّج ؟

— كلا . . . وكنت عازماً على البقاء أعزب طول حياتى . . .

— وبعد ؟

— هبت العاصفة الهوجاء ، وأطلقت الحرب من عقالها ،

واكتسح الجنود الألمانيون هذه البلاد من شمالها إلى قلبها ، وانتشروا فى المدن والقرى ، يطلقون أيديهم فى السلب والنهب والقتل !

— ما أفظع الحروب وأهوالها !

— أجل . . . الحرب فظيعة والقائمون بها مجرمون سفاكون !

— وما حملك على الاشتراك فيها ، وأنت غريب عن هذه الديار ؟

— لست غريباً بالمعنى الصحيح . . . فانّ الدم الذى يجرى فى عروق مزيج من الدم الفرنسى والمصرى . . .

— وهل تطوّعت من تلقاء نفسك ، أم دفعك الضابط دومارسيه إلى ارتداء هذا الثوب العسكرى ؟

— تطوّعت من تلقاء نفسى . . . فقد دعى صديقى الضابط إلى الصفوف ، وطلبت إليه أن يدعنى أصحبه وأقاتل معه جنباً إلى جنب . . .

— وهل خضت غمار معارك كثيرة ؟

— شاهدت أربعين معركة واشتركت فيها جميعها .

— ولم تصب بأذى ؟

— كلا . . . لكن دومارسيه قتل منذ شهرين فى موقعة دامية ، فى مقاطعة شمبانيا . . .

— وكنت بجانبه ؟

— كنت بجانبه . . . وقد سقط بين ذراعي مضرجاً بدمه . . .

فالتفت إلىّ وقال « يوسف . . . إليك وصيتى الأخيرة . . . انتقم لى . . . حياتى تساوى حياة عشرين من الأعداء . . . فعدنى أنك ستقتل منهم عشرين رجلاً . . . فتوفى بذلك دينك لى . . . »

— وهل وعدته بذلك ؟

— وعدته وأدمت وعدى بالقسم !

— وهل قمت بالوعد ؟

— قتلت ثمانية ضباط من الألمانيين . . . وأصبت بعد ذلك بهذا الجرح الخطر . . . الذى سوف يقضى علىّ . . . فيحول موتى دون تنفيذ وصية الميت إلى النهاية . . . وهذا ما يؤلمنى أكثر من هذا الجرح الدّامى !

* * *

قال الجندى هذا وأغمى عليه من جديد ولم يفق بعد ذلك . . .

ومات « يوسف » فى ذلك المستشفى ، حزيناً ، يائساً ، لأن القدر القاسى لم يساعده على القيام بعهده ، والانتقام لصديقه .

حصده ملاك الموت قبل الأوان . . .

بكت الراهبة الممرّضة حزناً عليه ، وعزمت على تنفيذ وصيته الأخيرة ، فحملت إلى أسرة دومارسيه خبر الوفاة .

فبكت الزوجة زوجها ، والأبناء أباهم . . .

وأكبروا جميعهم عمل الشابّ المسكين ، الذى قذف بنفسه إلى الحرب ، وقابل الموت بثغر باسم ، وشجاعة عظيمة ، اعترافاً منه بفضل صديقه الكبير عليه ، وتنفيذاً لما أوصاه به الميت قبل استشهاده .

وبكت الزوجة والأبناء ذلك الأخ المخلص ، يوسف الفارسى ، ابن مصطفى الفارسى ، وحفيد المملوك أحمد الفارسى المصرى ، الذى قضى تحت سماء فرنسا ، فى سبيل الواجب وشهيد الوفاء .





٢٠

عبد السميع المغربى

فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سـنة ١٨٤٨ ، وصـل الأمير عبد القادر بن محيي الدين الجزائرى إلى مدينـة أمبواز الفرنسية ، ومعه نساؤه وأبناؤه و بعض الأخصاء من أنصاره ومريديه ، وأقام مع تلك الحاشية الـكبيرة فى القصر الفخم الذى أعدّته له الحـكومة الفرنسية .

كان ذلك البطل العظيم والقائد المغوار قد حارب الفرنسـيين ، ونازعهم أرض آبائه وأجداده ، وحاول أن يردّ جيوشهم الجرارة عن وطنه الجزائر ، فابتسم له الحظ حيناً ، وعبس فى وجهه أحياناً ، وانتهى الأمر بأن دارت الدائرة عليه ، واسـتولى الفرنسيون على تلك البلاد العربية من ساحلها إلى أقصى صحاريها ، وفى مساء اليوم الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٤٧ ، سلم عبد القادر بن محيي الدين سيفه وجواده لقائد الفرنسـيين ، الذى قطع على نفسـه عهداً باسم حكومة

بلاده ، بأن يفتح الطريق حراً أمام البطل الجزائرى ، ويدعه يسافر إلى البلاد التى يختارها من الأقطار الشرقية .

لكن حكومة الجمهورية الفرنسية الثانية لم تقم بالعهد الذى قطعه القائد للأمير ، فأرسل عبد القادر أسيراً إلى فرنسا ، وظلّ فى قصر امبواز من سنة ١٨٤٨ إلى سنة ١٨٥٢ ، وهى السنة التى غادر فيها المدينة الفرنسية ، وسافر إلى الشرق ، وأقام فى دمشق بقية حياته الحافلة بعظائم الأعمال .

وكان بين الذين وافوا عبد القادر بن محيي الدين إلى منفاه فى أمبواز رجل من أتباعه وجنوده يدعى عبد السميع المغربى ، أبى إلا أن يشاطر أميره الضرّاء بعد أن شاطره السرّاء ، وأن يخلص له الخدمة إلى النهاية، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، كما أخلصها له فى مضمار الجهاد ، وميدان القتال .

وكان الأمير يحبّ ذلك الجندى المخلص والخادم الأمين ، ويحفظ له الجميل على صنعه ، ولا ينسى له التضحية التى قام بها بهجره وطنه وأهله وخلانه ، للحاق به إلى ديار النفى والعزلة ، ومما قاله له مرّة عبد السميع المغربى : « إننى يا مولاى قد شطرت قلبى إلى شطرين ، شطر وهبته لله عزّ وجلّ ، وشطر وهبته لك ما دمت حياً ! . »

لكن المغربى لم يشعر ذات يوم إلا وقد حلّ فى قلبه المشطور إلى شطرين شخص لم يكن بالانتظار ، ولم يحسب له الرجل من قبل

حساباً ، فاضطره ذلك إلى إعادة التقسيم وإلى تجزئة قلبه بالرغم منه إلى ثلاثة أجزاء . ! .

ذلك الشخص ، بل ذلك الملك ، جاءه فى صورة فتاة جميلة فاتنة ، تدعى « أليس فونتان » عرفها الفارس الجزائرى ، وهى تتردّد على القصر ، فأحبها وأحبته ، وكاشفها بغرامه ، فكانت عند حسن ظنه بها ، وبادلته بمثل غرامه ، وتعاهد الاثنان على الزواج ، ورضيت الفتاة بأن تقيم فى القصر أسيرة مع حبيبها ، إلى أن يفرج عنه ويطلق سراحه ، فتذهب معه إلى حيث يريد ، وتتبعه إلى حيث يشاء .

أفضت الفتاة إلى أهلها برغبتها وعزمها ، فثار ثائرهم ، وقامت قيامتهم ، وحرّموا عليها منذ ذلك اليوم الخروج من البيت وحدها ، والذهاب إلى القصر الذى يقيم فيه الجزائريون وبينهم حبيبها عبد السميع ، وأقسموا أنهم سينتقمون منها ومن الجزائرى إذا غافلتهم وخالفت إرادتهم ، قائلين لها إنهم يؤثرون رؤيتها جثة هامدة بين أيديهم على رؤيتها زوجة لذلك الغريب ، الذى لا يمت إليهم بنسب ، والذى ينتمى إلى أمة غير أمتهم ، ويدين بدين غير دينهم .

ومرّت الأيام والأسابيع ، والفتاة العاشقة سجينة فى بيتها ، والشابّ العاشق سجين فى قصره ، لا يستطيع أحدهما الخروج من سجنه والاتصال بمن يحبّ .

وكان عبد السميع المغربى يجهل ما حلّ بحبيبته ، ولا يعلم السبب

الذى من أجله انقطعت الفتاة فجأة عن المجىء إلى القصر كعادتها ، فاضطربت أفكاره وقلق باله ، وجعل يضرب أخماساً بأسداس ، وانتهى به التفكير إلى الاعتقاد بأن « أليس فونتان » قد ضحكت منه وهزأت به ، وأنها أرادت أن تلعب بعواطفه وتلهو بشعوره ، فمثلت أمامه تلك المهزلة الغرامية ، وكانت فى تمثيلها ماهرة بارعة !

فأراد أن يتحقق من الأمر ، وجعل يسأل فتيات المدينة المترددات على القصر ، ويستفسر عن حبيبته ، فقيل له إن « أليس » لا تغادر بيت أبيها إلا نادراً و بصحبة واحد من أخواتها ، وإنها تبدو دائماً عابسة كئيبة حزينة . . .

تضاعف اضطراب الشاب حينذاك وازداد قلقه ، وخشى أن يكون فى الأمر سر ما ، وأن تكون الفتاة قد أصيبت بمكروه أو حلت بها مصيبة ، وأصبحت حياة المسكين منذ تلك الساعة سلسلة عذاب وآلام نفسية مبرحة .

وكان فى سجنه مهيض الجناح ، لا يستطيع شيئاً ولا يملك وسيلة تقرب بينه و بين الفتاة ، وتمكنه من استجلاء الحقيقة ومعرفة الواقع .

فزاده الشك ألماً على ألم وعذاباً على عذاب . . . .

***

نهض سكان القصر فى صبيحة اليوم الخامس من شهر نوفمبر سنة ١٨٥١ على أصوات استغاثة آتية من الحدائق الواسعة ، فهرعوا إلى

مقرّ تلك الأصوات ، وإذا بهم أمام فتاة فى ثياب النوم ، تزحف على الأرض زحفاً ، بجانب السور الشرقي ، والدم يسيل من صدرها وجنبها ،تاركاً وراءها آثاره الحمراء . . .

حملوها مسرعين إلى داخل القصر ، وأسعفوها بالعلاج ، وضمدوا جراحها ، وهى تردّد بلا انقطاع اسم « عبد السميع ! »

فنادوا الرجل من حجرته، وهم لايدركون لهذا الحادث معنى ، وأقبل عبد السميع على الفتاة فعرفها ، وضمها إلى صدره ، وجعل يغدق عليها من الكلمات الحلوة العذبة ، ماأعاد إلى نفسها الطمأنينة وإلى ثغرها الابتسام ، وأثار فى نفوس الجزائريين الذين رأوا ذلك المشهد ، الشكوك والريب . . .

أدرك عبد السميع أنه قد تمادى أمامهم فى إظهار عواطفه ، وذهب على مرأى منهم إلى أبعد مما تبيحه له اللياقة ويجيزه له الأدب ، فوضع رأس الفتاة على وسادة ، ونهض من مكانه ، وخاطب رفاقه فى الأسر قائلا :

— هذه الفتاة قصة يجب أن تطلعوا عليها ، وبين جنبيها سرّ رهيب ينبغى أن تفضى به إليكم بنفسها .. ولكن ، لن يكون ذلك إلا فى حضرة سيدنا وأميرنا عبد القادر بن محيي الدين ، فدعونى أستأذن منه للمثول بين يديه مع هذه الفرنسية الحسناء . .



الأمير عبد القادر الجزائرى

٭٭٭

قصت « اليس فونتان » على الأمير عبـد القادر وصحبـه قصتها ، بصوت متهدج خافت ، وعلى وجهها أمارات التعب والعناء ، ثمّ سكتت لحظة واستطردت قائلة :

— أردت اليوم أيها الأمير أن أهرب من منزل والدى وألحق بالرجل الذى أحببته فى هـذا القصر ، فخرجت من البيت خلسـة ،

وانطلقت أعدو فى الطريق مسرعة إلى هنا . لكن أخى الأكبر شعر بفرارى ، وانطلق من جهته فى أثرى فأدركنى أمام الباب الحديدى ، وأمسك بى ؛ وأراد أن يرغمنى على العودة معه إلى البيت فرفضت ، وهددنى فلم أخف ولم أخضع ، فما كان منه حينذاك إلا أن استل خنجره وأغمده فى صدرى ثم فى جنبى ، فسقطت على الأرض ، وفر الأخ المجرم الأثيم ، وقد ظننى ميتة . . فناديت . . واستغثت . ولبى رجالك ندائى وأعانونى . . .

هذا ماقالته الفتاة « اليس فونتان » لعبد القادر الجزائرى ومن كان يحيط به من الأسرى الجزائريين فى ردهة الاستقبال فى قصر امبواز .

ومال رأسها فجأة على كتفها . . .

وسقطت على الأرض لاحراك فيها، وقد استنفد ذلك المجهود العظيم قواها ، ففاضت روحها شاكية إلى الخالق ظلم الانسان لأخيه !

*
* *

طلب عبد القادر الجزائرى من السلطة المختصة فى المدينة أن يسمح له بدفن جثة الفتاة الفرنسية فى مقابر المسلمين بجوار القصر ، فسمح له بذلك ، ورقدت الفتاة العاشقة هناك ، فى ظل الأشجار الباسقة والغصون الوارفة .

وفى اليوم الحادى عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٢ ، عندما أمر عبد القادر رجاله بشد الرحال لمغادرة امبواز ، بعد أن أخلت الحكومة

الفرنسية سبيلهم ، وأعادت إليهم حرّيتهم ، امتثل الجميع للأمر ماعدا أسير واحد أبى أن يتمتع بتلك الحرية المحبوبة المنشودة .

ذلك الأسير هو عبد السميع المغربى ، البطل العاشق ، الذى وجد منتحراً فى حجرته ، وبجانبه ورقة صغيرة كتب عليها هذه الكلمات :

« ادفنونى قبل رحيلكم فى الضريح الذى يضمّ رفات اليس فونتان . فقد أبت الأقدار أن أتخذها خليلة فى الحياة ، فدعوني أتزوّجها فى الممات ! »

والزائر الذى يمرّ اليوم بمدينة امبواز ، ويطوف فى أنحائها ، ويصل إلى مقابر المسلمين فيها ، يرى بين الأضرحة الكثيرة المبعثرة هنا وهناك ، قبراً صغيراً ، عليه حجر أسمر اللون ، يعلوه شاهد من المرمر ، هو قبر العاشقين اللذين لم ينعما بالوصال : أليس فونتان الفرنسية ، وعبد السميع المغربى الجزائرى !



٢١

البطل الجبان

عثر أحد مؤرخى المكسيك على تفاصيل هذا الحادث فدوّنها فى كتاب وضعه عن تلك البلاد ، قال :

اشتعلت نيران الحرب الأهلية فى المكسيك ، ونشب القتال بين جنود الحكومة و بين الثوّار .

فدارت الدائرة على حزب الاصلاح وأخمدت الثورة ، ولجأت الحكومة إلى الإرهاب ، للقضاء على من بقى من الزعماء المهيجين ، ولدرء كل خطر مقبل .

علمت والدة « جوان دا كوستا » أن ولدها الأصغر « مانويل » وقع أسيراً فى أيدى الجنود ، وأنهم سيعدمونه رمياً بالرصاص فى اليوم التالى عند شروق الشمس ، فجلست فى مقعدها حزينة كئيبة، وظلت غارقة فى

بحار الأحلام ، تذرف الدموع السخينة مدة ساعة كاملة .

منذ ثلاث سنوات مات ولدها الأكبر « جوان » موت الأبطال ، بعد أن خدم المبادىء الدستورية بنزاهة و إخلاص و إقدام .

كان جوان مثال الشجاعة والبسالة . لكن الاقدار خانته فقبض عليه ورمى بالرصاص ، فخرّ صريعاً فى سبيل المصلحة العامة ، ولفافة التبغ بين شفتيه ، ضاحكاً ، هازئاً بخصومه ، مبتسماً أمام الموت .

وقد انتقم لنفسه، وتمكن من قتل أربعة جنود قبل أن يقبض عليه .

ذهبت أمه إلى ساحة الاعدام بصحبة بعض الأصدقاء ، وشاهدت موت ولدها البطل ، وظلت صورته مرسومة على صفحة قلبها ، فكانت تستمدّ العزاء من ذكرى حبيبها .

رأته هادئاً ، جميلا ، واقفاً ، موثق اليدين واللفافة بين شفتيه ، أمام الجدار الأبيض . . .

اقترب منه الكاهن فحدثه بسكينة وهدوء ، وطلب منه الغفران عن سيئاته . ثمّ بحث عن أمه بين الحاضرين، وحدّق فيها النظر حتى الثانية التى أرغم فيها على تحويل عينيه عن أمه ، والنظر إلى فوهات البنادق المصوّبة إليه . . .

دخن لفافته حتى النهاية ، ثمّ ألقاها من فمه ، والتفت إلى الذين كانوا حوله وقال :

— إن من يموت منا يذهب ضحية الجور وشهيد الواجب ! إنى أموت

فى سبيل المبدأ . وكلّ قطرة من دمائنا ليست إلا زهرة ورد يزين بها علم الحرية الخافق ! ستطلقون بنادقكم فى سبيل الحرية لا عليها . فشكراً لكم !

أطلقت البنادق ، فظلّ جوان واقفاً حينا ، ثمّ سقط على الأرض رويداً رويداً .

هكذا مات الابن الأكبر ، تاركاً أثراً خالداً فى النفوس ، وذكرى مجيدة بين أبناء عشيرته .

ولما علمت الأم المسكينة أن ابنها الأصغر مانويل سيعدم أيضاً رمياً بالرصاص كما أعدم أخوه جوان استولى عليها الذهول . . .

إنها تحب مانويل . . . لكنها كانت تحب جوان أكثر منه . . ذلك لأن مانويل ليس شجاعاً كأخيه . بل هو جبان ، جبان جداً . ولم يشف من جبنه رغم الدروس الوطنية التى كان يلقيها عليه أخوه وأبناء قومه .

تطوع مانويل فى جيش الثورة ، لا حباً فى الاصلاح ، ولا انتصاراً لمبدأ شريف ، ولا عن شجاعة وإقدام ، بل عن خوف ووجل .

خاف أن يقول عنه الآخرون إنه جبان أو خائن فتطوّع مثلهم !

كانت ثياب الجندى تثقل منكبيه ، وكان دوىّ البارود يبعث الرعب إلى نفسه ، وصليل السيوف يسبب له دوارا ، وكان عند مايطلق بندقيته يغمض عينيه ويرتجف !

لـكنه كان طلق اللسان حلو الحديث ، فكان يؤثر على رفاقه بكلامه ويخدعهم بلهجته ، فينظرون إليه كما ينظرون إلى بطل همام ، وشـجاع مقدام .

قبضوا عليه وحكموا عليه بالاعدام !

لم يفعلوا ذلك لأنه مانويل فقط ، ولأنه ثائر فى وجه الحـكومة مع من ثار عليها ، بل لأنه أيضاً شقيق جوان ، الذى كان المتربعون فى دست الأحكام يخشـون ذكره ، ويتعقبون آثار أهله وخلانه للايقاع بهم جميعاً .

كان الجنود ينظرون إلى أسرة دا كوستا كأنها وكر زنابير ، وبمـا أن أحد الزنابير لدغ الحـكومة مرّة واحدة ، فيجب إذن إبادة الأسرة بكاملها وهدم الوكر وحرقه !

عقد مجلس حربى لمحاكمة مانويل ، فقصد الشاب إلى رئيس المجلس، وألقى بنفسه على قدميه ، وبكى بكاء مرًّا ، وطلب العفو متعهداً بخيانة مبادئه والانضمام إلى صفوف الحـكومة ومناهضة الثورة !

أجل ، هذا مافعله الشاب الجبان : رضى أن يخون إخوانه ويقاتلهم ويتجسس عليهم .

لـكن القضاة لم يرقوا لحاله وظنوا أنه يفعل ذلك غشاً وخداعا .

أممكن أن يكون أحد أفراد أسرة دا كوسـتا خائناً جباناً إلى هـذا

الحدّ ؟ أليس مانويل شقيق جوان وابن فرديناندو ؟ لابدّ من إعدامه في الحال والتخلص منه !

و بعد المداولة قال رئيس المجلس :

— أؤكد لكم أنه سيكون ثابت الجنان رابط الجأش كأخيه، عند مايصدر عليه حكمنا بالاعدام .

جرت المحاكمة وصدر الحكم :

« الإعدام رمياً بالرصاص »

أمر غريب . . . غريب جداً . . .

أظهر مانويل شجاعة نادرة عند ما تلى عليه الحكم . . لكنها شجاعة مصطنعة . . . شجاعة مصدرها الذهول والانحطاط في القوى العقلية .

فكر الشاب في الموت ، فاستولى عليه نوع من الخبل .

ثمّ عاد إليه رشده شيئاً فشيئاً ، فأخذ يبكي و يلطم و ينوح .

رآه السجان على هذه الحال ، فظن أن الباعث على ذلك إنما هو الغيظ لا الجبن .

بكى مانويل وانتحب، ثمّ خارت قواه فاستسلم إلى اليأس والقنوط.

حينئذ جاءت أمه لمقابلته .

رفض الحارس في بادىء الأمر السماح لها بالدخول لكنها وضعت في يده قطعة من النقود ففتح لها باب السجن .

جلست الأمّ بجانب ولدها ، وأخذت يديه بيـديها ، فألقى مانويل رأسه على صدرها وبكى .

لـكنها ابتسمت وقالت بصوت هادىء :

— مانويل كل شىء سائر على مايرام. قابلت الضابط منذ حين .

فرفع الشابّ رأسه ونظر إلى أمه وفى عينيه بارقة أمل :

— العفو ؟

خرجت هـذه الـكلمة من أعماق صدره ، فحدقت أمه النظر فيه ، وأدركت أنه خائف يرتجف ، فعضت على شفتيها حتى أدمتهما :

— خائف . . . هو . . . رحمة الله عليك يا جوان !

شعرت بأنها تكره هذا الابن الجبان ، وانها لاتحب إلا ذلك البطل الشجاع الذى قضى شهيد واجبه .

سكت الاثنان . ثمّ قالت الأمّ :

— أكد لى الضابط أنه يعفو عنك إذا رضيت أن تخدم الحـكومة وتخون مبادئك الأولى .

بدا على وجه مانويل سرور عظيم ففهمت الأم أنها أدركت الحقيقة.

— نعم يا أماه . . . عرضت عليـه ذلك أنا أيضاً . . . لـكنه لم يصدقنى .

— أخطأت يابنىّ . . . لقد تمّ الاتفاق بينى و بين الضابط على أن تطلق حرّيتك وتدخل فى خدمة الحـكومة . لـكنه يطلب منا أن

تبقى الامر مكتوما إلى حين ، لأنه لو افتضح السرّ لساءت العاقبة .

— نعم .

— سيجرى كل شىء كالمعتاد . . . وتقف أمام الجنود فى ساحة الإعدام . . . لكن البنادق ستحشى باروداً فقط . . وعند ما يطلق الجنود بنادقهم ، تسقط على الأرض كأنك أصبت بالرصاص ، وصعقت صعقا . . . ثمّ يحملونك إلى المنزل لتدفن . . . فيرسل التابوت فارغاً وتبقى أنت فى البيت . . .

ثمّ ابتسمت وقبلته وتابعت حديثها قائلة :

— فتصبح حراً طليقاً وتدخل بعد ذلك فى خدمة الحكومة إلى مدّة وجيزة لتعود إلى صفوف الثائرين فى أول فرصة .

— طبعاً يا أماه . هذا ما كنت أفكر فيه . لكن ما الفائدة من التظاهر باعدامى ؟ يصعب علىّ أن أقف أمام الجنود وأن تطلق البنادق فى وجهى ، حتى ولو كانت خالية من الرصاص القاتل !

فانتفضت الأمّ وقالت :

— يصعب عليك ؟ أجبان أنت إلى هذا الحدّ ؟ ألا تقوى على الوقوف أمام الجنود والنظر إلى فوهات البنادق الفارغة ؟ أنا لا أطلب منك أن تكون بطلاً كأخيك . . . لا أرغب إليك إلا فى الحياة يابنى . . . فى الحرية تستردّها . . . يمكنك أن تهزأ بالجنود ، وأن

تقهقه عنـد ماتطلق عليك البنادق . . . الفارغة . . أفاهم أنت ؟ . . الفارغة . . .

وهنا خانها الجلد ، فتساقطت الدموع من عينيها ، وطوقت عنق ولدها بذراعيها .

لم يدرك مانويل معنى هذا الانقلاب .

— لاتخشى شيئاً يا أماه . . . سأكون شجاعا .

فقبلته مرّة أخرى . . . وابتسمت . . . وانصرفت . . .

* * *

ترك موت مانويل دا كوسـتا فى نفوس أبناء بلاده أثراً عميقاً ، وذكرهم بموت جوان البطل الأكبر والشهيد المجيد .

وقف مانويل كما وقف جوان أمام الجدار الابيض ولفافة التبغ بين شفتيه .

وبحث مانويل كما بحث جوان عن أمه بين الجمع المحتشد ، وابتسم لهـا ابتسامة ملؤها الشجاعة والحب .

رآه الضابط على هذه الحال فهمس فى أذن سامعيه :

— أما قلت لـكم إنه سيكون شجاعاً كأخيه ، وأن كل ما أظهره من الجبن والخبل ليس إلا لعبة لعبها علينا لينجو بنفسه ؟

ألقى مانويل لفافته كما ألقاها جوان ، والتفت إلى الجنود وصاح بهم:

— أطلقوا النار !

وقهقه طويلا . . .

فأطلقت البنادق ، وكاد الرصاص يقطع جسمه إلى شطرين .

سقط مانويل على الأرض جثة هامدة .

فتقدّم منه الجنود وحملوه ووضعوه فى التابوت المعدّ للمعدومين .

ولفت نظر الجميع ماطبع على وجهه من دلائل الدّهشة والاستغراب والذهول !

كان وجهه مخيفاً . . . لأنه لم يكن ينتظر الموت !

كذبت عليه أمه ليكون شجاعاً ، وليظهر أمام الجنود ما أظهره أخوه من ثبات الجأش .

هـذه كانت تعزية الامّ الوحيدة : مات ولدها موت الأبطال ، ولو بالرغم منه !

ولن يذكر ابناء المـكسيك بعد اليوم اسم جوان دا كوستا إلا مقروناً باسم أخيه مانويل .

وستظلّ الامّ المسكينة « أمّ البطلين » . . .





٢٢

السلطانة صافناز

دخلت « والدة السلطان » على ابنها « عبد العزيز » الجالس على عرش آل عثمان ، فأسرع إليها ، وتناول يدها باحترام و إجلال ، وقادها إلى مقعد وثير ، فأجلسها عليه وقال :

— رجوتك بالمجىء إلىّ يا والدتى العزيزة لكى افضى إليك برغبة اريد تحقيقها بواسطتك .

فوضعت الأمّ قبلة على جبين ولدها وقالت :

— إنك سلطان البرين ، والسيد المطلق التصرّف يابنى . فأية امنية تلك التى تحتاج إلى مساعدة امك لتحقيقها ؟

— نعم . اعلم ان فى استطاعتى الحصول على ما أريد دون ان يعترضنى احد . لكننى اخضع للتقاليد . و إليك الآن ما ارغب .

— تكلم يا بنىّ .

— فى العام الماضى ، أرسل إلىّ محمود بن عياد باشا التونسى ثلاث نساء من جواريه نلن حظوة عظيمة فى عينيّ ، وأردت أن يعاملن فى القصر معاملة خاصة ، فأمرت بوضعهنّ فى حمايتك ، وطلبت إليك أخذهن تحت رعايتك .

— نعم . والجوارى الثلاث — يلدز وناجية وصافناز — يقمن منذ ذلك الوقت معى ، ويتناولن طعامهن على مائدتى .

— أماه ، أرغب فى اتخاذ إحداهنّ زوجة لى .

— ومن هى السعيدة الحظ التى وقع عليها اختيارك ؟

— صافناز . إنها أبرع الثلاث جمالا وافتكهنّ لحظاً . خاطبيها وأطلعيها على رغبتى هذه .

— سيكون لك ماتريد يا بنىّ .

* * *

أسرعت الأمّ إلى الجارية ، وقصت عليها ما حدث بينها وبين السلطان عبد العزيز ، وهنأتها على تلك الحظوة الخاصة ، وذلك العطف السامى ، ظناً منها أن الفتاة سترقص طربا ، وتقابل الخبر بفرح وحبور. لكن « صافناز » ألقت بنفسها على قدمى والدة السلطان ، وأجهشت بالبكاء ، وجعلت تندب سوء طالعها !

— لم أعرف والدى يا مولاتى ، لأن النخاسين اختطفونى طفلة من البلدة التى ولدت فيها ، بل إننى لا أعلم إذا كنت تركية ، أم شركسية ،

أم عربية . وفى هذه السنة التى قضيتها فى كنفك ، فى هـذا القصر ، ألفيت فيك حنانا أنسانى ماعانيته فى حياتى من مذلة و بؤس وشـقاء . نعم إن عطف مولاى وولىّ نعمتى ، ووقوع نظره علىّ ، واختيارى دون نساء الحرم زوجة له ، كلّ ذلك يقع فى نفسى وقعاً شديداً ، و يؤثر فىّ تأثيراً عميقاً . لـكننى لا أريد يا مولاتى . كلا ، لا أريد أن أصـير سلطانة . بل أوثر البقاء وضيعة خاملة !

عبثاً حاولت « والدة السلطان » أن تقنع الفتاة بالعدول عن عزمها . فاضطرّت فى النهاية إلى مجاراتها فى رغبتها ، و إنقاذها مما كانت تعتقده مصيبة كبيرة و بلاء عظيما .

فقالت للفتاة :

— لا بدّ أن يكون فى صـدرك سرّ دفين تضمينه بين الضـلوع يا ابنتى . فهل لك أن تطلعينى عليـه ، وأن تكاشـفينى بحقيقة أمرك ؟ إننى امرأة مثلك . امرأة ذاقت فى صـباها ما تذوقينـه الآن من مرارة وحسرة . فقد جىء بى إلى هـذا القصر بالرغم منى . لـكننى خضعت لأحكام القدر ، وأذعنت لمـا كتب لى فى صفحات الغيب فنسيت المـاضى ، ورضيت بالحاضر ، وانتظرت صابرة ما يجيئنى به المسـتقبل . تكلمى يا ابنتى وقولى لى : أى سرّ ذلك الذى يحملك على الرفض ؟

فتنهدت صافناز ، وأجابت :

— لا تسأليني . . . بل سلى الأمير عبد الحميد !



السلطان عبد الحميد فى قصر يلدز

فانتفضت « والدة السلطان » وقالت :

— آه ! لقد فهمت الآن !

***

كان الأمير عبد الحميد شاباً جميلا ، يطوف أرجاء القصر ، ويقضى لياليه فى الحدائق الغناء ، لا تقلق باله شئون السلطنة ، ولا تعكر صفو راحته متاعب العرش .

كان فى الثلاثين من عمره، عند ماوقع نظره للمرة الأولى على الجارية صافناز . فعلق بها قلبه ، وعلق به قلبها . وتوثقت بين الاثنين عرى

حبٌّ شديد خالص ، وجعل كلٌّ منهما يمنى النفس بزواج قريب يحمل معه السعادة والهناء .

لـكن صافناز كانت من نساء السلطان وجواريه ، وليس لعبد الحميد أن يتطلع إلى حرم عمه ، ويتخطى حدوداً لاتسمح له التقاليد بتخطيها .

وعند ما جاءته والدة السلطان ، سائلة مستفهمة ، أفضى إليها بسره ، وأطلعها على ما يكنه قلبـه من حبٍّ وهيام لتلك الجارية الحسناء ، وما يعلقه من أمل على تحقيق أمنيته باتخاذ صافناز زوجة له .

أدركت أمّ السلطان أنها أمام عاطفة قوية متبادلة بين العاشـقين ، وحملها حنوّها على الميل إلى مساعدة عبد الحميد دون ابنها . فقالت له :

— إن عمك يا بنيّ جالس على العرش ، وهو صاحب سلطة واقتدار ، له ما يريد ويملك ما يشاء . فأنعم بالاً . سأسـعى إلى التأثير عليه ، فأجعله يعدل عن رغبته ، وتبقي صافناز حرّة طليقة ، فتتخذها أنت زوجة لك .

— سأحفظ لك ما حييت هـذا الجميل . لقد أحببت صافناز حباً عظيماً ، تضمحل أمامه كلّ عاطفة ، ولو قدر لى أن أفقد أمل الزواج بها ، وأصدم فى هذا الحب العميق ، لقضيت حياتى شقياً تعساً حزيناً . بل لقطعت حبل هذه الحياة التى لن تطيب لى بدون صافناز الجميلة .

فوعدته خيراً ، وقطعت على نفسها عهداً بأن تحقق ذلك الحلم وتعقد ذلك الزواج .

***

صدّق السلطان عبد العزيز ماقصته عليه أمه من أمر صافناز الجارية ، واعتقد أن الفتاة مريضة ، وأن الأطباء أشاروا عليها بالراحة التامة ، والابتعاد عن الاستانة ، والالتجاء إلى المناطق الجبلية طلباً للسكون والشفاء .

وذهبت الأمّ إلى أبعد من ذلك ، وجعلت ابنها السلطان يعتقد أيضاً أن الزواج يقضى على حياة صافناز ، وأن دخول رجل عليها سوف يكون بمثابة دخولها القبر !

لم يخطر ببال عبد العزيز أن « والدة السلطان » تخدعه ، فعدل عن عزمه ، ورضى باتخاذ يلدز زوجة له ، بدلا من أختها صافناز .

وهكذا كان . . .

وبعد أيام ، جاءت والدة السلطان إلى عبد العزيز ، وهى مكفهرة الوجه مقطبة الجبين ، وقالت :

— إننى أحمل إليك اليوم يا بنىّ خبراً ليس فيه ما يسر ويفرح . لقد ماتت صافناز ، ودفنت فى حديقة المنزل الذى كانت تسكنه ، فى جبال الأناضول !

***

أما الحقيقة فكانت غير ماذكرت والدة السلطان . وفى الوقت الذى كان عبد العزيز يعتقد فيه أن الجارية أصبحت فى عداد الأموات ،

كانت صافناز تذوق بين ذراعى حبيبها عبــد الحميد لذّة الحبّ ، ونشوة الغرام !

مهدت المرأة للعاشقين سبيل الوصال ، وصارت تنظر بعين العطف والرعاية إلى ذلك الحب المترعرع ، فأحاطته بسياج من الـكتمان ، وظلّ أمر الحبيبين مجهولا من الجميع ، دون أن يعلم أحد فى الاستانة كلها أن الجارية « الميتة » لاتزال على قيد الحياة ، وأنها أصبحت زوجة للأمير عبد الحميد !

أربع ســنوات قضاها الزوجان فى أحضان السعادة والهناء . فرزقا ثلاثة أبناءهم ثمرة الحبّ الأوّل ، وســيظلّ عبد الحميد إلى آخر أيامه يذكر بالحسرة والحنان تلك الساعات الحلوة اللذيذة التى مرّت على شبابه مرور الطيف !

* * *

١٨٧٦ . . .

رحل السلطان عبد العزيز إلى جوار ربه ، وجلس على العرش ابن أخيه مراد ، شقيق عبد الحميد الأكبر، باسم مراد الخامس .

ومنذ ذلك الوقت ، جعل الأمير العاشق يتطلع إلى أريكة الملك ، ويوجه كلّ عنايته إلى تسنم ذلك العرش . الذى لايبيق به رجل ضعيف الارادة خائر النفس كالسلطان مراد .

وفى ثلاثة شهور ، أثبت عبد الحميد أنه جدير بالملك ، وأن إنقاذ السلطنة من الخطر الداهم الذى يكتنفها لن يتمّ إلا على يده ، فاكتسب رجال البلاط وأقطاب البلاد ، وفى شهر أغسطس ١٨٧٦ ،كان الأمير عبدالحميد جالساً على العرش ، ونودى به سلطاناً باسم عبد الحميد الثانى .



السلطان عبد الحميد الثانى

و بدلت الأقدار أحوالا بأحوال وأشخاصاً بأشخاص !

تقلد عبد الحميد « سيف عثمان » فى حفلة رائعة ، أقيمت فى جامع أيوب بالاستانة ، فى السابع من شهر سبتمبر سنة ١٨٧٦ .

ومنذ ذلك اليوم ، عادت صافناز الميتة إلى الحياة جهاراً ، وحملت

لقب « سلطانة » عملا بالقوانين واتباعاً للتقاليد .

وبدلت الأقدار أيضاً قلوباً بقلوب وشعوراً بشعور !

كان عبد الحميد « الأمير » يحب زوجته ويخلص لها فى حبه . لكن عبد الحميد « السلطان » لم يكن ليجد من وقته متسعاً ، بين المكائد والدسائس ومتاعب الملك ، للالتفات إلى تلك المرأة التى أفرغ فيها عواطف شبابه !

ثمّ إن نيران الحروب والثورات ، وقد اندلعت ألسنتها فى أطراف السلطنة ، كانت تسترعى أنظار الرجل وتتطلب اهتمامه ، فأخمدت فى صدره من جراء ذلك نيران الحب وسعير الغرام .

وظلّ عبد الحميد الثانى يحيط حبيبته الأولى — السلطانة صافناز — بالعطف والعناية . لكنه كان يفعل ذلك مدفوعاً بعاطفة الاحترام لزوجته ، لا بعامل الحبّ والهيام . . .

كان فى الرّابعة والثلاثين من عمره عندما قبض بيده على صولجان الملك . ومنذ ذلك الوقت ، عزم عبد الحميد على خنق مايتلاطم فى صدره من شعور ، ويهيج فيه من عواطف : أراد أن يكون سلطانا قبل كلّ شىء . والاحتفاظ بالسلطنة يقضى عليه بأن يطرح جانباً كلّ عاطفة من شأنها أن تنسيه واجبه نحو العرش !

والحبّ عاطفة من هذا النوع !

لقد بلغ غرامه بصافناز مبلغاً عظيما ، وهام بها هياماً أفقده الصواب

أحياناً ، وظلّ لها مخلصاً وفياً فى السنوات الأربع التى قضاها معها ، وبعيداً عن أعين الناس ونواظر الرقباء .

لكن غرامه بالعرش ، وهيامه بالسلطنة ، قضيا على تلك الحياة الهنيئة ، وبددا ذلك الحلم الجميل ، وصار الواجب يحتم على عبد الحميد أن يكون سلطاناً قبل أن يكون رجلا . . .

دخلت عليه صافناز ذات يوم فى خلوته ، وانطرحت على قدميه ، وجعلت تذكره بذلك الغرام الذى كان الشابان يستمدّان منه الحياة .

قالت له :

— أنسيت ياعبد الحميد أننى رفضت طلب عمك ، وآثرت الزواج بك على الزواج به ؟ لقد فعلت ذلك لأننى كنت أحبك، ولأن الحبّ فى نظرى يفوق الملك بهجة وبهاء . ! .

فأخذ السلطان رأس الحبيبة بين يديه ، وضمه إلى صدره ، وقال بصوت متهدج :

— أعلم ذلك ياحبيبتى . وكنت أنظر إلى الحب نظرك إليه . لكن الأقدار شاءت أن أنهج فى حياتى منهجاً آخر . لقد أحببتك . ولا أزال أحبك . وسوف تظلين فى هذا القصر وبين نسائه المختارة المدللة ، ولكن واجبا أسمى من واجب الحب يدعونى إليه . بالأمس كنت لك وحدك . أما اليوم فاننى للعرش أوّلا ولك ثانيا . لو استسلمت بعد الآن للحبّ استسلامى له من قبل ، لفقدت العرش وأضعت السلطنة .

ولن يقال إن عبد الحميد فقد عرشه وأضاع سلطنته من أجل النساء . سأعطيك من وقتى مايتيسر . أما المال فلك منه ما تريدين . وقصور الاستانة أمامك ، أنت فيها جميعها الآمرة الناهية !

فرفعت السلطانة صافناز رأسها ، ونظرت إلى الحبيب بعينين ترقرقت فيهما الدموع ، وقالت :

— إن قصور الاستانة جميعها ، وخزائن أموال السلطنة جميعها ، لا تساوى فى نظر المرأة المتعطشة إلى الحب ساعة واحدة تقضيها مع الرجل الذى تحب ! وداعاً ياعبد الحميد ! لقد دفنت صافناز حية فى عهد عبد العزيز ، وستدفن أيضاً حية فى عهدك !

***

طلبت السلطانة من زوجها أن يمن عليها بالطلاق كما من عليها من قبل بالزواج . فأجابها إلى طلبها ، وأهداها قصراً على شاطىء البحر الأسود ، حيث أقامت مدّة من الزمن مع رجل آخر ، اتخذته زوجاً لها ، اعتقاداً منها أن هذا الزواج الثانى سينسيها الزواج الأوّل .

لكن القدر ظلّ عابساً فى وجهها ، فأدركت أن السعادة قد ولت مع الحب ، وأن الهناء لن يعود إليها . . .

وأمعن ذلك القدر القاسى فى تعذيبها . فمات زوجها الثانى ، والتهمت النيران قصرها !

بلغ عبد الحميد الخبر ، وكان فى ذلك الوقت فى أوج مجده ، فأرسل

يعرض على المرأة التى أحبها أن ترجع إلى القصر ، وتقيم بين نساء الحرم معزّزة مكرّمة .

لكنها رفضت . . .

فأنعم عليها بقصر آخر فى « جامليجة » وأمر لها بخمسين ذهباً مرتباً شهرياً .

وهناك ، فى عزلة ووحدة ، قضت السلطانة صافناز بقية حياتها ، تستمدّ القوّة من ذكريات الماضى، وتنظر تارة قلقة ، وتارة مذعورة ، إلى الغيوم المتلبدة فى فضاء السياسة ، والأمواج المتلاطمة حول العرش ، وتسمع من بعيد هزيم الرياح الهوجاء ، المنذرة بعظائم الأمور ! . .

لكن الموت وافاها فى ذلك القصر الذى استحال لها قبراً ، قبل أن تشاهد هبوب العاصفة ، وزعزعة العرش ، وسقوط الرجل الذى أحبته ، وموته فى قصر منعزل ، سجيناً مثلها !



٢٣

ياور الباشا

جلست الفتاة ليلى فى ظلّ الشجرة الباسقة الوارفة ، وأخذت رأسها بين يديها ، وانهمرت الدموع من عينيها متدفقة كالسيل ، وقد اكتنفت أغصان الصفصافة الحزينة الباكية ، تلك العذراء الحزينة الباكية !

كيف لا تحزن ليلى ، وكيف لا تبكى ، وقد عزم أهلها على زجها فى هوّة التعاسة والشقاء ، وأرغموها على الاقتران برجل تمقته وتشمئزّ من مجرّد النظر إليه ؟

ذلك الرجل هو إسماعيل بك ، الضابط فى الجيش . . .

كان فى أيام الحرب السود ياوراً للطاغية أنور باشا ، وكان معروفاً بشراسته وخلقه الوحشى، لاتلذّ له الحياة إلاإذا تكدست حواليه الجثث أشلاء ، وانبعثت منها رائحة العفونة والدماء !

كان الرجل سفاكا أثيما ، لا يمرّ أسبوع واحد دون أن يجنح فيه إلى جريمة يرتكبها أو سفالة يقترفها ، لكن يد العدالة كانت أقصر من أن تصل إليه ، لأن حماية سيده كانت درعاً متيناً تردّ عنه الأذى ، وترساً منيعاً يدفع عنه عقاب القضاء .

أما هى ، فحسناء فاتنة ، ذات جبين وضاء ووجه وضاح ، تلمع فيه :

عيون عن السحر المبين تبين   لها عند تحريك الجفون سكون
إذا أبصرت قلباً خلياً من الهوى   تقول له كن عاشقاً فيكون !

ووالدها فلاح مزارع فى قرية «تشبان» من أعمال الأناضول ، يدعى أحمد كاهيا .

أحبت وهى فى الرّابعة عشرة من عمرها ، فتى بهىّ الطلعة ، قوىّ العضلات ، دمث الأخلاق ، وتعاهدت معه على الزواج .

لكن أباها حال دون رغبتها ، وألقى بها بين ذراعى ذلك الياور الغنى ، إسماعيل بك ، طمعاً فى الجاه والمال .

واحتمل الوحش فريسته ورحل إلى بعيد !

*
* *

لم تطق ليلى البقاء مع ذلك الرجل .

وهل يقوى الحمل الوديع على معاشرة الذئب الدموى ؟

كانت حياتهما الزوجية سلسلة فواجع !



أنور باشا

زوج ينهال على زوجنه سباً وضرباً وزوجة مسكينة مهيضة الجناح ، تتحمل الآلام والبلايا بصبر وجلد ، منتظرة من ربها الفرج ، ومن العناية الالهية إنقادها من ذلك الجحم !

كانت تجلس فى حجرتها المظلمة ، حيث حبسها زوجها الغيور ، هناك ، على ضفاف البوسفور ، وتنظر من خلال زجاج النافذة إلى الزوارق تمخر عباب المياه الزرقاء ، إلى الأفق البعيد ، إلى الشمس المتلألئة ، فتبكى حظها العاثر ، وتفكر فى قريتها الصغيرة ، فى أهلها

وأترابها وخلانها ، فى الحبيب الذى وقفت له قلبها ، ولسان حالها يردّد قول القائل :

يا غادى البرق جد بالحىّ منزلة جدنا عليها دماء من مآقينا
شطت بنا الدار فالذكرى تؤرقنا ولامع البرق وهناً بات يشجينا
كم ذا نؤمل بالبشرى وتخلفنا ونسأل الطيف إسعاداً فيشقينا

***

لكلّ ضعيف فى هذا العالم نصير ، ولكلّ قلب خافق قلب خافق يحنّ إليه حنين الأنامل إلى أضلع الأعواد .

كانت تقيم فى منزل مجاور لمنزل الياور اسماعيل بك ، امرأة عجوز أخنى عليها الدهر ، وعضها الشقاء بأنيابه ، فرقت لحال جارتها الشابة المعذّبة ، ومهدت لها سبيل الهرب ، ففرّت ليلى تحت ستار الظلام ، وابتعدت عن مسكن الزوج القاسى .

عادت إلى قريتها حيث حاول أبوها إرجاعها إلى زوجها . لكن أفراد العائلة أوقفوه عند حدّه ، وأرغموه على الاحتفاظ بابنته التعسة .

فبقيت ليلى فى القرية ، تساعد أهلها فى الحقول ، وقد عاد إليها الأمل فى أيام مقبلة أسعد من الأيام المدبرة .

ولكن الزوج كان بالمرصاد .

أثار هرب فريسته غضبه وشراسته ، وسوّلت له نفسه الأمارة

بالسوء أن ينزل بها وبذويها انتقاماً رهيباً ، كان يظنه عقاباً عادلا .

كان ذلك فى غرّة سنة ١٩٢٧ .

إن الانقلاب العظيم الذى أحدثه مصطفى كمال باشا فى تركيا قد بدل حالا بحال ، وأخلاقاً بأخلاق .

لكنه لم يؤثر فى نفس الياور اسماعيل بك ، الذى ظلّ يعتقد أنه فوق كلّ عدالة وقضاء — بل إنه القابض على كلّ عدالة وقضاء !

لم يلجأ إلى المحاكم ولا إلى الشرع طالباً إنصافه ، وإعادة زوجته إليه ، بل عمد إلى الأساليب التى ألفها ، والتى طالما ضجّ منها الناس فى عهد مضى وانقضى !

***

غادر إسماعيل الاستانة ذات يوم ، وسافر إلى قرية تشيان ، حيث نزل فى ضيافة رجل من أصدقائه ، وبات يرقب الفرصة السانحة للاقدام على الفعلة الشنعاء التى رسم خطتها وعول على تنفيذها .

خرج يوماً إلى الحقل مترصداً ، وقد اعتقل بندقيته الحربية ذات الطلقات العشر ، فرأى أحمد كاهيا وأفراد عائلته ذاهبين إلى عملهم اليومى ، وقد اصطحبوا ليلى كعادتهم منذ عودتها إلى القرية .

عرفهم إسماعيل واحداً واحداً .

هو ذا أحمد كاهيا ، الوالد الشيخ ، ووراءه ليلى ، الزوجة الهاربة ، تتأبط ذراع أخيها شوكت ، فحفيظة أخت ليلى ، ففاطمة زوجة شوكت ...



أنور باشا فى ثوبه العسكرى

وصلوا إلى حقلهم ، وتفرّقوا ، و باشروا عملهم

فانساب اسماعيل اسيان الأفعى إلى الشيخ أحمد ، ولما صار على بعد عشر خطوات منه ، وثب مسدّداً فوهة بندقيته إلى صدر خميه ، وصاح فى وجهه :

— إنى ألقى عليك سؤالا واحداً ، وأطلب الردّ عليه فى الحال ، أتعيد إلىّ ابنتك أم لا ؟

فانتفض الشيخ ثم تمالك نفسه ونظر إلى الفوهة القاتلة باحتقار وقال :

— لا لن أفعل إنى . . .

ولـكنه لم يتمّ كلامه ..

أطلق اسماعيل من بندقيته رصاصه اخترقت صـدر المسكين ، فخرّ صريعاً .

وسمع الباقون دويّ الرصاص فأسرعوا مهرولين إلى كبيرهم .

لـكن رصاص اسماعيل حصدهم كالسـنابل ، الواحد بعد الآخر ، فسقطت ليلى تتخضب بدمها وتمعتها حبيطة . . .

ووقفت فاطمة فى وجه ذلك الوحش ، وتوسلت إليه باكية :

— اقتلنى واعف عن زوجى !

لـكن اسماعيل كان أسدّ حقداً على شوكت منه على سواه ، فأطلق عليه وعلى زوجته ما تبقى فى بندقيتـه من رصاص حطم رأس فاطمة ، ومزّق صدر شوكت !

ووقف بعد ذلك ينظر إلى الجثث المبعثرة ، وارتسمت على شـفتيه الغليظتين ابتسامة رديئة !

ثم ألقى البندقية من يده ، واقترب ببطء من جثة زوجتـه ، ونظر إلى الثقب الذى أحدثته الرصاصة فى صدغها ، وإلى الدم المتدفق منه .

وكأنه أراد أن يشهد السماء على نفسه فى الاثم والبشاعة والقسوة، بعد أن أشهد عليه الناس ، فانكبّ على جثة هامدة ، وألصق شـفتيه بالثقب الأسود ، وجعل يمتصّ الدماء الحارّة !

* * *

هناك ، وعلى تلك الحال ، وجد رجال البوليس ذلك الحيوان البشرى ، الذى أخطأت الطبيعة فى قذفه إلى هـذا العالم إنساناً تحبل به امرأة وترضعه من لبن ثدييها !

وعلى عود المشـــنقة ، كفر اسماعيل بك ياور أنور باشا ، عما اقترفه نحو الانسانية من جرائم وآثام !



٢٤

الزوجان العدوان

قال محدثى :

— وبعد أن قضينا ساعة كاملة فى سفح الأهرام، نتحدث فى شئون شتى ، وعدنى صديقى الروسى أن يقص علىّ اليوم قصته ، فطلبت إليه أن يسمح لك بالذهاب معى إلى منزله ، لكى تدوّن ما يقوله وتنشره بين الناس إذا شئت ، فهيا بنا . لاتدع الفرصة السانحة تفلت منك .

ترددت فى قبول الدعوة . لكن صديقى ألحّ علىّ بالذهاب معه فذهبت .

دخلنا ذلك المنزل ، فى شارع محمد على بالقاهرة حيث كان المهاجر الروسى يسكن مع زوجته وخادمة عجوز . فاستقبلنا الرجل على الباب ببشاشة ولطف، ودعانا إلى الجلوس فى غرفة صغيرة ، أعدت فيها المقاعد الشرقية حول منضدة مستديرة .

ثم قال صديقى :

— تعلم يامسيو « سرج » الغرض الذى جئنا من أجله الليلة . وقد سمحت لى أمس أن أصحب معى هـذا الصديق الذى يتوق إلى معرفة حوادث الانقلاب الروسى الحديث ، فقص علينا قصتك حسب وعدك .

فأطرق الرجل لحظة ، ثم رفع رأسه قائلا :

— سمعاً وطاعة . . . لقد وعدتك ووعد الحرّ دين .

قال ذلك بلغة عربية فصحى ، فدهشت وسألته :

— أتحسن لغتنا إلى هذا الحدّ يا سيدى ؟

فنظر إلىّ طويلا ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة تنمّ عن شىء من الحزن والأسى :

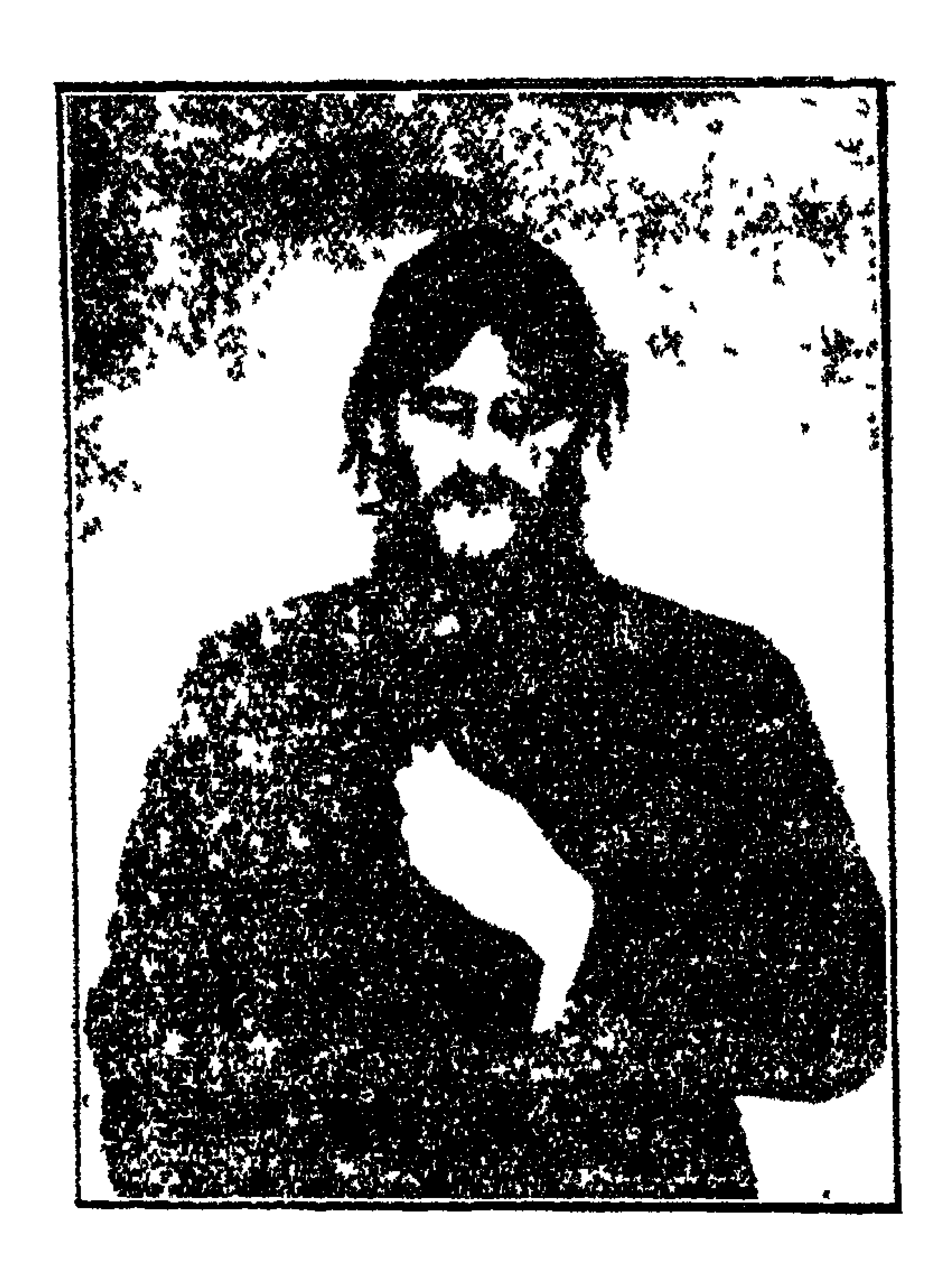
— نعم ، أحسنها لأننى درستها ، وتعمقت فى درسها ، وسوف تعلم الداعى إلى ذلك فى سياق الحديث . . .

وكانت الخادمة العجوز قدأحضرت القهوة فسر بناها وقلت لمضيفنا :

— إن اليسير الذى سمعته منك ياسيدى يشوّقنى إلى سماع الكثير. فتكلم إننا آذان صاغية .

فقصّ علينا الرجل ما يأتى ، أنقله إلى القارىء بحروفه :

قال « سرج تومازوف » :



الراهب الدجال راسبوتين
الذى عجلت أعماله انهيار عرش روسيا

« ولدت فى جبال القفقاس ، من أب مسلم وأم اسرائيلية ، وكان اسمى « أحمد برهان » . وكنت ضعيف البنية ، فأرسلنى والدى إلى سورية حيث كانت تقيم إحدى شقيقاته ، فتلقيت العلوم فى الجامعة الأميركية ، وعدت إلى القفقاس سنة ١٩٠٥ وأنا فى العشرين من

العمر ، وهناك تزوّجت فتاة من بنات قريتى ، وسافرت معها إلى العاصمة الروسية حيث دخلت فى سلك الحرس الامبراطورى .

« هكذا نشأت ، وهكذا تلقيت العلوم .

« لـكننى وجدت طريق التقدم ضيقاً فى الجيش الروسى ، وكان الضباط ينظرون إلىّ نظرهم إلى الغريب ، لأن القوم متعصبون ، ولأن مذهبى الدينى كان يثير فى نفوسهم شيئاً من الـكره والريبة ، ففكرت طويلا فى حالتى وانتهى بى الأمر أن اعتنقت الدين المسيحى ، أى إننى تبعت زوجتى فى عقيدتها .

« ولمـا هبت عاصفة الحرب العظمى ، ســـنة ١٩١٤ ، خضت غمارها ، وكنت فى رتبة ملازم ، ولا أمدح نفسى إذا قلت لـكما إننى أبليت فى ميادين القتال بلاء حسناً ، فقد قمت بواجبى كجندى من جنود الوطن الروسى ، وكضابط فى حرس القيصر .

« ثم حدث ذلك الانقلاب الهائل فى روسيا ، وأسقط القيصر عن عرشه ، وتشتت أعوانه ومريدوه ورجال حاشيته فى طول البلاد وعرضها ، وعقب ذلك الانقلاب انقلاب آخر أشدّ هولا منه ، أعنى به قيام الحكم الشيوعى على أنقاض الحـكم القيصرى ، ومطاردة خصوم البلشفيين ، وإغراق روسيا فى بحر من الدماء .

« بقيت موالياً لأسرة رومانوف ، والتحقت بأحد أفرادها الذى فرّ

هارباً إلى أصقاع سيبيريا ، حيث جعلنا نلمّ شعثنا ، ونضمّ صفوفنا ، لمهاجمة المغتصبين واسترداد الحكم .



لينين — معبود الشيوعيين

« أما زوجتى ، فقد تركتنى فى بتروغراد ، على أثر خلاف قام بينى وبينها ، لأنها كانت قد اعتنقت مذهب لينين السياسى والاجتماعى . وقد تطوّعت فى الجيش الأحمر ، وحاربت فى صفوفه كأحد جنوده ، وأظهرت من الشجاعة والإقدام ما أطلق ألسنة رؤسائها بالمديح والثناء ، فأرسلوها إلى حدود سيبيريا ، وعينوها رئيسة لإحدى لجان السوفيات ،

وعهدوا إليها بمعاقبة خصوم البلشفيين وتعذيبهم .

« وكان ذلك فى سنة ١٩١٨ .

« قامت حركة معادية للينين وأعوانه ، وترأس تلك الحركة الأميرال كولتشاك ، الذى تطوّعت فى خدمته ، فاستولينا على سيبيريا وأوشكنا أن نقضى على أعدائنا هناك ، وأن نغزو روسيا وندخلها فاتحين .

« لـكن الفظائع التى ارتكبها جنودنا حالت دون ذلك ، فقد ثار علينا الفلاحون هناك ، وتكاثر علينا عـددهم ، فغلبنا على أمرنا وألقينا السلاح من أيدينا .

« كثيراً ما تقرءون فى الجرائد أن الجنود قد ارتكبوا ، ولا يزالوا يرتكبون فى روسيا فظائع تقشـعرّ لهولهـا الأبدان . فكلّ ذلك صحيح لامغالاة فيه . وقد وصلتنى أخيراً نسخة من « الغازيتة الحمراء » ، وهى جريدة البلشـفيين الرّسمية ، فاسمحا لى أن أتلو عليكما جزءا من مقالة نشرتها تلك الجريدة بتاريخ ١٢ يونيو سنة ١٩٢٦ ، عن « مدينة الإرهاب » ، أى مدينة « كوزنتسك » فى سيبيريا .

***

نهض محدثنا وخرج من الغرفة ، ثمّ عاد حاملا نسـخة من جريدة روسية وأخذ يقرأ علينا مايلى :

« عنـد ما كان الأميرال كولتشاك باســطاً سلطته على سيبيريا ، ارتكب جنوده نحو الفلاحين فظائع يعجز القلم عن وصفها ، فأدّى ذلك

إلى نشوب ثورة محلية ، فألف الفلاحون عصابات أطلقوا عليها اسم «العصابات الحمراء» ، جعلت تشن الغارة على أعوان الأميرال ، الذين اضطروا من جهتهم إلى تأليف عصابات مثلها أطلقوا عليها اسم « العصابات البيضاء » ، لمقابلة الهجوم بالهجوم والفظائع بالفظائع .

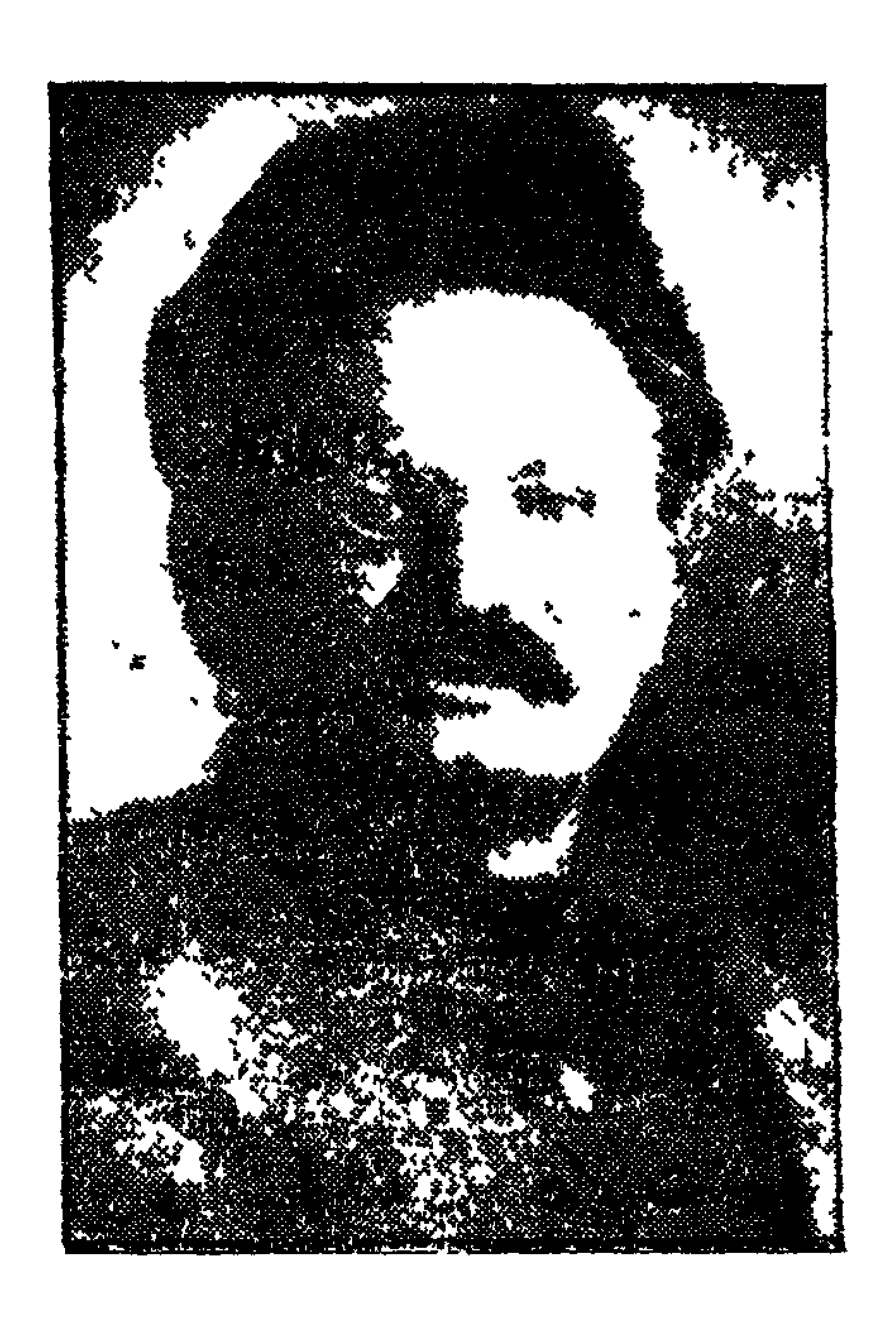
«وكان « الحمر » إذا وقع بين أيديهم أحد من « البيض » أسيراً ، ينزعون عنه ملابســه ويسومونه العــذاب أشكالا وألوانا . وكان « البيض » أيضاً ، إذا وقع بين أيديهم أحد من « الحمر » ، يفعلون مثل ذلك بقسوة شيطانية ، لم يذكر التاريخ مثلها فى عصوره المظلمة . وكثيراً ما كان أولئك الوحوش يعمدون إلى تجريد الأسير من ثيابه وإلقائه موثق اليدين فى وسط الثلج وتركه يموت جوعاً وألما .

«ولما استولى « روجوف » على مدينة « كوزنتسك » أمر جنوده بالقضاء على السكان فذبحوا منهم ألفين بين رجل وامرأة . فكانوا يدخلون المنزل ويقودون من فيه إلى عتبة الباب حيث يجردونهم من ملابسهم ويذبحونهم ذبح الأغنام . ولم تسلم امرأة أو فتاة من تعدى الجند .

« وكان الجنود أحياناً يأتون بالأسير وينشرونه بمنشار شطرين ، كما حدث لمليايف وبتروف »

***

وهنا ألقى سرج الجريدة من يده واستطرد قائلا :



تروتسكى ـ يد لينين اليمنى فى اقامة النظام الشيوعى فى روسيا

« فى سنة ١٩١٩ ، قبض جنودنا على كوكبة من الفرسان البلشفيين على أثر كمين نصبوه لها ، فوقع الجميع أسرى بين أيدينا . . . وكانت زوجتى « كاترين » معهم .

« تصوّرا موقفى ! كنت لا أزال أحارب فى صفوف أنصار الحكم القيصرى ، وكانت زوجتى رئيسة لإحدى لجان السوفيات ، فجىء بها إلى معسكرنا ، فى جبال الأورال ، وزجت مع رفاقها فى سجن مظلم ، فى انتظار حكم الإعدام بعد يوم أو يومين .

« رأيتها ، وعرفتها . لـكنها لم ترني . فحاولت أن أدخل السجن ولـكن المراقبة كانت شديدة ، فذهبت مجهوداتى سدى ، و بقيت ذلك اليوم كله أفكر فى طريقة أنتشل بها زوجتى من مخالب الموت .

« كانت عدوّتى فى المذهب السياسى ، لـكنها كانت ولا تزال زوجتى . فتلاشت الأحقاد والضغائن أمام ذلك الخطر الذى كان يتهدّدها ، وتذكرت الأيام التى قضيتها معها قبل تلك الثورة المشئومة ، فى سعادة وهناء .

«ولما ضاقت بى الحيل ، ذهبت إلى القيادة العامة، و بسطت الامر لقائدى ، طالباً منه أن يعفو عن زوجتى اعترافاً بما قمت به أنا من خدمات جليلة للقضية الوطنية ، وأن يمنحنى حياتها جزاء إخلاصى و إقدامى .

« فتردّد القائد طويلا ، ثمّ التفت إلىّ وقال :

— إنك جندى شجاع وضابط من خيرة الضباط يا سرج . ولا يسعنى إلا أن أجيبك إلى طلبك وأمنحك ما ترغب وتريد . ولـكن لابدّ من الرّحيل عن هذه المدينة .

« فقلت له :

— كيف أرحل ياحضرة القائد والحرب الأهلية لم تضع أوزارها بعد ؟

« فأجابنى وقد تقطب جبينه :

— لن نصل إلى نتيجة مرضية ياسرج ، وسيكون نصيبنا الفشل .

أجل ، سنضطرّ بعد أسابيع معدودة ، إما إلى التسليم و إما إلى الهرب . فاذهب الآن ، وابتعد عن بلاد لا أمل فى إنقاذها من الفوضى . إن العدوّ الذى نحارب به قوىّ شديد البطش ، لن نستطيع قهره .

« ثمّ نادى جندياً وأرسله فى طلب الضابط الموكل إليه بحراسة الأسرى ، فأمره باحضار كاترين .

« عاد الضابط بعد حين ومعه زوجتى مكبلة بالحديد .

« لا أطيل فى شرح ذلك المشهد المؤلم . . .

« عانقتها — وعانقتنى . . . وقبلتها وقبلتنى . . . وكلمتها . . . ولكنها لم تجبنى . . .

« ذلك لأنها فقدت حاسة النطق . . .

« فهمت منها بالإشارة أنها أصيبت برصاصة فى عنقها ، وأنها نجت من الموت بأعجوبة .

« فنهض القائد وصافحها قائلا :

— لقد سمعت باسمك ياسيدتى ، و إنى أغتنم هذه الفرصة لأعبر لك عن إعجابى بك . لقد عقد عن النطق لسانك ، ولكن ألسنة من عرفوك ورأوك فى ساحة القتال منطلقة بالثناء عليك . فاذهبى الآن مع زوجك . لقد قمت بواجبك نحو حزبك ، كما قام هو بواجبه نحو حزبه . فابتعدا الآن عن هذه البلاد ، واهجرا السياسة والقتال .

« فشكرت له حسن صنيعه ، وخرجت مع زوجتى ! »



قيصر روسيا نيقولا الثانى بين أفراد أسرته

* * *

هذا ما قصه علينا « سرج توماروف » الروسى القيصرى ، نزيل مصر ، فى سنة ١٩٢٧ .

وقد قال لنا إنه سافر من جبال الأورال إلى رومانيا فوصل إليها بعد ثلاثة أشهر ، وكان قد جمع مبلغاً من المال لا يستهان به . ولما سألناه عن كيفية جمع ذلك المبلغ قال :

— لقد نهبته من الأعداء كما نهبوا هم أموالى

ثمّ قال بعد سكوت قصير :

— مكثت مدّة فى رومانيا ، ثمّ سافرت إلى اليونان ، ومنها جئت إلى مصر حيث أقيم الآن . ولـكننى سأسافر قريباً إلى القفقاس ، وقد أستطيع الحصول على ما تركه لى والدى من عقار بعد وفاته . أما زوجتى كاترين فانها تقيم معى هنا ، فى هذا المنزل ، لـكنها لا ترغب فى مقابلة أحد . وقد أصبحت الآن من ألدّ أعداء البلشفيين ، ولا أشك فى أنها ستحارب بهم فى ميدان القتال لو أتيح لهـا ذلك .

فشكرنا للرّجل حسن ضيافته وانصرفنا على أن نعود إليه . وعدنا أكثر من مرّة . . .

ثمّ علمنا ذات يوم أنه غادر القاهرة عائداً إلى بلاده . وانقطعت أخباره عنا منذ ذلك اليوم .



٢٥

بين النهود والنحور

دخل أحمد أغا الشركسى على صديقه افرام باشا ، فوجده واقفاً أمام صورة الغازى مصطفى كمال باشا ، غارقاً فى أفكاره ، شاخص البصر إلى ذلك الرّسم الذى حلّ فى تركيا كلها محلّ رسـوم السـلاطين والغزاة وكبار القوّاد . حيّاه فلم يجب ، فاقترب منه ووضع يده على كتفه وقال :

— ماذا عراك أيها الصديق ؟ لم أعرفك قط من المعجبين بالغازى . فمـا بالك تنظر إليه نظرة المدنف المتصفح ؟ هل أمسيت أنت أيضاً من عشاقه ومريديه ؟

فالتفت افرام باشا إلى صديقه والشرر يتطاير من عينيه ، وأجاب بصوت باحٍ مختنق :

— معاذ الله أن أكون من عشاقه ومريديه ياصديق ! إننى أكرهه وأضمر له الشرّ وأتمنى له العذاب والبؤس والتعاسـة . لقد جنى هـنا

الرّجل علينا جميعاً . لـكن فى السماء إلٰهًا عادلا سوف يقتص منه وينزل به العقاب عاجلا أو آجلا !

وألقى الرّجل بنفسه على مقعد ، ماسكا رأسـه بيديه ، وأخذ يبكى بكاء مراً . فجلس أحمد أغا بجانبه ، وجعل يهدىء ثورته ، طالباً إليـه أن يطلعه على سرّه ، ويفضى إليه بمكنونات صدره .

ولمـا عاد إلى افرام باشا رشده ، وتمالك نفسه ، نهض وأخذ صديقه من ذراعه قائلا :

— هيا بنا أيها العزيز إلى حديقة القصر . وهناك سأطلعك على ما تجهل من قصة حياتى ، وأجعلك حكما بينى وبين طاغيـة الترك ، الذى يعبده الناس ويسيرون وراءه كالنعاج الطائعة !

*
* *

جلس الرّجلان فى ظلّ صفصافة ، فى الحديقة الغناء ، المحيطة بذلك القصر الشاهق ، وبعـد سكوت طويل كان افرام باشا فى خلاله يتنهد ويتمتم كلمـات مبهمة ، خاطبـه أحمد أغا ملحاً أن يقصّ عليـه قصته ويتذرع بالصبر والجلد :

— إن أعمالك وحركاتك الصبيانية تدهشـنى وتقلقنى . . . فقل لى . . . ما بك ؟

— سأتكلم ... سأقول لك كلّ شىء ... ولـكن لا تقاطعنى .. بل دعنى أستمرّ فى حديثى إلى النهاية ، ثمّ قل ما تشاء .



الغازى مصطفى كمال باشا

— افعل . إنى لإرادتك خاضع طائع .

— لا حاجة بى يا صديقى إلى سرد تاريخ حياتى من بدئها . فانك تعلم كيف نشأت ، وكيف دفعنى حبّ المجازفة والمخاطرة إلى التجوّل سنوات عديدة فى برالأناضول وجبال أرمينيا والقفقاس . وتعلم أيضاً أن

رحلاتى تلك أوحت إلىّ باختيار مهنة يفشل فيها الخامل الجبان ، ويفوز الجسور الشجاع . وأعنى بها تجارة الرّقيق . . .

« مرّت علىّ أيام سود ، ذقت فيها الأمرّين ، وعانيت من المصاعب والمشقات ما يعجز الكلام عن وصفه . لكنى قاومت مقاومة الأبطال ، وجاهدت جهاد المستميت ، فتغلبت على ما اعترضنى من عراقيل وعقبات ، وفزت بالجاه والثروة ، ورأيت النعم والأموال والألقاب تتدفق علىّ من كل فج وصوب ، وأصبحت افرام باشا الذى عرفته بالأمس ، الرّجل المتمتع بجميع مايحلم به إنسان من ملذّات ، والذى تراه الآن أمامك خائر القوى ، ضعيف الإرادة ، ذليل النفس ، يبكى بكاء الأطفال . . .

« أراك تسألنى : ماعدا عما بدا ؟ ولماذا أصبح افرام باشا اليوم غير الرجل الذى عرفه الناس بالأمس ؟ فاعلم ياصديقى أننى لا أقوى على احتمال ماينزله طاغية تركيا بنا من مصائب وويلات . أجل. لا أحتمل ذلك ، ولا أرضى بأن تمحق تركيا التى عرفناها وورثناها عن آبائنا وأجدادنا من الوجود ،لتقوم على أنقاضها تركيا أخرى ، بمدنية جديدة ، وشرائع جديدة ، وقوانين جديدة ! لست ياصديقى من رجال السياسة ، لكننى سأدافع عن تقاليدنا التى يحاول مصطفى كمال القضاء عليها . . .

« لقد ثار ثائرى عندما نادى الطاغية بتحريم تعدّد الزوجات والانقطاع إلى امرأة واحدة دون سواها من بنات جنسها ، لأننى رأيت

فى ذلك تعرّضاً للحرية الشخصية ، وانتهاكاً للشرائع الدينية والمدنية ، وخروجاً على التقاليد المرعية عندنا . وهـذا هو سبب حزنى وكآبتى . أريد أن أدافع عن العرف والتقاليد . لـكننى ضعيف الحول وخصمى قوىّ منيع الجانب . ثمّ إننى أرى الشـعب كله سائراً تحت لواء ذلك المبشر بمذهب جديد و بمدنية جديدة . ولاشك فى أنه سيكون الغالب المنتصر . فما العمل الآن ؟ لايسعنى أن أهجر نسائى ولم يبق لى ما أرجوه من تجارتى ومزاولة مهنتى ! ماذا تنفع النخاسة وماذا ينفع الرّقيق فى بلاد لايقتنى رجالها أكثر من امرأة واحدة ؟ نعم . لقد أفل نجمى ، وقضى مصطفى كمال على آمالى وآمانى فى هذه الحياة ! »



مصطفى كمال باشا بالقبعة

وعاد افرام باشا إلى البكاء والنحيب ، فأدخله صديقه أحمد أغا إلى القصر وودعه وانصرف ، ولسان حاله يقول :

— إن من يحاول إقناع المجانين بخطئهم يكون مجنوناً مثلهم !

*
* *

ظلّ افرام باشا يندب حظه ، و يأسف لما وصلت إليه تركيا فى عهد مصطفى كمال ، و يفكر فى القرار الذى ينبغى عليه اتخاذه إزاء هذه الحالة التى لم يكن ليطيق عليها صبرا .

فاكتنفته الهواجس ، وساورته الشجون ، وجاشت فى صدره ذكريات الماضى، فجعل يستعرض حياته، وأياماً خلت كان فيها يجوب البلاد طولاوعرضاً ، وفى ركابه العشرات بل المئات من الخدم والعبيد ، فيهبط المدن والقرى ، و يتوغل فى الجبال والمزارع ، ثمّ يعود إلى الاستانة بما اقتنصه من ظبيات حسان ، فيختار لنفسه ولأعزّ عملائه أبرع قنائصه جمالا وافتكهنّ لحظاً ، و يطرح الباقيات فى سوق النخاسة ، فيتهافت القوم عليهنّ ، ويحصل كلّ منهم على جارية ممشوقة القوام أو بضة الجسم ، حسب رغبته ومشيئته ، مقابل ما تساويه تلك النفس البشرية المسكينة من قطع ذهبية ، يوردها الوسطاء إلى خزائن النخاس الأكبر ، افرام باشا . . .

رأى الرجل نفسه فى حضرة السلطان عبد الحميد ، وقد ساق إليه حسانه ، فاختار منهن السلطان طفلة باكية ، وفتاة فتانة ، وعذراء

انتزعها ز بانية النخاس من خدرها . . .

وعرضت السلع الباقية على رجال القصر فدفعوا ثمنها بكرم وسخاء ...

ثمّ عاد افرام إلى قصوره ، واستعرض عبيده وجواريه وسراريه الخمسمائة ، وتنقل فى أملاكه الشاسعة ، المبعثرة هنا وهناك ، من الاستانة إلى أزمير إلى أنقره إلى أريفان .

وتكرّم على كل من زوجاته الست والثلاثين بكلمة تلطف ، وبقضاء يوم وليلة فى خدرها ، ثمّ شدّ رحاله من جديد إلى الصيد والقنص . . .

***

مرّ الحلم ، وعاد الرّجل إلى مواجهة الحقيقة ، فضاق صدره وقال فى نفسه :

— لا أجد منفذاً للخروج من هذا المأزق الذى زجّنى فيه الطاغية ، ولن أسمح لأحد بعدى بأن يتمتع بما تمتعت به . . . فلا بدّ من الاستشهاد فى سبيل الواجب ، فى سبيل المهنة التى عشت منها ومن أجلها . أما الجوارى ، فليذهبن حيث شئن ، وأما الزّوجات فسآخذهنّ معى إلى العالم الآخر . . .

وجمع النخاس نساءه الست والثلاثين ، فى ذلك القصر الجميل ، الذى وجده فيه صديقه أحمد أغا الشركسى ، وخطبهنّ قائلا :

— لقد عزمت على إحياء ليلة فرح وطرب ، جامعة لكل أسباب الملذات والمسرّات ، لم يذكر التاريخ وليمة مثلها . . . فالبسن أجمل ما تملكن من ثياب ، وتحلين بأثمن ما عندكن من مجوهرات ، فقد أحرزت اليوم نصراً مبيناً على خصومى، وقهرت أعدائى ونلت مناى...

* * *

جلس افرام باشا إلى المائدة ، وجلست زوجاته حواليه محيطة به إحاطة السوار بالمعصم ، فأكلن وشربن ورقصن وأنشدن الأناشيد والأهازيج وبعد أن لعبت الخمرة فى الرءوس ، نهض الرّجل وقال :

— لقد أعددت لكنّ مفاجآت لم تحلمن بها قبل اليوم . . . سأدخل هذه الغرفة ، وأنادى كلاًّ منكن بمفردها ، وأقدّم لها الهدية الثمينة التى خصصتها بها . .

ففرحت النساء وهللن ، ودخل افرام باشا تلك الغرفة التى أعدّ فيها الجواهر والحلىّ، ووضع بجانب كل هدية كأساً صبّ فيها سماً زعافا .. ونادى نساءه الواحدة بعد الأخرى . . .

كانت المسكينة تخطو عتبة ذلك القبر الوهاج بما ترسله الجواهر من لمعان وبروق ، وهى ضاحكة فرحة ، فتتقبل من سيدها هديته ، وتشرب الكأس فى صحته ، وتخرج من باب آخر باشارة من الرجل ...

وهناك ، فى قاعة أخرى ، كانت تجد من سبقها من الزّوجات التعسات ، يتقلبن على الأرض ، وقد سار السمّ الناقع فى دمائهنّ ،

ومشى فى عروقهن ، وتغلغل فى أجسامهن . . .

ولما أهدى افرام باشا هديته الأخيرة ، دخل القاعة التى أعدّها مدفناً له ولزوجاته ، وهناك ، على نغم الزفرات والتأوهات التى كانت تصعدها صدور ضحاياه ، همّ بشرب الكأس التى احتفظ بها لنفسه ، مواجهاً الموت بقدم ثابتة . . .

لكن فكرة شيطانية تولدت فى رأسه ، وهى الأخيرة . . .

— يجب أن أتأكد من موتكن جميعاً قبل أن أسقط على الأرض بلا حراك !

واستل افرام خنجره ، واقترب من زوجاته واحدة واحدة ، وطعن كلاً منهن طعنة نجلاء فى قلبها ، تأكد منها أن المرأة لن تعود إلى الحياة.

ثمّ شرب الكأس واستلقى بجانب أحبهن إليه ، و بعد أن وضع على جبينها قبلة حارة ، خاطب تلك الجثة الهامدة قائلا :

— لقد خدعتكنّ ، ولكننى فعلت ذلك فى سبيل تقاليد مجتمعنا التى اجتاحها الخونة الأشرار . فالى اللقاء أيتها الزوجات الصالحات ، من تركيات وشركسيات وأرمنيات وكرجيات . سقيتكنّ السم بضمير مرتاح ونفس راضية ، وطعنتكنّ بيد لم ترتجف قط . فالى اللقاء الآن ، فى جنة النعيم التى لن يلج بابها من يلقبون أنفسهم بالمصلحين . لقد وفيت دينى نحو بلادى ومذهبى ومعتقدى وتقاليدى ، فالى اللقاء . . . إلى اللقاء . ! .

وبذلك الخنجر الذى خضبه بدماء ست وثلاثين زوجة ، طعن افرام باشا نفسه فى قلبه ، فسقط على جثة أحبّ نسائه إليه ، وفاضت روحه فى الحال . . .

***

بلغ أحمد أغا الشركسى خبر جريمة صديقه الشنعاء ، فأسرع إلى مكان الحادثة مع من أُسرع إليه من رجال السلطة . ولما علم بما حدث ، هزّ رأسه وقال :

— هذا ما كنت أنتظر . . . لقد ربح الرجل ثروة من المتاجرة بالنهود والنحور ، وقضى حياته بين النهود والنحور ، وفاضت أنفاسه بين النهود والنحور !



فهـــرست الضحايا

صفحة

صفحة

٢٩٥

تم طبع هذه القصص فى يوم الأثنين ٢٦ رمضان سنة ١٣٥١ هـ
(٢٣ يناير سنة ١٩٣٣ م) م؟

مدير المطبعة

رستم مصطفى الحلبى



المصريات

٢٥ قصة من التاريخ القديم والحديث

وهى الحلقـــة الثانية

من سلسلة

تاريخ ما أهمله التاريخ